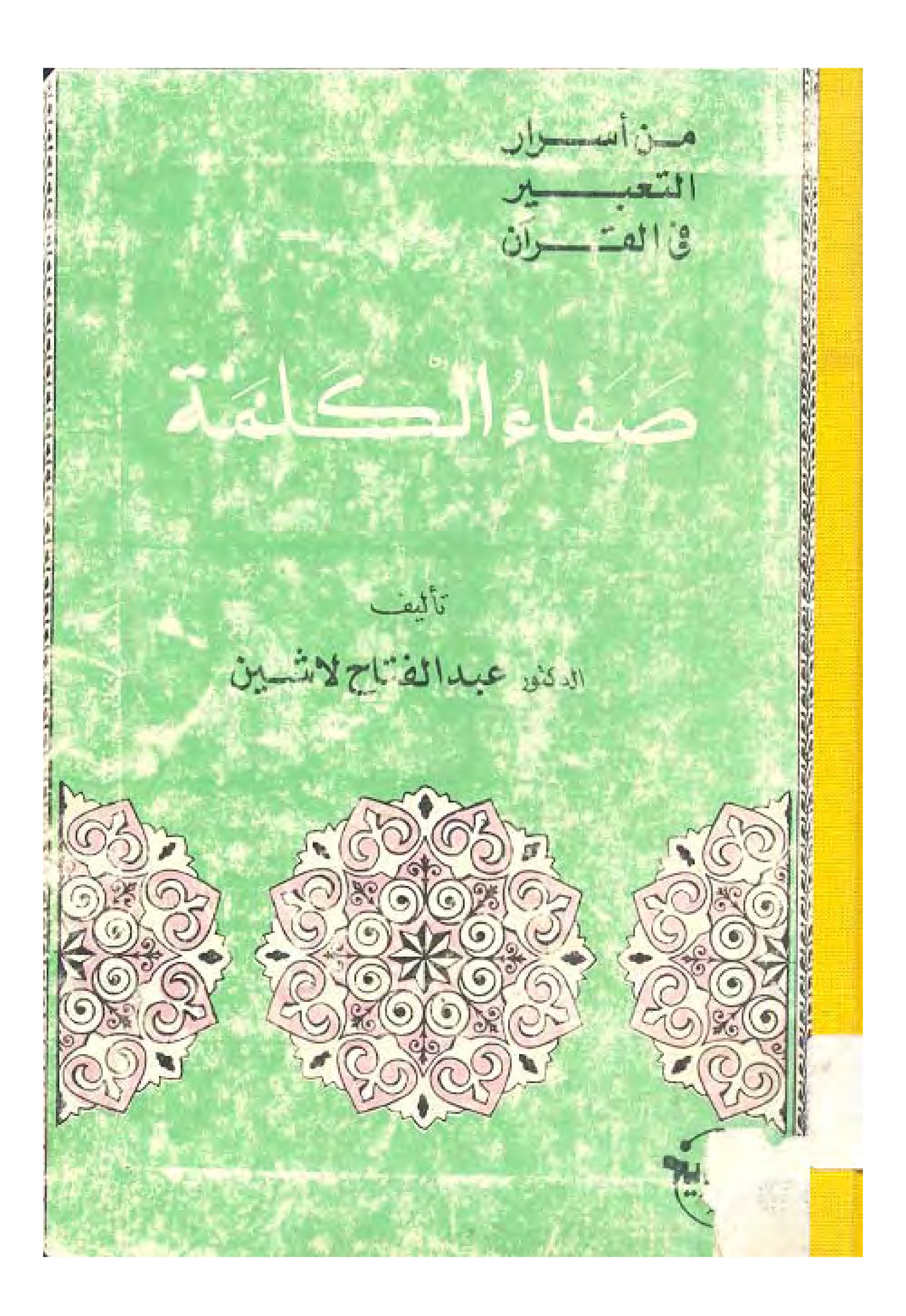

من أسرار
التعبير
في القرآن
صفاء الكلمة
تأليف
الدكتور عبد الفتاح لاشين

طبعة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣ الرياض

دار المريخ للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

فقد أصدرنا الكتاب الأول من سلسلة « من أسرار التعبير فى القرآن » وقد تولت إصداره ونشره دار عكاظ بالمملكة العربية السعودية ، وقد كان هذا الكتاب خاصا بما أودعه الله تعالى فى حروف القرآن من أسرار ، وما تضمنته من لطائف .

وكانت الكلمة القرآنية المكونة من تلك الحروف ، لذيذة السماع على مُسْتَقْبِلِها ، طيبة المجرى على اللسان ، معتدلة فى الوزن ، نازلة على أحسن هيئة فى الإيقاع ، شديدة البعث لما تضمنته من المعانى المرادة ، هذا فى حروف المبانى .

أما حروف المعانى فقد كان استعمالها فى التعبير القرآنى على قدر الضرورة ، ووفق الحاجة ، فلم يَزِدْ فيها زيادة ترهق السمع ، أو تشعر السامع بالملل ، وإنما كان كل حرف فى موضعه بحيث لا يمكن أنِ يستغنى عنه ، أو يستبدل به غيره .

وكان من نتيجة ذلك أن جاءت الكلمة المؤلفة من هذه الحروف ، خفيفة على السمع ، سهلة فى النطق ، عذبة على الأسلات ، تدل على المعنى المراد بيسر وسهولة .

وقد أجهد العلماء أنفسهم فى بيان مقاييس الجمال فى الكلمة ، فاشترطوا أن تكون خالية من : تنافر الكلمة ، ومن مخالفة أوضاع

اللغة ، ومن الغرابة ، وهذه الشروط هى عوامل مساعدة لمن وهبه الله فقه اللغة ، وسر العربية ، وهذه الضوابط تصقل هذه الموهبة حتى تأتى باللفظ البليغ الذى يعجب ويطرب .

والحقيقة أن تذوق الكلمة العذبة ووضعها فى أى تعبير جميل ، أو أسلوب أخاذ ، هو فطرة فى النفوس ، يشعر به كل صاحب ذوق سليم ، ونظر مستقيم ، وهو عمل يميل إليه السمع ، ويألفه الطبع ، ألا ترى الإنسان يطرب إلى صوت البلبل ، وينفر من صوت الغراب ، وكلاهما صوت ، فأصوات الكلمات تجرى فى السمع مجرى الطعام فى الحلق .

ولهذا كان التعبير القرآنى حدث فريد لم يسبق إليه ، ولن يلحقه أحد ، لأن أصحاب هذه الأذواق بشر ، وفرق بين صنع البشر ، وصنع الله الذى أتقن كل شىء ، وهو خبير بما يصنعون .

ولذلك عندما زعمت الأعراب الإيمان ، فقالوا : [آمَنَّا] ، أراد الله سبحانه : أن يردهم إلى التعبير الصحيح ، ويرشدهم إلى الكلمة التى تعبر تماما عما فى داخل نفوسهم ، فقال تعالى :

﴿ قُلْ : لَمْ تُؤْمِنُوا ، ولكنْ قُولُوا : اسْلَمْنَا ، ولمَّا يَدخل الإيمانُ فى قُلوبكم ﴾ .

فقد نبه القرآن الكريم الأعراب أن يلتزموا الدقة فى التعبير ، فيقولوا : [أسلمنا] بدلا من [آمنا] حتى لا تضل المعانى بين الاحتمالات ، وتتوه الأغراض والمقاصد فى الأفهام .

وقد تناولنا فى هذا الجزء مدى عناية القرآن الكريم باللفظة المستعملة فيه ، فكانت الكلمة فى جُمَلِه بمنزلة الفريدة من حَبِّ العِقْد ، فلا يقع

مثلها لمخلوق ، ولا يستطيع أحد الإتيان بمثلها ، ولا يكاد ذو ذوق سليم ، وذهن مستقيم يفطن إلى شبهها ، وإذا سقطت . هذه الكلمة من الكلام ، عزَّ على الفصحاء سقوطها .

واللفظة قد تكون فصيحة مستعملة فى كل أحوالها : فى الإفراد ، والجمع ، والتذكير والتأنيث ، والإظهار والإضمار ، وغير ذلك من الاستعمالا ، وهو الأكثر فى ألسنة العرب ، كلفظ : الدينار ، والفرس ، والإنسان ، وغير ذلك من الألفاظ العربية .

وقد تكون الكلمة أحوالها مختلفة بالإضافة إلى استعمالاتها ، فتارة يقبح استعمالها مفردة ، ولا يقبح استعمالها مجموعة ، وقد يقبح استعمالها مجموعة ، ولا يقبح استعمالها مفردة ، وقد يفضل استعمالها نكرة ، ويكره استعمالها معرفة ، والعكس .

وقد كان القرآن الكريم دقيقا فى اختيار ألفاظه ، وانتقاء كلماته ، فإذا اختار اللفظ معرفة ، كان ذلك لسبب ، وإذا انتقاه نكرة ، كان ذلك لغرض ، كذلك إذا كان اللفظ مفردا ، كان ذلك لمقتضى يطلبه ، وإذا كان مجموعا كان لحال يناسبه ، وقد يختار الكلمة ، ويهمل مرادفها ، الذى يشترك معها فى بعض الدلالة ، وقد يفضل كلمة على أخرى ، والكلمتان - ظاهرا - بمعنى واحد ، وربما يتخطى فى التعبير المحسن اللفظى ، والجمال البديعى - على قدره وحسنه - لغرض أسمى - وهو الحسن المعنوى - وكل ذلك لغرض يرمى إليه فى التعبير ، وهكذا دائما : لكل مقام مقال ، فى التعبير القرآنى .

ونقدم هذا الجزء الثانى من تلك السلسلة «من أسرار التعبير فى القرآن» آملين أن ينفع الله به ، وأن يلمس شغاف قلوب قارئيه ، كما لمس قلوب سامعيه ، سائلين المولى عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، وألا يحرمنا أجره ، فهو السميع المجيب .

المؤلف

كلمات القرآن وحسن اختيارها

براعة أهل الصناعة في تخير الكلمة :

اجتهد أهل الصناعة فى اللغة العربية ، فبذلوا جهدهم ، لاختيار الحسن من الألفاظ ، فاستعملوه ، وأنفوا من القبيح فتجاوزوه ، وليس هناك دستور مكتوب ، أو قانون محكم ، لإحكام هذا الاختيار ، والإتيان بها على غاية من الضبط ، وقدر من الإحكام ، وإنما استحسان الألفاظ واستهجانها يعود إلى الحِسِّ ، ويرجع إلى الذوق[١] - كما كان الأمر فى الحروف - فالصوت قياس الحسن والقبح ، فما استلذه السمع منها فهو الحَسن ، وما نفر منها فهو القبيح.

يقول ابن الأثير[٢] : « ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل ، ويميل إليه ، ويكره صوت الغراب ، وينفر منه ؟ والألفاظ على هذا المجرى ، فلفظ [المزنة] أو [الديمة] حسنة .يستلذها السمع ، ومألوفةُ الاستعمال ، فهى فصيحةٌ ، ولفظةُ [البُعاقِ] يكرهها السمع ، وهى نادرة الاستعمال ، مع أن الألفاظ الثلاثة من صفات المطر » . « ومن يبلغُ به جهله إلى ألاَّ يَفْرُقَ بين لفظةِ [الغُصن] ولفظة [العُسْلوج] .وبين لفظة [المدَامِة] ولفظِة [الإسْفَنْط] ، وبين لفظه [السيف] ولفظة [الخَنْشَلِيل] ، وبين لفظةِ [الأسِد] ولفظةِ [الفدوكس] ، فلا ينبغى

---

(١) الذوق : هو استعداد خاص يهيىء ، صاحبه لتقدير الجمال فى التعبير والاستمتاع به ، ومحاكاته بقدر ما يستطيع فى أقواله وأعماله .

(٢) المثل السائر جـ ١١٥/١ ، ٢١٩ ، ٢٢١ .

أن يخاطَبَ بخطاب ، ولا يُجَاوَبَ بجواب ، بل يُتْرَكُ وشأنه ، كما قيل :
[اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقى الجَعْرَ[1] فى رَحْله] .

ومن له أدنى بصيرةٍ يَعْلَمُ أن للألفاظ فى الأذنِ نغمةً لذيدةً كنغمةِ أوتار ، وصوتاً منكرا كصوتِ حمار ، وأن لها فى الفم أيضا حلاوةً كحلاوة العسل ، ومرارةً كمرارة الحنظل ، وهى على ذلك تجرى مَجرى النغماتِ والطعوم » .

فالأداءُ القرآنيُّ يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولاتٍ ضخمةٍ فى حيِّزٍ يستحيلُ على البشر أن يُعبِّروا فيه عن مثل هذه الأغراض ، وذلك بأوسع مدلول ، وأدقِّ تعبير ، مع التناسق العجيب بين العبارة والمدلول .

يقول تعالى فى وصْفِ خروج القَطْرِ من السحاب :

﴿ فَتَرى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِه ﴾[النور ٤٣] . ويقول امرؤُ القيسِ فى هذا المعنى :

* فألقَى بصحراءِ العَبِيطِ بَعَاعَهُ *

فتأمل ما بين [الوَدْقِ] و [البَعَاعِ] ، فاختصاصُ [الودْقِ] بالرقة واللطافة ، و[البَعَاعِ] بالغلظِ والبشَاعة ، دِلالةٌ ظاهرةٌ على أن الفصاحةَ راجعةٌ إلى اللفظ ، لأجل دِلالته على معناه[2] .

وكان هذا هو الأصل فى ذوق العربى حين يَسمعُ ويَنقُد ، وهو ما تعارف عليه أهلُ البلاغةِ ، وصناعةُ الكلام ، سمع ابن هَرْمة رجلاً يُنْشِد قوله :

---

(١) الجعر : ما يبس من العذر فى المجعر وهو الدبر (٢) الطراز جـ ١٣١/١ .

باللّه ربكَ إنْ دخَلْتَ فقل لها   هذا ابنُ هَرمة (قائماً) بالباب

فقال له ابنُ هَرمة : لم أقل [قائما] ، أكنتُ أتصدق ؟ فقال الرجل : [قاعدا] فقال ابنُ هَرْمة : أكنتُ أبول ؟ قال الرجل : فماذا قال ؟ قال ابنُ هرمة : [واقفا] ، وليتك علمت ما بين هذين من قَدْرِ اللفظ والمعنى .

ففرقٌ بين [القيامِ] و [الوقوفِ] ، و[القُعودِ] فى البيت ، فالقيامُ : يقتضى الدوامَ والثبوت ، أما الوقوفُ فلا يقتضيهما .

وقد كان من تأثير لغة القرآن أن أصبحت القبائل تفاخر بما فى ألفاظها من شبه بألفاظ القرآن « قال أهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر : ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة ، فقال ابن المناذر :

أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن ، وأكثرها له موافقة ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم : أنتم تسمون القِدر [بُرْمة] ، وتجمعون البرمة على [برام] ، ونحن نقول : قِدر ، ونجمعها على قُدور ، وقال الله عز وجل : « وجَفانٍ كالجَوابِ وقُدُورٍ راسِيَاتٍ » [1] .

وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت [عُلِّيَّة] ، وتجمعون هذا الاسم على [عَلاَلىّ] ، ونحن نسميه [غرفة] ونجمعها على [غرفات ، وغُرف] ، وقال الله تبارك وتعالى : « غُرُفٌ من فَوقِها غُرَفٌ مبْنِيَّة [2] » ، وقال : « وهُم فى الغُرُفَاتِ آمِنُون » [3]

---

(١) سبأ ١٣ .   (٢) الزمر ٢٠ .   (٣) سبأ ٣٧ .

وأنتم تسمون [الطلع] : الكافور والإغريض ، ونحن نسميه الطلع ، وقال الله تبارك وتعالى : « ونَخْلٍ طَلْعُهَا هضيم »(١).

يقول الجاحظ : « فعد عشر كلمات ، لم أحفظ منها إلا هذا »(٢)

دقة القرآن فى إحكام التعبير :

دعا القرآن الكريم إلى الدقةِ فى التعبير والإحكام فيه ، حتى لا يَصحَّ أن يقعَ لفظٌ مكان آخر فتضِلَّ المعانى بين الاحتمالات ، وتتوه الأغراضُ والمقاصد فى ظلالِ الشك والتمويه ، فقال تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

[الحجرات ١٤]

فقد نبَّه القرآنُ الكريم إلى أن يلتزم الأَعرابُ الدقةَ فى التعبير ، فيقولوا : [أسلمنا] بدلا من [آمنا] حتى تقعَ الكلمةُ على معناها الحقيقىِّ دون تحريف .

ومن البديع فى هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى بعد أن أغلظ عليهم وجهَّلهم بعدم الدقة فى استعمال الكلماتِ فى محلها ، أدْخَلَ على الكلام شيئا من المحاسن ، وستر الغلظةَ بنوعٍ من اللطائف ، فأتى بأداة الاستدراك ، فقال : « ولكنْ قولوا أسلمنا » ، فلو اقتصر على ما دون الاستدراك ، لكان فى الكلام تنفيرٌ لهم وإساءة ، فأوجبت البلاغة ، وحُسْنُ التلطف ، ذِكرُ الاستدراك ، لِيُعلَم أنَّ الإيمانَ موافقةُ القلبِ

---

(١) الشعراء ١٤٨ .

(٢) البيان والتبيين جـ ١/١٨ ، ١٩ .

لِلسان ، وإن انفردَ اللسانُ بذلك يسمى إسلاما ، ولا يسمى إيمانا ، وزاد ذلك إيضاحا ولطفا ، فقال : « ولما يَدْخُلُ الإيمانُ فى قلوبكم » .

وكانت كلمةُ [راعِنا] يقولها اليهودُ للنبى – صلى الله عليه وسلم – على سبيل التهكم به ، ويقصدون منها سَبَّه بالرُّعونة ، ويُوهمونه أنهم يقولون : [راعنا] بمعنى [انْظُر إلينا] ، يقول تعالى مسجلا عليهم ذلك ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء ٤٦] .

وتجنُّباً لهذا اللبسِ فى التعبير نهى القرآنُ الكريم المؤمنين عن مخاطبة الرسول – عليه السلام – بها . وأنْ يبتعدوا عن هذا اللفظ الذى يتخذُه اليهودُ ذريعة ، وأمرهم الله سبحانه أن يستَبْدِلُوا بِهِ مُرَادِفَه فى المعنى ، الذى لا يملكُ السفهاءُ تحريفَه وإمالته ، حتى يُفوِّتُوا على اليهود غَرَضَهم ، فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ﴾ [البقرة ١٠٤] .

وبهذا المقياس الدقيق ، والميزان المضبوط كانت ألفاظ القرآن الكريم طبقا لمعانيه ، وقد استرعت ألفاظ القـــرآن وفصاحتُها أنظار العلماء ، فقال الراغبُ الأصفهانى[1]

---

(١) مقدمة (المفردات) للراغب الأصفهانى .

« ألفاظُ القرآنِ هي لبُّ كلامِ العرب ، وزُبْدتُه ، وأن ماعداها وعدا الألفاظِ المشتقاتِ فيها كالقشور والنوى بالنسبة إلى أطايب الثمر ، وكالحثالةِ والتبنِ بالنسبة إلى لُبُوب الحنطة .

فقد أحاط الله – جَلّ شأنه – باللسان العربى ، فمخَضه ، وألقى زُبْدَته فى كتابه الكريم ، وقرآنِه العظيم » .

ويُشير ابنُ أبى الإصبع إلى مَيْزة اللفظِ فى كلام المتكلم وأنه منه بمنزلة الفريدة من حَبِّ العِقْدِ ، وإذا سقطت هذه اللفظَةُ من كلام عزَّت على الفصحاء غرابتُها ، ثم يشير إلى أن هذا كثيرٌ فى القرآن الكريم ، فيقول : (١)

« فقد جاء من ذلك فى الكتاب العزيز غرائبُ ، لايقع مثلُها لمخلوق ، وهى من الكثرة فى القرآن بحيث يَعْسُر حصْرُها .

منها قوله تعالى على لسان امرأة العزيز : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ (٢) الحَقّ (يوسف اه) ، وقوله تعالى على لسان إخوه يوسف﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا منه خَلَصُوا نَجِيًّا (٣) ﴾ [يوسف ٨٠] – فألفاظ هذه الجملة كلِّها من هذا الباب ، وأجزلُها قوله : [اسْتَيْأَسُوا] وأفصحُها قولهُ [خَلَصوا نَجِيًّا] .

ثم يقولُ ابنُ أبى الإصبع ، ولقد رأيتُ بعضَ الشعراء المُحْدَثين ضمنَّهَا شعراً له ، فأتى له من الوقع فى النفوس مالا تَطيق الألسنُ الفصيحةُ أن تُعبِّر عنه ، فقال هذا الشاعر :

---

(١) بديع القرآن ٢٨٧ .

(٢) حصحص : ثبت واستقر .

(٣) خلصوا نجيا : انفردوا متناجين ، والمناجاة : التحادث سرا .

أجيرتَنا بالغَوْر كيف خَلَصتُمُ
نَجِيًّا ، وأخفيتمُ حَدِيثكُمُ عَنِّي
لقد سمِعَتْ أذناى نَجْوَى فِراقِكُمُ
فلا أبصرتْ عينايَ ما سمِعَتْ أُذُنى

فتأمل هذا الشعر الذى يجدُ اللبيبُ لسماعة نشوة ، وماذاك إلا أنه ألقى على شبَه ألفاظِه إكسيرًا[1] من لفظة القرآن ، فصار ذلك الشَّبَهُ تِبْرًا خالصا ، ومزجَ باطِلُهُ بحقه .

ومن هذا الباب فى الكتاب العزيز قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ ٢٣] .

فانظر إلى لفظة [فُزِّع] وتأمل غرابة فصاحِتها ، لتعلَم أن الفكر لا يكادُ يقعُ عليها .

وكقوله تعالى تهديداً للكفار ووعيدا :

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

[الصافات ١٧٧]

فالمح هذه الألفاظ تجدْها كلَّها فى الطبقة العليا من البلاغة .

وكقوله تعالى فى علمه الشاملِ لكل ما رَقَّ وجل : ﴿ يعلمُ خَائِنَة الأَعْيُن ومَا تُخْفِى الصُّدور ﴾ [غافر ١٩] وهذه الفريدة أعجب من كل ما

(١) الإكسير : يزعمون أنها مادة تحول المعادن الرخيصة إلى ذهب ، أو شراب يطيل العمر ، الشَّبَه : بالتحريك ، النحاس الأصفر .

تقدم ، فإن لفظة [خائنة] بمفردها سهلةٌ مستعملة ، كثيرة الجريانِ على الألسُن ، فلما أضيفت إلى الأعين حصل لها من غرابةِ التركيب ، ما جعل لها فى النفوس هذا الوقع ، بحيث لا يُستطاع الإتيان بمثلها ، ولا يَكادُ يقعُ ذو فكر سليم ، وذهنٍ مستقيمٍ على شَبَهها » .

وانظر إلى قوله تعالى فى وصف كلٍّ من الليل والصبح : ﴿ والليل إذا عَسْعَس ، والصُّبحِ إذَا تنفس ﴾ [التكوير ١٧ ، ١٨] – ألاَ تشمُّ رائحة المعنى قويةً من هاتين الكلمتين [عَسْعَس ، وتَنَفَّس] ؟ .

ألاَ تشعُرُ أن الكلمةَ تَبعث فى خيال السامع صورةِ المعنى محسوساً مجسما دون حاجةٍ إلى الرجوع إلى المعاجم ، والبحثِ فى كتب اللغة ؟

وهل تستطيعُ أن تُصَوِّرَ إقبال ظلام الليل ، وتَمَدُّدَهُ فى الآفاق المترامية ، بكلمة تكون أدلَّ من [عَسْعَسَ] ؟ .

أو هل تستطيعُ أن تصوِّرَ انفلات الصبح من مخبأ الليل وسجنه بكلمة أروع من كلمةِ [تَنَفَّسَ] ؟[1] .

حقا – لا نَجِدُ حين البحثِ فى المعاجم ، والبحثِ فى كتب اللغة أَدَقَّ من هاتين الكلمتين فى التعبير عن هذين المعنيين .

وتأمل قوله تعالى فى قصة موسى – عليه السلام – حينما كان هاربا من فرعون : ﴿ فأَصْبَحَ فى المدينة خَائِفاً يترقَّب ﴾ [القصص ٢١] – فنرى لفظة [يترقّب] ترسم هيئة الرجل الحذِرِ المتلفتِ فى المدينة التى يَشيع فيها الأمنُ والأمان .

---

(١) من روائع القرآن ١٧٠ .

فالكلماتُ التى تألفت منها الجملُ القرآنية ، تمتازُ بجمال وقعها فى السمع ، واتساقِها الكامِل فى المعنى ، حتى لكأنك تشمُّ منها رائحة المعنى المطلوب ، وتلمحُ فيها صورة المضمونِ أمامَ العين .

والقران الكريم على كثرة سوره البالغةِ أربع عشْرَةَ سورة بعد المائة ، منها الطِّوال البالغةُ حَدُّ الطُّول ، والقصار البالغة نهايةُ القِصر ، والذى امتد زمنُ نزولِه ثلاثةً وعشرين عاما ، وما حوى فيه من توحيدٍ وعقائد ، وفقهٍ وأحكام ، وتحريمٍ وتحليل ، وتشريعاتٍ وقوانين ، ومغازٍ وسيَرٍ ، وقَصصٍ وأخبار ، وعلوم ومعارف ، فقد كان جلُّ استعمالِ القرآنِ فى هذا كلِّه ، للكلمات الثلاثية فى الأفعال والأسماء مجردة ومزيدة ، بل تكادُ تكونُ كلُّ ألفاظِه هكذا .

« أما الأفعال الرباعية المجردة فقد جاء منها فِعْلٌ واحدٌ فى القرآن الكريم ، وعلى صورة واحدةٍ فى موضعين :

(أ) فى قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ ﴾ [العاديات ٩] .

(ب) وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار ٤] .

وبعضُ أفعالٍ من مضعَّفِ الرباعى ، مثل [زلزل ، ووسوس] ، ويرى الكوفيون أنَّ نحوَ [زلزلَ] ثلاثىٌّ مزيد ، لا رباعىٌّ مجرد .

أما الأسماءُ الرباعيةُ المجردة فقد جاء منها فى القرآن ستة أسماء ، على مثال [جعفر] [بَرْزَخٌ ، وسرْمَدٌ] وعلى مثال [بُرثُن] [زُخرفٌ ، وسندسٌ] ، وعلى مثال [زِبْرج] جاء بالتاء [سِلْسلَةٌ ، وشِرْذِمةٌ] ولم يقع فى القرآن من غير التاء .

والاسم الخماسى المجرد لم يقعْ فى القرآن الكريم منه شيئا .

والاسمُ الرباعىُّ المزيدُ بحرفين غيْرُ المشتقِّ ، جاء منه فى القرآن ثلاثةُ ألفاظٍ ، هى : [العنكبوت] : وقد كررت فى آية واحدة فى قوله تعالى :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت ٤١] .

و [زمهريرا ، وقمطريرا] فى قوله تعالى : [إنَّا نَخَافُ من ربِّنا يومًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا] ، [لا يَرَوْنَ فيها شَمْسًا ولا زَمْهَرِيرًا] . والاسمُ الخماسىُّ المجردُ لا يُزَاد عليه إلا حرفُ مدٍّ قبلَ الآخِرِ ، وجاء منه فى القرآن لفظان ، وهما [زنجبيلٌ ، وسلسبيلٌ] فى قوله تعالى :

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الدهر ١٧ ، ١٨] .

والاسم الرباعىُّ المزيدُ بحرفين ، والخماسىُّ المزيدُ بحرف ، اجتمع من النوعين أربعةُ ألفاظ فى سورة [الإنسان آيات ١٠ ، ١٣ ، ١٧ ، ١٨] وهى [قمطريرا ، وزمهريرا ، وزنجبيلا ، وسلسبيلا] فلم كان هذا ؟ ولم اختصت هذه السورةُ بهذه الألفاظ ؟ — الله أعلم بأسرار كتابه .(١)

فاستعمال القرآن الكريمِ للألفاظ الزائدة على ثلاثة أحرف قليلةٌ جدا بالنسبة لما استعمله من الألفاظِ الثلاثية ، وذلك حتى تكون الكلمة طيبة

---

(١) مجلة كلية اللغة العربية – الرياض – العدد التاسع مقال للشيخ محمد عضيمة .

المجْرَىَ على اللسان ، خفيفةً فى الفم ، تقع على السمع أحسنَ موقع وأجمل مسمع .

* * *

[استعمالات الكلمة]

فقد بينا فى الصفحات السابقة مدى عناية القرآن الكريم باللفظة المستعملة فيه ، فالكلمةُ فى جمله بمنزلة الفريدة من حَبِّ العِقْد ، فلا يقعُ مثلُها لمخلوق ، ولا يستطيعُ أحد الإتيان بمثلها ، ولا يكاد يقع ذُو ذوقٍ سليم ، وذهنٍ مستقيمٍ على شبهَها ، وإذا سقطت هذه الكلمةُ من الكلام عزّت على الفصحاء سقُوطُها .

واللفظة قد تكون فصيحة مستعملة فى كل أحوالها : فى الإفرادِ والجمع ، والتذكير والتأنيث ، والإظهارِ والإضمار ، وغير ذلك من الاستعمالات ، وهذا هو الأكثرُ فى ألسنة العرب ، كلفظِ الدينار ، والفرسِ ، والإنسانِ ، وغير ذلك من الألفاظ العربية .

وقد تكونُ الكلمة أحوالُها مختلفةٌ بالإضافة إلى استعمالاتها ، فتارةً يقبحُ استعمالُها مفردة ، ولا يقبحُ استعمالُها مجموعة ، وقد يقبح استعمالها مجموعة ، ولا يقبح استعمالها مفردة ، وقد يُفَضَّلُ استعمالُها نكرةً ، ويُكْرَهُ استعمالُها معرفةً ، والعكس .

وقد كان القرآن الكريمُ دقيقاً فى اختيار ألفاظه ، وانتقاء كلماته ، فإذا اختار اللفظ معرفة كان ذلك لسبب ، وإذا انتقاه نكرةً كان ذلك لغرض ، كذلك إذا كان اللفظ مُفردا كان ذلك لمقتضَى يطلبه ، وإذَا

كان مجموعا كان لحال يناسبه ، وقد يختارُ الكلمة ويُهمِلُ مرادفَها الذى يشترِكُ معه فى الدلالة ، وقد يُفَضِّلُ كلمةً على أخرى والكلمتان بمعنىً واحد ، وربما يتخطىَّ فى التعبير المحسِّنَ اللفظىَّ والجمال البديعىَّ – على قدره وحسنه – لغرض أسمى – وهو الحُسْنُ المعنوىُّ – وكل ذلك لغرضٍ يرمى إليه ، وهكذا دائما : لكل مقام مقالٌ فى التعبير القرآنى .

سر اختيار الكلمة

(نكرة أم معرفة)

الإبهام قد يكون مقصودا :

يورد القرآن الكلمات فى مواطنَ حساسة ، فلا نراها مقصورةً على المعنى المتبادَر منها فى أول الأمر ، بل عند إمعان النظر ، والتدقيق فى الكلمة ، نجدُ أنَّ دِلالَتها تَتَّسِع ، وأن لها إشعاعاتٍ مضيئة ، تُوحي بالمعنى الأَهَمّ ، والمقصودِ الأدَقّ .

و« قد يَظُنُّ ظانٌّ أن المعرفةَ أجْلَى ، فهى من النكرة أوْلَى ، ويَخْفَى عليه أنَّ الإبهامَ فى مواطنَ خليق ، وأن سلوكَ الإيضاح ليس بسلوكٍ للطريق ، وعلَّةُ ذلك أنَّ النكرة ليس لمفردها مقدارٌ مخصوص ، بخلاف المعرفة ، فإنها لواحدٍ بعينه ، يَثْبُتُ الذهنُ عنده ، ويسكنُ إليه .

ولما فى الإبهام من التفخيم حَذفوا صلة الموصولِ من قولهم : [بَعد اللَّتَيَّا والتى] أى بعد القضية التى لا يَبلغُ الخبر مداها ، ولا يحصرُ الخبرُ حَلاها »(١) .

ولذلك أبهم الله تعالى أسماء أهِل الكهف ، وزمانِهم ، ومكانِهم ، ولقد أجهد المفسرون أنفسهم ليعرفوا أسماءهم ، واسمَ كلبهم ، وزمانهم ، ومكانهم ، ولو أراد القرآنُ الكريم أن يُعَرِّفَهم ويحددَ مكانهم ، ويُعْلِمنَا زَمانَهم لَفعل .

---

(١) البرهان للزملكانى ١٣٦ وما بعدها – حَلاَها : من حَلْى المرأة ، والجمع حُلِىّ ، مثل ثَدْى وثُدِى .

لكن القرآن أبهم ذلك ، وفى هذا بلاغةٌ يقصدها القرآن ، فقد يكون الإبهام أسمى مراتب البيان ، لأنه لو قال أسماءهم – والأسماءُ مُشَخِّصاتٌ – فربما قال قائل : هذه الظاهرةُ لهؤلاء الأسماء بخصوصهم .

ولو عَيَّن القرآن مكانَهم ، لقال قائل : ربما كان مكانُهم يسمح بذلك . لكن الحق أبهمَ الأسماء ، والزمانَ ، والمكان ، ليدل على أن الوصف هو المطلوب ﴿ إنَّهمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بربِّهم وزِدْنَاهم هُدًى ﴾[الكهف ٣] .

تنكير [حياة] وتعريفها :

تأمَّلْ كلمة [حياةٍ] بصيغة التنكير فى سياق الحديث عن اليهود الذين أعرضوا عن الدعوة فى قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهم أحْرصَ الناسِ على حَيَاةٍ ﴾[البقرة ٩٦] ، فكلمةُ [حياةٍ] بالتنكير ، تُوحى بحرصِ أولئك اليهود على أن يُضيفوا إلى حياتهم – ولو عاشوا ما عاشوا – حياة زائدة ولو كان الزائد أقلَّ ما يَصْدُق عليه اسمُ الحياة ، فورودها منكَّرة ، أثارت فى النفس معنى التحقير ، وَدَلَّ على حياة حقيرة ، وشدة تكالب عليها من قِبَلهم .

ونَرىَ فى مُقابِل ذلك التنكير(التعْريف)للحياة الآخرة ، لتفيد هذه الحياة المعرَّفةُ المبالغةَ فى إكبارِ شأنها ، وتعظيمِ أمرها ، قال تعالى :

﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت ٦٩]

فالحياة الدنيا محصورةٌ فى اللهو واللعب[1] – من باب التشبيه البليغ – وقد صُوِّرتْ فى النفس بعبث الأولاد ولِعبهم ساعةً من نهار ، ثم يتفرقون .

وقد قوبلت هذه الحياةُ الحقيرةُ بمبالغة فى تعظيم الحياة الآخرة ، فقال : «وإنّ الدَّارَ الآخِرة لَهِيَ الحَيَوانُ» أى هى دار الحياة الحقيقية ، إذ لا يعرضُ الموتُ والفناءُ لمن فيها ، أو هى ذاتُها حياةٌ للمبالغة – والحيوانُ : فى اللغة مصدرُ [حَيَّ] وقد سُمِّيَ به كل ذى حياة ، وهو أبلغُ من [الحياة] إذْ فى صيغة [فَعَلَان] معنى الحركة والنشاط ، وهما من لوازم الحياة ، ولذا اختِيرَتْ عليها فى هذا المقامِ المقتضِى للمبالغة .

كما أورد القرآنُ لفْظَةَ [حياةٍ] المضافة لياء المتكلم فى مقام يُشعِر بأهميتها ، إذْ هى الحياةُ الآخرةُ ، الحياةُ الحقَّةُ الخالدة ، فقد حكى الله تعالى عن الكفار يومَ القيامةِ وما يظهر عليهم من حسرةٍ ونَدَمٍ ، فقال :

﴿ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر ٢٣ ، ٢٤]

فقد نكرت [حياة] فى آية . وعرفت فى أخرى ، وكان التنكير لغرض ، والتعريف لعلة ، ولكل منهما مقام يناسبه ، وحال يقتضيه .

---

(١) اللعب : هو أن تشغل نفسك بحاجة هى غير مسنونة ، ولم تصرفك عن شيء مسنون ، وعادة ما يكون ذلك فى وقت الصبا .
اللهو : حاجة غير مطلوبة وتشغلك عن حاجة مطلوبة ، وغالبا ما يكون ذلك فى وقت الشباب .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ ولكم فى القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة ١٧٩] فتنكير لفظ [حياة] أفاد التعظيم ، وذلك أنهم كانوا فى الجاهلية يقتلون بالواحد الجماعة ، وكم قَتَل [مهلهلٌ] بأخيه [كُلَيْب] حتى كاد يَفْنَى بنُو بكرٍ بن وائل .

وكان يُقْتَلُ بالمقتول غَير قاتله فتثور الفتنة ، ويَقَعُ بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام شرع القصاصَ ، فكانت فيه الحياة .

والإنسانُ إذا عَلِم أنه إذا قَتل قُتل ارتدع عن القتل ، فيسلَمُ هو من القَوَد ، وصاحبُه من القتل ، فكان القصاصُ سببا فى حياة نَفْسَيْن - فهذه الحياةُ المستقبلة مستفادة من شرعيةِ القصاص (١) .

وإذا كان المعنى على وجود حياةٍ فى المستقبل مضمومةٍ إلى الحياة الأصليةِ ، امتنع التعريف ، لئلا يُفْضى إلى إيهام أن الحياةَ من أصلها مستفادةٌ من القصاص .

وقد تكونُ العِلَّةُ فى إيثار التنكيرِ على التعريف ، هو أنَّ الغَرضَ إخراجُها مَخرجَ الإطلاق عن كل قيد من القيود اللازمة لها من تعريفٍ أو تخصيصٍ ، لأن التقدير : إن لكم فى القصاص [حياةً] ، بالغة من اللطف مبلغاً عظيماً ، وجامعةً لمصالح الدين والدنيا ، ونازلةً فى الاستصلاح منزلة تقاصَرتْ العبارةُ عن كنهه - فَحذفت هذه القيودُ كلها ، وأطلَقتْ إطلاقاً ، وعُوِّضَ التنوينُ عن هذه القيود - كما جُعل التنوينُ عوضًا فى [يومئذٍ وحينئذٍ] عن الجمل السابقة ، وفيه من التعظيم والفخامة ما يُرى » (٢) .

---

(١) البرهان للزملكانى ١٣٦ ، الكشاف جـ ٢٢٣/١ . (٢) الطراز جـ ١٦/٢ .

ويجوز أن يكون المراد بالتنكير فى [حياة] النوعية ، والمراد : نوع مخصوص من الحياة ، وذلك أن الرجل قد يرتدعُ بالقصاص فلا يَقْدُمُ على القتل ، لكن من الجائز ألا يكون للإنسان عَدُوٌّ فيقْصِد قتلَه حتى يمنعه خَوْفُ القصاص ، وحينئذٍ لا تكون حياة ذلك الإنسان لأَجْلِ الخوفِ من القِصاص .

ولما دخل الخُصُوصُ فى هذه القصة ، وجب أن يقال [حياةٌ] أى نوع مخصوص من الحياة – كما يقال [شفاءٌ] ، ولا يقال [الشفاء] فى قوله تعالى فى النحل :

﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾

[النحل ٦٩]

حيثُ إن العسلَ لم يكنْ فيه شفاءٌ لجميع الأمراض ، وإنما هو شفاء لنوع خاص[1] .

ولهذا اقتضى السياق والتعبير تنكيرُ لفظِ [حياة] لتؤدىَ الغَرضَ المقصودَ من الآية فتنكيرُها إما [للتعظيم] أو [للنوعية] ، ويمتنع فيها التَّعْريفُ – إذ التعريفُ يعمى المعنَى المراد ، ويؤدى إلى الابتعاد عن الهدف المقصود .

وقد بلغ هذا القولُ الكريم غَايةَ الإيجاز ، ونهاية الإعجاز ، مع شمول المعنى ، وإصابة الغرض ، فى القصاصِ العادلِ حياة : حياةٌ بِكَفِّ يَدِ الذين يَهُمُّون بالاعتداء على الأنفس ، والقصاصُ ينتظرهم فيردعُهم قبل الإقدام على هذه الفَعْلة النكراء .

(١) الفوائد ٧٠ .

وحياةٌ بِكَفٍّ يَد أصحاب دَم المقتول حتى لا تثور نفوسهم فيثأروا ، ولا يقفوا عند قتل القاتل ، بل يمْضُوا فى الثأر فتسيلَ دماءٌ ودماء .

وحياةٌ يأمَنُ كُلُّ فرد فيها على شخصه ، واطمئنانه إلى عدالة القصاص ، فينطلق آمنا يعملُ وينتجُ فإذا الأمةُ كلُّها فى حياة .

« وقد ألمَّ البلغاءُ بهذا المعنى من مثل قولهم : [القَتْلُ أنْفَى للقتل] .

كما ألم به زهيرُ بن أبى سُلْمى فى قوله :

ومنْ لمْ يَذُدْ عن حَوْضِه بسلاحِهِ يهدَّمُ، ومَنْ لا يظلم الناس يُظْلَم

لكن هؤلاء البلغاء لم يبلغوا شأو القرآن فى بلاغته وإعجازه ، فإذا قيست أقوالُهم بقوله – ولله المثل الأعلى – ، وأسلوبهم بأسلوبه ، كانوا هم على بداية الشوط ، وكان هو على نهاية الغاية ، وكانوا عند أول السفح ، وكان هو فى الذروة العليا من البلاغة والفصاحة ، والبُعْد بين بلاغةِ القرآن فى قوله [ولكم فى القِصَاصِ حَيَاةٌ] ، وبين بلاغة العرب فى قولهم : [القَتْلُ أنْفَى للقتل] ، كبُعد ما بين السماء والأرض .

١ – فكلمة [القصاص] أشمل وأعمُّ من كلمة [القتل] ، فهناك قصاصٌ على القتل ، وقصاصٌ على الجروح ، وقصاصٌ يُراد به التعزير والتأديب ، وكل ما كان عقوبةً شرعية ، أو اجتماعية ، أو أدبية ، فهو داخل فى هذا المعنى .

وقد رتَّب القولُ الإلهىُّ على القصاص رجوعَ الناسِ عن الجنايات خوفا من الجزاء والقصاص . وفى هذا سلامٌ للناس وأمنٌ ، بل حياةٌ وبقاءٌ لمن كان سيصير قاتلا أو جانيا ، ومن كان سيصير مقتولا أو مجنيا عليه .

٢ – القصاص عقوبة مشروعة لمن يستحق الجزاء على جناية اقترفها ، وذَنْب جَناه ، أما [القتل] – فى التعبير البشرى – قد يكون عدوانا ، كما يكون قصاصا .

فالقرآن أدق فى لفظه ، وأشملُ فى معناه .

٣ – تقديمُ [الجار والمجرور] فى التعبير القرآنى ، أفاد فائدة بلاغية من حيث التخصيص ، وذلك لم يتوفرْ فى التعبير البشرى .

٤ – المعنى فى الآية توضحه كلمتان : [القصاصُ حياةٌ] ، وفى التعبير البشرى لا يتضح إلا بالكلمات الأربعة .

٥ – براءة الآية من التَّكرار الحاصلِ فى حكمة العرب ، فقد ذُكر [القتلُ] فيها مرتين .

٦ – تنكيرُ [الحياة] فى الآية يفيد التعظيم .

٧ – لا فساد فى معنى الآية ، أما الحكمة : فإن الخطأ يكتنفُ معناها ، إذ ليس كلُّ قَتْل أنفى للقتل ، و [القتلُ] قد يكونُ اعتداءً فلا ينفى القتل – أما [القصاصُ] فهو الذى ينفى القتل ، ويكفل الحياة[1] .

تنكير [أحد] وتعريف [الصمد] :

وقد سُئل السيوطىُّ عن الحكمة فى تنكير [أحد] ، وتعريف [الصمد] فى قوله تعالى : ﴿ قلْ هُو الله أحَدٌ ، اللهُ الصَّمدُ ، لم يلدْ ، ولم يُولدْ ، ولم يكنْ له كُفْواً أحد » فأجاب بقوله[2] :

---

(١) أطوار الثقافة والفكر فى ظلال العروبة والإسلام جـ ١٤٠/٢ .

(٢) المعترك جـ ٥٩٠/٣ ، الإتقان جـ ١٩١/١ .

١ – « إنه نُكِّر للتعظيم والإشارة إلى أن مدلولَه – وهو الذاتُ المقدسة – غيرُ ممكنٍ تعريفُها والإحاطةُ بها.

٢ – وفى قوله [قل هو اللهُ أحد] لفظُ [هو] مبتدأ ، ولفظُ الجلالةِ [الله] خبر ، وكلاهما معرفة ، فأفاد الحصر فى هذه الجملة ، فَعُرِّفَ الجزءان فى [الله الصمد] لإفادة الحصر ، ليطابقَ الجملة الأولى ، واستُغْنِى عن تعريف [أحد] لإفادة الحصر دونه ، فأتى به على أصله من التنكير على أنه خبر ثانٍ.

وإن جُعل الاسم الكريم [الله] مبتـــدأ ، و [أحـــدٌ] خبر ، ففى ضميرِ الشأن ما فيه من التفخيم والتعظيم ، فأتى بالجملة الثانية على نحو الأولى بتعريف الجزءين للحصر تفخيماً وتعظيماً ».

تنكير [سلام] وتعريفها :

وقد جرى التعبيرُ القرآنى على هذا السياق فى تنكير لفظ [1] [السلام] وتعريفه ، فقد نكَّره فى تحية الأنبياء والرسل – عليهم السلام – وَعَرَّفهُ فى أماكنَ أخرى وقد كان لكلٍّ من التنكير والتعريف فى النص القرآنى ، مقامٌ كريم ، وسرٌّ عظيم ، يقول تعالى :

﴿سَلَامٌ عَلَى إبراهيم﴾ (الصافات ١٠٩) ، ﴿سَلَامٌ على نُوحٍ فى العَالَمين﴾ (الصافات ٧٩) ، ﴿سَلامٌ على إلْ يَاسِين﴾ (الصافات ١٣٠) ، ﴿سَلَامٌ على مُوسَى وهَارُون﴾ (الصافات ١٢٠) ، ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا﴾ (هود ٤٨).

---

(١) انظر فى الكلام على لفظ [السلام] بدائع الفوائد جـ ١٤٠/٢ – ١٤٣ ، ١٥٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، الطراز جـ ١٧/٢ ، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ١٣٧ .

وفى قصة يَحيى عليه السلام ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم ١٥] .

فقد ابتدأ الله تعالى السلام بلفظ النكرة فى كل هذه الآيات الشريفة ، لأن [السلام] دعاءٌ وطلب ، والعربُ فى ألفاظ الدعاء والطلب إنما يأتون بالنكرة إما مرفوعةً على الابتداء أو منصوبةً على المصدر ، كقولهم فى الدعاء على الإنسان : وَيْلٌ له ، وخيْبَةً له ، وجَدْعاً له ، وفى الدعاء له : سَقْياله ، ورَعيا ، وكرامةً ومسرة ، فجاء [سلامٌ عليهم] فى بدء التحية بلفظ النكرة كما جاءت بقية ألفاظ الدعاء عند العرب .

وفى تلك الآيات الكريمة المتكلِّمُ بالسلام هو اللهُ تعالى ، وسلامٌ منه (سبحانه) كافٍ من كل سلام ، ومغنٍ عن كل تحية ، ومقرِّبٌ من كل أمنية ، فأدنى سلامٍ منه يستغرقُ الوصفَ ، ويُتمُّ النعمة ، ويدفَعُ البؤس ، ويُطيبُ الحياة ، ويقطع موارد العطبَ والهلاك ، فلم يكن لذكر الألف واللام هنا معنى .

وتأمل قوله تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة ٧٢]

فقد جاء بـ « رضوان » مبتدأ منكراً مخبراً عنه بأنه أكبر من كل ماوُعِدُوا به من رضوانه ، فرضوانٌ من الله ولو يَسيرٌ أكبرُ من الجنات ، وما فيها من المساكن الطيبة ، وما حوته من أصناف الملاذ والسعادة .

ولهذا عندما يتجلى الله لأوليائه فى جنات عدن ، ويُمنِّيهم أىَّ شىء يريدون ، فيقولون : ربنا وأىُّ شىء نريدُ أفضل مما أَعْطَيْتَنَا ؟ فيقول تبارك وتعالى : إن لكم عندى أفضل من ذلك،أحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

فلهذا نُكِّر لفظُ [سلام] الصادرُ من الله تعالى لرسله وأنبيائه ، إذ القليلُ من تحيته يغنى عن كل تحية ، فالنظر دائما يكون إلى المنعم ، لا إلى الإنعام ، ولله در الشاعر إذ يقول فى هذا المعنى :

قليلٌ منك يكفينى ولكنْ   قليلُك لا يقالُ له قليلُ

ولأن تنكير لفظِ [السلام] يفيدُ بدءَ التحية ، والدعاءَ للمُسَلَّمِ عليه ، فقد كتَب رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – إلى هِرقْل – عظيمِ الروم – فقال : « من محمدٍ رسول الله إلى هِرقْل عظيمِ الروم – سلامٌ على من اتَّبع الهدى » .

أما تعريف [السلام] فى جانب الرَّادِّ على التحية حين يقول : [وعليك السلامُ] ، فله سرٌّ فى التعبير به ، وهو أن [الألفَ واللام] إذا دخلتْ على اسمِ [السلام] تضمنتْ فوائدَ ، منها :

١ – الإشعارُ بذكر الله تعالى ، لأن [السلام] المعرفَ من أسمائه .

٢ – إشعارُ لفظِ [السلام] المعرَّفِ بطلب معنى السلامة منه تعالى للمُسَلَّم عليه .

٣ – الألفُ واللام يلحقُها معنى العمومِ فى مصحوبِها ، والشمولِ فيه .

فقولُ الرَّادِّ : [وعليك السلامُ] بالتعريف ، كأنه يقول : ذلك السلامُ الذى طلبتَه لى مردودٌ عليك ، فلو أتى بالرد منكرا لم يكن فيه إشعارٌ بذلك .

٤ – لو قال : [عليك سلام] لصار بمنزلة [عليك دين] وذلك يخرج الجملة عن معنى التحية .

٥ – كما أن مقاماتِ رَدِّ السلامِ ثلاثة : مقام فضلٍ ، ومقامُ عدْلٍ ، ومقامُ ظلمٍ ، فالفضلُ : أن تَرُدَّ عليه أحسنَ من تحيته ، والعدلُ : أن تردَّ عليه نظيرَها ، والظلمُ ، أن تبخسَه حقه وتُنقِصَه منها ، فاختِير للراد أكملُ اللفظتين ، وهو المعرفُ بالأداة التى تكون للاستغراق والعمومِ كثيرا .

أما تعريفُ لفظ [السَّلامِ] فى قوله تعالى لموسى وهارون عندما أرسلا إلى فرعون ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه ٤٦ – ٤٨] .

فقول موسى – عليه السلام – [والسلام على من اتَّبع الهدى] لفرعون ، ليس بتحية حيث إنه ليس فى ابتداء الكلام ولا خاتمته ، بل هو خَبَرٌ محض ، وليس دعاءً ، وقد وقع متوسطا بين كلام موسى وأخيه فهو إخبارٌ محضٌ عن وقوع السلامة وحلولها ، على من اتبع الهدى ، ففى هذا [السلام] المتوسط بينَ الكلام استدعاءٌ لفرعون ، وترغيبٌ له بما

جُبلت النفوس على حبه وإيثاره من السلامة ، وأنه إن اتبع الهدى الذى جاء به ، فهو من أهل النجاة ، فلما جاء لفظ [السلام] ليس على سبيل التحية عُرِّف بالألف واللام .

كذلك عُرِّف لفظ [السلام] فى قضية عيسى – عليه السلام – فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم ١٣]

فليس [السلامُ] هنا واردا على سبيل التحية ، وإنما هو حاصلٌ من جهةِ نفسِه على جهة الدعاء ، وإشعارٌ بذكر الله ، فإنَّ عيسى – عليه السلام – قَصَد فى دعائه الَّرمزَ إلى ما اشْتُقَّ منه اسمُ اللَّهِ تعالى ، إذ [السَّلامُ] اسمٌ من أسمائه ، – سبحانه – مشتَقٌّ من [السلامة]، وكلُّ اسم من أسمائِه – سبحانه – ناديتَه به ، ففيه تَعَرُّضٌ لما اشْتُقَّ منه ذلك الاسم ، وهو طلبُ السلامة .

وذلك نحو: [يا كريم ، يا غفور] ، ألا تراك لا تقول ذلك إلا وأنت طالبٌ للرزق والرحمةِ ، والمغفرةِ منه ؟ ، ومن ثَم كان اختتام الصلاة [بالسلام] المعَّرفِ باللام لكونه اسما من أسمائه ، كما كان افتتاحها باسم من أسمائه سبحانه .

* * *

ولكن لماذا قُيِّدَ لفظُ [السلام] فى قصتَىْ يَحيي والمسيح – صلوات الله عليهما – بهذه الأوقات الثلاثة ؟ فى قوله تعالى فى قصة يَحْيَى : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم ١٥] .

وقوله تعالى فى قصة المسيح :

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

(مريم ٣٣) .

السَّبَب فى تقييد لفظ [السلام] فى قصتَىْ يَحيى والمسيح – عليهما السلام – بهذه الأزمانِ الثلاثة ، أن طلبَ السلامةُ يتأكدُ فى المواضع التى هى مظانٌّ العَطَب ، ومواطنُ الوَحْشَة ، وكلما كان الموضعُ مظِنَّةَ ذلك ، تأكد طلبُ السلامةِ ، وتعلقتْ بها الهِمَّة .

وقد ذُكِرتْ فى هذه المواطِن الثلاثة لأن السلامة فيها أكد ، وطلبَها أهم ، والنفَس عليها أحرص . فقد قُيِّد السلام فى الموطن الأول : لأن العبد قد انتقل فيها من دار كَان مستقِرًّا فيها ، مُوطِّنَ النفسِ على صُحْبَتَها ، وسُكْنَاها ، إلى دار هو فيها معرَّضٌ للآفات والمحنِ والبلاء ، فإن الجنين من حين خرج قد انتصب لبلائها ، وشدائدِها ، ولأوائِها ، ومِحَنِها ، ولله دَرُّ الشاعرِ حيث يقول :

تأملْ بكاءَ الطفلِ عند خُروجِهِ ... إلى هذه الدنيا إذَا هُوَ يُولَدُ
تَجِدْ تَحتَه سِرًّا عجيباً كأنه ... بكلِّ الذى يلقاهُ فيها مهدَّدُ
وإلاَّ فما يُبْكِيه منها وإنَّها ... لأوسعُ ممَّا كان فيه وأرغَدُ

وقُيِدَّ فى الموطن الثانى لخروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت ، وطلبُ السلامةِ عند انتقاله من هذه الدار من أهم الأمور .

وقُيِّد فى الموطن الثالث فى يومٍ يَبعثُ اللهُ فيه الأحياء ، وطَلَبُ السلامة فيه أكد من جميع ما قبلَه ، فإن عطبَ هذا اليوم لا يُستَدرك ، وعَثْرته لا تقال .

* * *

وعادة الناس الجارية بينهم أن يُحيِّيَ بعضهم بعضا عند اللقاء ، ولكل طائفة فى تحيتها ألفاظ اصطلحوا عليها — وكانت العربُ فى الجاهلية تقول فى تحيتها : أنِعم صباحاً ، وأنعِموا صباحا، فيأتون بلفظة أنعموا من [النَّعمة] بفتح النون ، وهى طيبُ العيش والحياة ، ويَصِلونها بقولهم : [صباحا] ، لأن الصباح فى أول النهار ، فإذا حصَلتْ فيه النعمة استمرت اليومَ كلَّه ، فَخَصُّوا التحية بأوله إيذانا بتعجيلها وعدم تأخيرها إلى أن يَتَعالى النهار .

وكذلك كانوا يقولون : [أنعِموا مساء] إذا كان الوقُت من بعد انتصاف النهار إلى الليل . وكل أمةٍ لها تحيةٌ من هذا الجنس ، ومقصُودهم منها الحياةُ ونعيمها ودوامُها ، ولهذا سميت تحية — وهى (تفعلة) من الحياة ، كتكرمة من (الكرامة) .

فشرع الله تعالى لأهل الإسلام التحية بينهم [السلام عليكم] ، وهى أولى من جميع تحيات الأمم التى منها ما هو محالٌ وكذب ، كتحية أهل الفرس ، فى قولهم : [تعيشُ ألفَ سنة] وما هو قاصرُ المعنى ، كقول العرب : [أنعِمْ صباحاً ومساءً] ، ومنها ما لا ينبغى إلا لِلّه ، مثلُ السجود للملوك .

لكنَّ تحيةَ الإسلام [السلامُ] ، وهى أولى من ذلك كله ، لتضمنها السلامة التى لا حياة ولافلاح إلا بها ، فهى الأصل المقَدَّمُ على كلِّ شىء ، ومقصودُ العبد من الحياة إنما يحصلُ بشيئين ! بسلامته من الشر ، وحصولِ الخير ، و[السلام] ينتظم هذين الأصلين .

كما أن [السلامَ] مشتقٌّ من اسمه تعالى [السلام] ، وحذفت التاء من لفظ [السلام] لإرادة الجنس ، لا السلامة الواحدة .

* * *

وفى كلمة [السلام] التى تقال عند التحية قولان مشهوران :

أحدهما : أن [السلام] هو اسْمٌ لِلَّه عز وجل ، ومعنى [السلام عليكم] نزلت عليكم ، وحلت لكم بركةَ اسمه ، وقد استند أصحابُ هذا القول على :

ما ثبت فى الصحيح أنهم كانوا يقولون فى الصلاة : [الصلاة على الله قَبْل عباده ، السلامُ على جبريل ، السلام على فلان] ، فقال النبى – صلى الله عليه وسلم : « لا تقولوا السلام على الله ، فإن الله هو السلام ، ولكن قولوا : السلامُ عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباده الصالحين » .

فنهاهم النبى – عليه السلام – أن يقولوا : [السلام على الله] ، لأن السلام على المسلَّم عليه دعاء له ، وطلب له أن يَسْلَم من كل سوء ، والله تعالى هو المطلوب منه ، لا المطلوب له ، وهو المدعو ، لا المدعو له ، فيستحيل أن يُسلَّم عليه ، بل هو المسلِّم على عباده ، كقوله تعالى :

﴿ سُبْحانَ ربِّك ربِّ العِزَّة عمَّا يَصِفُون وسلامٌ على المْرسَلِين ﴾ [الصافات ١٨٠ ، ١٨١] ، ﴿ سلامٌ علَى إبراهيم ﴾ [الصافات ١٠٩] ، ﴿ سلامٌ على نوحٍ فى العالمين ﴾ [الصافات ٧٩] ، ﴿ قيل يا نوحُ اهْبِط بسلامٍ منا وبركاتٍ عليك ﴾ [هود ٤٨] ، ويسلم على أهل الجنة يوم القيامة ، فيقول : « لهُمْ فيها فاكهةٌ ولهم ما يَدَّعُون ، سلامٌ قَوْلاً من ربٍّ الرَّحيم ﴾ [يس ٥٧ ، ٥٨] .

وقوله – صلى الله عليه وسلم – « إن الله هو السَّلام » صريح فى كون السلام اسما من أسمائه .

القول الثانى : أن [السلام] مصدرٌ بمعنى [السلامة] ، وهو المطلوبُ المدعو به عند التحية ، وقد حذفت تاؤه ، لأن المطلوب هذا الجنس لا المرة الواحدة منه .

* * *

تنكير [بلد] وتعريفها :

وذكر القرآن الكريم لإبراهيم عليه السلام – دعوتين دعا بهما ربه للبيت الحرام

فقال فى إحداهما : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَدَاً آمناً ﴾ [البقرة ١٢٦] .

وقال فى الأخرى : ﴿ ربِّ اجْعَل هَذَا البَلَدَ آمناً ﴾ [إبراهيم ٣٥] .

وقد جاء ذكر [البلد] فى الدعوة الأولى منكرا ، وجاء فى الثانية معرفا . **فما وجه الحكمة فى هذا التغيير؟**

يذكر القرآن أن إبراهيم – عليه السلام – هو الذى أقام البيت الحرام فى البلد الحرام ، وكان معه ابنه اسماعيل يعمل معه فى رفع القواعد من هذا البيت ، وإذ ذاك لم يكن هناك غير هذا البناء ، و [اسماعيل] وأمه [هاجر] ، وقد أصبح منذ ذلك اليوم الموطن الذى يقيم فيه إسماعيل ، ويأوى إليه ، ولقد كانت دعوة إبراهيم لهذا البلد المضمر فى الغيب الذى لم يجتمع إليه الناس بعد ، ولهذا ورد ذكره منكرا ، لأنه غير معروف ، بل غير موجود وجوداً فعليا ، وإن كان موجودا وجوداً حكميا لما ينتظر له فى مستقبل الأيام .

ثم كانت دعوة إبراهيم – عليه السلام – له ثانية لما أصبح بلدا فعلا حيث اجتمع إليه الناس ، وبخاصة قبيلة جُرْهُم التى صاهر إليها إسماعيل ، فكانت دعوة إبراهيم لبلد قائم فعلا ، هو البلد الحرام ، فكان من مقتضى الحال أن يذكر فى تلك الحال ، وهو البلد المعروف الذى أهِل بالناس ، وكثر المجتمعون إليه ، والأيام قد أقامت منه بلداً معمورا .[1]

تنكير [صراط] وتعريفها :

كذلك تعريف لفظ [الصراط] فى قوله تعالى : ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقيم ﴾ يدل على أن المراد الصراطُ المُعَيَّنُ الذى جعله الله طريقا إلى رضوانه .

فلو قال : ﴿ اهدنا صِراطاً مستقيماً ﴾ لكان الداعى إنما يطلب الهداية إلى صراط مّا مستقيمٍ على الإطلاق ، وليس المرادُ ذلك ، بل المراد الهدايةُ إلى الصراطِ المعين الذى نصبه الله تعالى لأهل نعمته ، وجعله طريقا إلى رضوانه وجنته ، وهو دينُه الذى لا دين له سواه ، فالمطلوب أمرٌ معينٌ فى الخارج والذهن ، لا شيءٌ منكّر ، والألف واللام هنا للعهد الذهنى ، وهو طلبُ الهدايةِ إلى طريقٍ معهودٍ قد قام فى القلوب معرفتُه ، والتصديقُ به ، وتمييزُه عن بقية طُرقِ الضلال .

ولكن ، لما جاء [الصراط] منكّرا فى قوله تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – ﴿ ويُتِمَّ نِّعمتَه عليك ، ويَهْدِيَك صِرَاطاً

---

(١) إعجاز القرآن جـ ٣٠٦/٢ .

مُسْتقيماً ﴾[الفتح ٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وإنَّكَ لَتَهْدِى إلى صِراطٍ مُستقيم ﴾ [الشورى ٥٢] ، وقوله :

﴿ واجْتَبَيْنَاهم وهدَيْنَاهم إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[الأنعام ٦٧] ؛وقوله: ﴿ قُلْ إنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إلى صِراطٍ مُسْتقيمٍ ﴾ [الأنعام ١٦١] ؟ .

السبب فى ذلك[1] : أن هذه المواضعَ ليست فى مقام الدعاء والطلب ، وإنما المَقَامُ الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم ، وهداية رسوله إليه ، ولم يكن للمخاطَبين عَهْدٌ به ، ولم يكن معروفا لهم ، فلم يجىء بلام العهد المشيرة إلى معروفٍ فى ذهن المخاطَب ، قائمٍ فى خلده ، ولا تقدَّمَه فى اللفظ معهودٌ تكون اللامُ عائدةً إليه — وإنما تأتى لام العهد فى أحد هذين الموضعين : أن يكون لها معهودٌ ذهنى ، أو ذكرٌ لفظىٌّ ، وحيث لا واحد منهما فى هذه المواضع ، فالتنكير هو الأصل .

و[الصراط] مشتق من [صرطتُ الشىء أصرطُه] إذا بَلَعتُه بلعا سهلا ، فَسُمِّى الطريق صراطا ، لأنه يصرِطُ المارة فيه .

و[الصراط] : ما اجتمع فيه خمسة أشياء ، أن يكون صراطا مستقيما ، سهلاً ، مسلوكاً ، واسعاً ، موصلا إلى المقصود ، — فلا تسمِّى العربُ الطريق المعوج صراطا ، ولا الصعبَ المُشِقّ ، ولا المسدودَ غيرَ الموصِّل ، ومن تأمل موارد [الصِّراطِ] فى لسانهم تبين ذلك ، قال جرير :

أمير المؤمنين على صِراطٍ إذَا اعْوَجَّ المواردُ مستقيم

(١) بدائع الفوائد جـ ١٢/٢ ، ١٣ .

وبَنُوا [الصراط] على زِنة [فِعال] ، لأنه مشتمِلٌ على سالكه اشتمال الحَلْقِ على الشيء المسروط ، وهذا الوزن كثير فى المشتمِلات على الأشياء ، كاللحافِ ، والخمارِ ، والرداء ، والغطاءِ والفِراش ، والكتاب .

وأما ما ذكر الله تعالى بلفظ [الطريق] دون لفظ (الصراط) فى قوله فى سورة الأحقاف خاصة ، فهذه حكاية الله تعالى لكلام مؤمنى الجن أنهم قالوا لقومهم : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف ٣٠]

فتعبيرهم عنه هنا بلفظ [الطريق] دون لفظ (الصراط) فيه نكتة .

وهى أنهم قَدَّمُوا قبل ذكرِ [الطريق] ذكرَ [موسى] – عليه السلام – وأن الكتاب الذى سمعوه مصدقاً لما بين يديه من كتاب موسى وغيره ، فكان فيه كالنبأ عن رسول الله – ﷺ – فى قوله لقومه ﴿ ما كنتُ بِدْعاً من الرُّسُل ﴾ [الأحقاف ٩] ، أى لم يكن أول رَسولٍ بُعث إلى أهل الأرض ، بل تقدمت رسل من الله إلى الأمم ، ومحمد – عليه السلام – بعِث مصّدقاً لهم بمثل ما بُعثوا به من التوحيد ، فقال مؤمنو الجن :

﴿ إِنَّا سمِعْنا كِتابًا أُنْزِل من بَعْد مُوسَى مُصَّدقًا لما بَيْن يَدَيْه يَهدِى إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مُستقيم ﴾ ، أىْ إلى ســـبيل مطروقٍ قَدْ مَرَّتْ عليه الرسُل قبله ، وأنه ليس ببدع فى ذلك – كما قال فى أول السورة ، ﴿ قُلْ ما كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُل ﴾ [الأحقاف ٩] .

فاقتضت البلاغة لفظ [الطريق] ، لأنه [فعيلٌ] بمعنى [مفعول] ، أى مطروق ، مشت عليه الرسل والأنبياءُ قبل ، فحقيقٌ على من صدَّقَ رسلَ الله ، وآمَن بهم ، أن يُؤْمن به ويُصِّدقَه ، فذِكرُ [الطريق] هنا أدخلُ فى باب الدعوى ، والتنبيهِ على تَعَيُّنِ اتِّباعه .

تكرار الاسم مرتين بالتعريف أو بالتنكير أو بالعكس : (١)

وقد يكرَّرُ الاسمُ مرتين إما بالتعريف ، أو بالتنكير ، أو بالعكس ، فقد يكونا معرفتين ، أو نكرتين ، أو يكونُ الأولُ نكرةً والثانى معرفةً ، أو العكس .

فإن كانا الاسمين المكررين معرفتين ، فالاسم الثانى هو الأول - غالبا - دِلالة على المعهود الذى هو الأصل فى التعريف باللام أو الإضافة ، نحوُ قولهِ تعالى :

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة ٦ ، ٧] .

﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر ٢ ، ٣]

﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝ ﴾ [الصافات ١٥٨] .

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ ﴾ [غافر ٩] .

---

(١) انظر ذلك فى معترك الأقران جـ ٣/٥٩١ ، البرهان جـ ٤/٩٣ .

﴿ لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾
[غافر ٣٦ ، ٣٧] .

فنرى فى هذه الآيات أن الاسم المعرف الثانى هو اسمُ المعَّرفُ الأول .

وإن كانا الاسمين نكرتين ، فالثانى غير الأول – غالبا – نحوُ قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ [الروم ٥٤] .

فالمراد بـ [الضعف] الأول [النطفة] ، وبالثانى [الطفولة] ، وبالثالث [الشيخوخة] .

وقال ابنُ الحاجب فى قوله تعالى :

﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ ﴾ [سبأ ١٢] .

الفائدة فى إعادة لفظِ [شهرِ] منكرا : الإعلام بمقدارِ زمنِ الغدو ، وزمن الرواح ، والألفاظُ التى تأتى مبنيةً على المقـادير لا يَحْسُن فيها الإضمار .

وقد اجتمع الأمران فى قوله تعالى : ﴿ فإنَّ معَ العُسْرِ يسْراً ، إنَّ مع العُسْرِ يسْراً ﴾ [الشرح ٥ . ٦] فـ [العسر] الثانى هو [العسر] الأول ، و[اليسرُ] الثانى غيرُ [اليسر] الأول ، ولهذا قال – صلى الله عليه وسلم – : « لنْ يَغْلب عسرٌ يسْرَيْن » .

وإن كان الاسمُ الأولُ نكرة والاسمُ الثانى معرفة ، فالاسمُ الثانى هو الاسمُ الأول حملا على العهد ، نحوُ قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ [المزمل ١٤ ، ١٥] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ [النور ٣٥] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى ٥٢ ، ٥٣] .

وقوله : ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الشورى ٤١ ، ٤٢] .

ففى كل هذه الآيات القرآنية نجد أن الاسم الثانى المعرفَ هو الاسمُ الأولُ المنكَّر .

وإن كان الاسم الأولُ معرفة ، والاسم الثانى نكرة ، فلا يطلقُ القولُ ، بل يَتوقَّفُ على القرائن ، فتارة تقوم قرينهُ على التغاير ، نحوُ قوله تعالى : ﴿ ويَوْمَ تقُوم الساعةُ يُقْسِم المُجْرِمون ما لَبِثُوا غيرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم ٥٥] .

وتارة تقوم قرينةٌ على الاتحاد ، نحوُ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر ٢٧ ، ٢٨] .

وهذه القاعدة أغلبية ، وليست قانونا لا يقبلُ التخلف ، ولذلك عقب عليها البهاء السبكيّ ، ونقضها بشواهدَ قرآنية متعددة ، مما يدعونا أن نعمل العقل عند استعمالها كقاعدة غالبة وليست مطردة — كما عدها السيوطى (١) .

التعبير القرآنى يُفَضِّل معرفة بخصوصها :

وقد نلاحظ أن التعبيرَ القرآنى يؤثر اسما معرفة ويفضله فى التعبير عن اسم آخر مِثْله فى التعريف ومن نوع المعرفةِ نفسها ، إلا أن هذا لفظٌ ، وذاك لفظٌ آخر ، ويكون ذلك لهدف يقصده ومعنى يصل إليه ، ولا يتحقق المعنى الصحيح إلاَّ باللفظ الذى نطق به القرآنُ الكريم .

تأمل وضع اسم الموصول [الذى ، ما] فى هذه الآيات : .

يقول تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة ١٢٠] .

ويقول فى السورة نفسها : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة ١٤٥] .

---

(١) انظر تفصيل شواهد البهاء السبكى فى « البهاء السبكى وآراؤه البلاغية والنقدية » ص ٢٥٥ وما بعدها للمؤلف .

ويقول أيضا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾

[الرعد ٣٧] .

فـ [ما] فى الآيتين الأخيرتين بمعنى [الذى] ، فما الفائدة ، وما السرُّ فى إخراج الأسماء الموصولة بعضها على لفظ [الذى] وبعضها على لفظ [ما] ، وهل بين [الذى] و [ما] من فرق ؟ .

نبدأ بالفرق بين[1] [الذى] و [ما] ليصحَّ الفصلُ ، ويظهرَ موضعُ كلٍّ واحد منهما ، والمعنى الذى يليق بهما فى كل آية :

فـ [ما] وإن كانت بمعنى [الذى] ، فإنها تخالفها فى أشياء ، منها :

١ - تدخل أسماءُ الإشارة على [الذى] فتكون [الذى] صفة لها ، كقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ ﴾

[الملك ٢٠]

وقوله : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ ﴾ [الملك ٢١] .

فيكتنفُ [الذى] بيانان : أحدهُما : اسمُ الإشارةُ قبلَها ، والآخرُ : الصلةُ بعدها - ولا يكون ذلك فى [ما] .

٢ - [الذى] تثنى وتجمع وتؤنث فيلحقُها هذه العلامات بيانا لهذه المعانى ، و[ما] لا يلحقها ذلك ، بل هى لفظةٌ واحدةٌ فى التثنية والجمع والتأنيث .

---

(١) انظر درة التنزيل ٢٥ ، المعترك جـ ١/٩٠ ، تمييز ذوى البصائر - ١/١٤٦ .

٣ - [الذى] : لزمتها أمارة التعريف - وهى الألف واللام - كما تُعرِّفه صلته ، فهو لا يتنكر أبدا . أما [ما] : فهى اسمٌ مبهم وفى غاية الإبهام حتى إنها تقعُ على كلِ شىء ، وتقع على ما ليس بشىء ، ألا تراك تقول : « إن الله يعلمُ ما كان وما لم يكن » ؟ .

ولفرط إبهامها لم يَجُزْ الإخْبارُ عنها حتى توصلَ بما يوضِّحُها ، ولا تكونُ نعتا لما قبلها ، ولا منعوتة . لأنها لو نُعتت بنعتٍ زائدٍ على الصلة لا ارتفع إبهامُها ، وفى ارتفاع الإبهام منها جُمْلَةً بطلانُ حقيقتِها ، وإخراجُها عن أصلِ موضوعها .

ولهذا الإبهامِ الذى اخْتُصَّتْ به لا تُوجدُ إلاَّ واقعةً على جنسٍ تتنوعُ منه أنواع ، لأنه لا يخلو من الإبهام أبداً .

ولذلك كان فى لفظِها ألفٌ آخِرَةٌ لما فى الألِف من المدِّ والاتِّساع فى هواء الفم ، مشاكَلةً لاتساع معناها من الأجناس ، فإذا أوقعوها على نوعٍ بعينه ، وخَصُّوا به من يعقل ، وقَصروها عليه ، أَبْدلوا الألف نونا ساكنة فصارت [مَنْ] فذهب امتداد الصوت ، فصار قِصَرُ اللفظ موازنا لقصر المعنى .

فـ [الذى] بمقتضى هذه الاختصاصات متضمنة من البيان ما لا تتضمنه [ما] .

أما ما يليق بكل آية منهما ، فكالآتى :

الآية الأولى معناها : لن ترضى عنك اليهود حتى تتبع ملتهم ، ولن ترضى عنك النصارى حتى تتبع ملتها ، واتباعُ الملتين كفر ، ولذلك قال

الله تعالى : ﴿ قل إنَّ هُدَى اللهِ هُو الهُدَى ﴾أىْ الإيمانُ الذى بعثك به هو الطريقُ المؤدى إلى رِضَى الله وإلى ثوابه .

ثم قال : ﴿ ولَئِنْ اتَّبْعتَ أهواءهم بعْدَ الذى جَاءَك من العِلْم مَالَكَ من الله من وَلِىٍّ ولا نَصِيرٍ ﴾ ، فمنعه من اتباع الفريقين بالعلم الذى حصل له بصحة الإيمان وبطلانِ الكفر ، و[الذى] فى هذا المكان واقعةٌ على العلم الذى ثبت به الإسلام وصحَّ به الإيمان ، فهو علمٌ بالكمال وليس وراءه علم - فإذا عَبَّر عن هذا المعنى بأحد هذين الاسمين [الذى أو ما] وجب أن يُخَصّ منهما بالأشهر - وهو [الذى] ، إذ هى أليق من لفظ [ما] ، فهى فى التعريف أبلغ ، وفى الوصف أقعد .

أما الموضعان الآخران فليس القصد فيما عَبَّر عنه بلفظة [ما] مثل القصدِ فى الآية الأولى .

وذلك أن قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْد مَا جَاءَكَ من العِلْم ﴾ جاء بعد خَبَرِ الله تعالى عن مخالفة أهل الكتاب للنبى - صلى الله عليه وسلم - فى القبلة ، لأنه قال عز اسمه : ﴿ ولَئِن أتَيْتَ الذين أُوتُو الكِتاب بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتك وما أنْتَ بِتَابعٍ قِبْلَتهم وما بَعْضُهم بتَابعٍ قِبْلَة بعض ، ولَئِن اتَّبَعْت أهواءَهم مِنْ بَعْد مَا جَاءَكَ من العِلْم إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ ، فمَنْعُ الله عز وجل عن اتباع أهوائِهم ، هو بعض الشرع ، فإذا كان ذلك بعض الشرع ، كان العلم بصحته بعضُ علم الشرع ، ولم يكن كالعلم الأول فى الآية الأولى الذى هو محيط بالشرع وكلِّ الإيمان .

فلما كان لفظ [ما] واقعا على بعض ما وقع عليه الأول - وهو لفظُ

[الذى] – لم يُشْهر شهرتُه ، فعبر عنه باللفظ الأقصر – وهو [ما] – لَمَّا خُصَّ الأول – وهو الذى – باللفظ الأشهر .

وكذلك قوله تعالى فى الآية الثالثة : ﴿ وَلَئِن اتَّبَعْت أهْوَاءهم بعْدَ مَا جَاءَك من العِلْم مَالَكَ من الله من وَلىٍّ ولاَوَاق ﴾ – إنما جاء بعد قوله تعالى : ﴿ والَّذين آتيناهم الكتابَ يَفْرَحُون بما أُنْزِل إليك ومِنَ الأحزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَه ﴾ .

فنهى الله تعالى عن اتباع أهوائهم فى البعض ، وهو الذى ينكره الأحزاب ، فلما كان هذا العلم بعَض العلم الذى عَبَّر عنه بلفظ [الذى] – فى الآية الأولى – فكان العلم المانع من اتباع أهوائهم فيه – أى فى الآية الثالثة – مثل العِلم المانِع من اتباع أهوائهم فى أمر القبلة ، فعبَّر عنه بمثل ما عَبَّر به عن ذلك .

وهكذا نجد أن التعبيرَ القرآنى إذا وَضَع اسما معرفةً فى مكان ، أو نكرةً فى موضع ، فإنما يكون ذلك لحكمة يعلمها الله ، وسرٍّ تقتضيه اللغة ، وهدفٍ يقصده فى المعنى ، ولو حاولنا وضع أحدِهما مكان الآخر ، لاختل التناسقُ فى الآية ، وزال الانسجامُ المطلوبُ فى التركيب .

كذلك لو جاء التعبيرُ الإلهىُّ بمعرفةٍ من نوع معين ، وبلفظٍ خاص ، وخطَر بالذهن تغييرُه بمعرفة أخرى ، وبلفظٍ مغاير ، لحصل تبديلٌ فى المعنى ، وانحرافٌ فى النظم ، وتبدُّلٌ للغَرض المقصود ، وضياعٌ للهدف المنشود .

[أل] التعريفية ، و [أل] الموصولة :

و[أل] التعريفية تأتى فى أساليب اللغة لعدة معان :

١ - فقد يكون المراد بمدخولها الإشارة إلى معهود ، وتسمَّى [لام العهد] ، وهذه اللام قد يتقدم لمدخولها ذكرٌ صريح وتُسمَّى اللامُ حينئذٍ [لامَ العهدِ الصريح] كقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المزمل ١٥ ، ١٦] .

فـ [اللام] فى [الرسول] تسمى [لامَ العهد الذكرىّ - أو الصريحىّ] ، لأنه تقدم لمدخولها ذكر صريح .

٢ - وقد يتقدمُ لمدخولها ذكرٌ كنائىٌّ - أى غيرُ مصَّرح به - وتسمى اللامُ [لامَ العهدِ الكنائىّ] ، كما فى قوله تعالى على لسان امرأة عمران :

﴿ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران ٣٦] .

فـ [أل] فى لفظ [الذَّكَر] تسمى [لامَ العهدِ الكنائىّ] لتقدُّم ذكرهِ كناية فى قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران : ﴿ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ ما فى بَطْنِى مُحَرَّراً ﴾ [آل عمران ٣٥] . فإن لفظَ [ما] مبهمٌ - وبحسب وضعه - يعمُّ الذكور والإناث ، لكن [التحرير] - وهو أن يُعتَق الولدُ ليكون وَقْفا على خدمةِ بيت المقدس - إنما يكون للذكورِ دون الإناث ، فلفظُ [ما] كنايةٌ عن [الذَّكَر] حيث اختصاصُ التحرير بالذكور .

٣ – وقد يكون المرادُ بمدخول [أل] الإشارةَ بها إلى الحقيقة والجنس . وتسمى [لامَ الحقيقة أو الجنس] . كقولنا : الرجل خيرٌ من المرأة ، فالمعنى : أن حقيقة الرجل خير من حقيقة المرأة ، بلا نظرٍ إلى الأفراد . وهذا لا ينافى أن بعض أفرادِ حقيقةِ المرأة قد يَفْضُل بعض أفرادِ حقيقةِ الرجل ، كعائشة أمِّ المؤمنين – رضى الله عنها – مثلا .

٤ – وقد يكون المراد بمدخول [أل] جميعَ الأفراد ، فتسمى [لامَ الاستغراق] كقوله تعالى : ﴿ والعَصْرِ إنّ الإنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ إلاَّ الذَّين آمَنُوا وعَمِلوا الصَّالحات ﴾ ف [أل] فى [الإنسان] مرادٌ بها جميعُ الأفراد التى يتناولها لفظُ [الإنسان] لُغَة ، أى كلُّ إنسان ، بدليل الاستثناء بعده ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ فالاستثناء هذا دلالةٌ على العموم فى « الإنسان » إذ شرطهُ دخولُ المستثنى فى المستثنى منه لو سُكت عن ذْكر المستثنى .

وبعد أن عرضنا لأهم أقسام [أل] التعريفية[1] ، ففى أى الأقسام نضع [أل] فى قوله تعالى :﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ [المائدة ٣٨] .

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾

[النور ٢] .

فعندما نُمعِنُ النظر ، بل عندما يتجه النظر لأول وهلة،نرى أن [أل] فى هذه الكلمات الأربع لا تدخلُ فى ضمنِ أى نوع من هذه الأنواع ،

(١) انظر شروح التلخيص جـ ٣٢١/١ وما بعدها .

فليست للعهد الصَريحى أو الكنائىِّ، وليست كذلك للحقيقة أو للاستغراق .

إذن [أل] فيها ليست للتعريف بأى حال ، ولا على أى وجهٍ من وجوه اللغة العربية .

وبهذا ندرك السقوطَ البيِّن لبعض الباحثين حينما خَرَج على اللغة بغير المألوف فيها،فقال : إن [أل] فى هذه الأسماءِ الأربعة للتعريف ، وبنى على هذا حكما فقهيا خالف فيه جمهور الفقهاء ، وأعلام المفسرين .

[أل] فى [والسارق والسارقة ، الزانية والزانى]
موصوله ، وليست للتعريف .

ونعرض مقالة هذا الباحث لنأْمَن شرَّها ، ونتجنب مضارها ، ونوضحَ الرأى فيها ، ونبينَ طريقة التعبير فى أسلوب القرآن الكريم لمن عنَده قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قال الباحث[1] : « إن آية السرقة لا تَذكُر سارقا أىَّ سارق ، وإنما تأتى به معرَّفا ب [أل] التعريفية فتقول : « والسَّارقُ والسارقةُ » .

و[أل] التعريفية لا تأتى فى القرآن عبثا ، ولا يُوجَد فى القرآن حرفٌ زائدٌ إلا لحكمة ومعنى مقصود ، وفارقٌ كبير بين كلمة [سارقٍ] وكلمةِ [السارق] ، مثلُها مثلُ [الفارس والكاتب] حينما نأتى بـ [أل] ، فنحن لانُطلقُ [الفارس] على من ركب الفرس مرة واحدة ، وإنما على من احترف الركوب وعُرف به ، كذلك لا نُطلقُ [الكاتب] على من

(١) من أسرار القرآن ٨٤ .

كتب ذات مرة ، وإنما على من احترف الكتابة وعاودها واصطنعها وعُرف بها .

وكذلك [السارق] الذى تُقطعُ يدُه فى القرآن ، هو محترفٌ للسرقة ويُعاودُها ، أما الذى يسرق مرة فى ظرفٍ انفعالى فلا تنطبق عليه الآية ، وإنما يُؤخذ بقوانين الرَّدْع الجنائية السارية ، ويُنذر بقطع يده إذا عاود السرقة ، فإذا عاد إلى السرقة بعد خروجه من السجن فهو السارق الحقُّ الذى يقع تحت طائلة الآية » .

هكذا فهم هذا الباحث ، وبنى كلامه هذا على أن [أل] فى [والسارقُ والسارقةُ] للتعريف ، وقاسَ لفظَ [السارق] على لفظِ [الفارس والكاتب] ، ونزع كلمة [السارق] من جملتها ، وفَصَلها عن سياقها ، وكان حالهُ فى ذلك كمن قال : « فويلٍ للمصلين » وسكت .

لكنَّ اللغة العربيةَ تقْضِى بأن تكون [أل] فى [والسَّارقُ والسَّارقةُ فاقْطَعُوا أيْدِيَهُما] اسمَ موصولٍ لا تعريفية - كما زعم - والمعنى: الذى سرق فاقطعوا يده ، والتى سرقت فاقطعوا يدها - بدليل دخول الفاء فى الخبر فى قوله تعالى : ﴿ فاقطعوا أيْدِيَهُما ﴾ لأن هذه الفاء لا تدخلُ إلا على جواب الشرط ، أو ما يشبهه . والاسمُ الموصولُ يشبهُ الشرطَ فى العموم .

وعلى هذا فلو أتينا باللفظ الذى أتى به هذا الباحثُ فى الاستشهاد ، فقلنا : الكاتب فكافئوه ، والكاتبةُ فكافئوها - ألا نرى أن [أل] هنا

هى الموصولة ، والمعنى : الذى يكتب فكافئوه ، والتى تكتب فكافئوها ؟

وقد اتفق علماءُ اللغةِ والنحوِ فى العربية أن [أل] إذا دخلت على اسم الفاعل أو اسم المفعول ، أو الصفة المشبهة كانت اسمَ موصول ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد ١٨] .

وقوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [هود ٢٤] .

فأل – الداخلة على اسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفةِ المشبهة ، فى هذه الآيات اسمٌ موصول .

فالتفسير الذى قال به هذا الباحث بناه على أن [أل] تعريفية ، وهذا غير واردٍ ولا مُراد ، وإنما [أل] فى الآيتين هى الموصولة .

يقول الخازن فى تفسيره (١) : « السارق : هنا مرفوع بالابتداء ، لأنه لم يُقْصد واحد بعينه ، وإنما هو كذلك : منْ سَرَق فاقطعْ يدَه ، فاقتضت هذه وجوبَ القطع على كل سارق » .

---

(١) تفسير الخازن جـ ٢/٤٧ .

ويقول الفخر الرازى :[1] « إن الألف واللام فى قوله : [والسارق والسارقة] يقومان مقام [الذى] فصار التقدير : الذى سرق فاقطعوا يده ، وعلى هذا التقدير حَسُنَ إدخالُ الفاءِ على الخبر لأنه صار جزاء ، وهذا هو الذى اختاره الزجاج – وهو المعتمد .

ومما يدل على أن الآية مقصودٌ منها الشرط والجزاء وجوهٌ ، منها :

الأول : أن الله تعالى صرَّح بذلك فى قوله : [جزاء بما كسبا] ، وهذا دليلٌ على أن القطع شُرِع جزاءً على فعل السرقة ، فوجب أن يَعُمَّ الجزاءُ لعموم الشرط .

الثانى : إن السرقة جنايةٌ ، والقطعَ عقوبةٌ ، وربطُ العقوبةِ بالجنايةِ مناسب ، وذِكْرُ الحكم عَقبَ الوَصْف المناسب يدل على أن الوصف علةٌ لذلك الحَكم .

وقال مثل هذا القول صاحبُ تفسيرِ الكشاف[2] والبحر المحيط .[3]

وعلى هذا فقد نُقِض هذا الباحثُ من جهة اللغة .

واللغةُ هى المقياسُ الذى لابد أن يرجع إليه كلّ من يتصدى لتفسير القرآن الكريم ، ولذلك يشترطُ العلماء فيمن يتعرَّضُ للتفسير أن يكون متبحراً فى اللغة ، عارفاً أساليبَ العرب ، وطُرُقَ البيان عندهم ، وإلاَّ فإن قوله لا يثبتُ عند البَحث ، ولا يَقفُ أمامَ الحجة .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٢٣/١١ .

(٢) الكشاف جـ ٦١١/١ .

(٣) البحر المحيط جـ ٤٧٦/٣ وما بعدها .

وكان حالهُ كمن قال فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء ٧١] إن الناس يُدْعَوْن يوم القيامة بأمهاتهم ، وإن الحكمه فى الدعاء بالأمهات دون الآباء رعايةُ حقِّ عيسى – عليه السلام – وإنها شرف للحسن والحسين ، وألا يفتضحَ أولادُ الزِّنا ، فكان هذا التفسير منه مثارا للسخرية والاستهزاء،وقد سمى هذا التفسيرَ صاحبُ الكشاف[1] : بأنه من بدع التفسير.

والتفسير الصحيح : أن الناسَ يُدْعَوْن يوم القيامة بمن ائتَمُّوا به ، من نبى ، أوكتاب ، أو دين ، فيقال لهم : يا أتباع فلان ، يا أهل دينِ كذا ، أو كتابِ كذا .

والذى أوقع هذا المفسر فى هذا الخطأ هو عدمُ معرفتِه باللغة ، وبعده عن فهم أسرارِ تراكيب العرب ، حيث فهم أن (إمامَ) جمعُ [أمٍّ] ، فوقع فى الخطأ .

كذلك يَنقُضُ قولُ هَذا الباحث سنَّةَ رسولِ الله – صلى الله عليه وسلم – القوليةَ والعمليةَ – فقد ثبت عن طريق الرواية الموثَّقة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قطع فى السرقة .

فعن عائشة[2] – رضى الله عنها – أن قريشا أهمهم شأنُ المخزومية التى سرقت ، فقالوا : من يكلِّمُ فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : ومن يَجْترئُ عليه إلا أسامةُ بنُ زيد حِبُّ رسول الله ، وكلَّمهُ أسامةُ ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الكشاف جـ ٢/٤٥٩ .

(٢) تفسير الخازن جـ ٢/٤٧ .

« أتشفعُ فى حدٍّ من حدود الله ؟ ثم قام فخطب ، وقال : إنما هَلَك الذين من قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريفُ تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحد ، وأيم الله ، لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقت لقطع محمدٌ يدها » .

فلم تحفظْ لنا السنةُ الشريفةُ القوليةُ أو الفعلية ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ترك السارق ، ولم يُقِمْ عليه الحد ، لأنه سرق أولَ مرة ، أو وقع تحت تأثيرِ ظرفٍ انفعالىٍّ ، كما ذهب إليه هذا الباحث .

ثم إنَّ علماء أصولِ الفقه يقولون[1] : « من ينظرْ فى آيةِ حَدِّ السرقة مجردا من الهوى ، لم يَفهم منها سوى أن من يرتكبُ السرقةَ عقوبتهُ قطعُ اليد ، وأن الأمر فى قوله : [فاقطعوا أيديهما] واردٌ على وجوبِ القطع ، وذلك أنَّ بِناء الأمر بالقَطْعِ فى آية حدِّ السرقة على قوله : [والسارق والسارقة] يَصرفُه إلى الوجوب ، حيث إن تعليق الحكمِ على شخصٍ موصوفٍ يُؤْذِنُ بأن المقتضِىَ للحكم هو ذلك الوصف الذى قام بالشخص .

ثم إنَّ اتصال آية السرقة بقوله تعالى : [جزاءً بما كسبا نكالاً من الله] صريحٌ فى الدلالة على أن الأمر بالقطع للوجوب ، لأنه واقعٌ فى الآية موقعا ينبِّه على أن منْ تَحَقَّق فيه وصفُ السرقة ، فهو مستحق لهذه العقوبة .

وإذا قَضَى الشارعُ فى جناية بعقوبة ، وصرَّح أنها جزاءُ مرتكبِ

---

(١) بلاغة القرآن ١٠٨ .

الجناية – أى أنها على قدر جنايته ، لم يكن للأمر بهذه العقوبة وجهٌ غيرَ الوجوب .

وفى وصف هذا الحد بأنه [نكالاً من الله] ، إيذان بأن من وقف فى سبيل إنقاذه فقد حارب الله ، ومن رأى أن غيرَه من العقوبات احفظُ للمصلحة ، فقد زعم أن علمَه فوق علم الله » .

ثم إن علماء الفقه – لم يخطرْ ببالهم عندما كانوا يقننون ويشرعون كيفية تنفيذِ هذه الأحكام أن السارقَ أولَ مرة يُعزَّر ، ويُعفَى من حد السرقة ، بل إنهم حين وضعوا مسائل الفقه حدَّدوا مكان القطع وكيفيته ، فقالوا : [1] « إذا سرقَ الرجلُ أو المرأةُ أول مَرة قُطعت يَدُه اليُمنى من الكوع ، وإذا سرق ثانيةً قُطِعتْ رجلُه اليُسرى من مِفْصَل القدم ، وإذا سرق ثالثة – ذهب أكثرهم – إلى أن تُقطعَ يَدُه اليُسرى ، فإن سرق رابعةً قُطعت رجلُه اليمنى ، ثم إذا سرق بعد ذلك يعزَّرُ ويحبسُ حتى تظهَر توبتُه » .

فما قاله هذا الباحث لم تؤيده اللغة ، بل شذ عنها ، ولمَ يَثْبت من جهةِ السنةِ القولية أو العملية ، ولم يوثِّقْه أئمةُ الفقه وأصولِه .

فقوله هذا قول لا يُلتفتُ إليه ، ولا يُعتمدُ عليه ، وهو كنفخة فى رمال ، أو صرخةٍ فىْ واد .

* * *

وقد طبق هذا الباحث ما قاله فى [والسارق والسارقة] على قوله تعالى :

---

(١) تفسير الخازن جـ ٤٧/٢ .

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور ٢] .

وكما وقع فى الآية السابقة فى الخطأ الفاحش ، وقع فى الخطأ نفسه فى فهمه لهذه الآية ، فقال : [1] « الزانيةُ والزانى . . . » وقع كلاهما فى القرآن بـ [أل] التعريفية ، و[أل التعريفية] تعنى الرجل والمرأةَ اللذيْن أخلدا إلى الزنا ، واتخذاه سلوكا أو حرفة ، ولا تَعْنى رجلاً سقط فى لحظة ضعف تحت إغراءٍ عارض . فقارف الزنا ، ثم ندم ، فمثلُ هذا الرجل ، ومثلُ هذه المرأة لا يُذْكران بـ [أل التعريفية] ، وإنما هو محض زان وزانية ، وتَنْطَبق عليهما الآيةُ الأخرى فى النساء :

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء ١٦] . ونوعُ الإيذاء ودرجته متروكٌ لولى الأمر .

فإن عاود الاثنان الزنا واصطنعاه فإنهما يقعان تحت وطأة الآية [الزانيةُ والزانى] . هكذا فهم هذا الباحث ، وقد بنى حكمه على أن [أل] فى [الزانيةُ والزانى] تعريفية ، كما فهم هذا من [والسارق والسارقة] فوقع فى الخطأ نفسه ، وخرج على رأى الجمهور من فقهاء السنة ، وعلماء الشريعة .

ولكن [أل] فى [الزانيةُ والزانى] ليست للتعريف – كما زعم

---

(١) من أسرار القرآن ٨٥ .

صاحبُ هذه المقالة – وإنما هى موصولة ، قال بهذا علماءُ اللغة ، والعارفون بأسرار العربية ، وذلك بدليل وقوع هذه الفاء فى خبرها ، وهذه الفاء لا تقع إلا فى جواب الشرط ، أو ما يشبه الشرط فى العموم ، والاسم الموصول يشبه الشرط ، والمعنى : التى زنت ، والذى زنى ، فاجلدوهما ، كقولنا : من زنى فاجلدوه ، وكقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور ٤] ، فاللفظ يقتضى تعليق الحكم بجميع الزناة ، لأن قوله ﴿ الزَّانيةُ والزَّانى ﴾ عام فى الجميع »[1] .

وقد اتفق أهلُ النحو وصناعةِ العربية أن [أل] الداخلَةَ على اسمِ الفاعل واسمِ المفعول والصفة المشبهة هى اسمُ موصول .

وعلى هذا ، فقولُ هذا الباحث مخالفٌ لما تدل عليه اللغةُ العربية ، واللغة – كما علمنا – هى المقياس الحقيقى والتى تُعين على الوصولِ إلى المعنى ، لأى شخص يتصدى لتفسير القرآن الكريم ، وقد قال هذه المقالةَ فى كتاب الله – وهو غير عليم باللغة ، ففاته شرطُ المفسر .

ثم إن السُّنة القولية والعملية أفادت أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أقام الحد على الزانى والزانية ، ولم يترْكْهُ لأن الزانىَ مراهقٌ غلبته غريزتهُ فى لحظة غَوَاية – كما توهم هذا الباحث ، وما أمرُ ماعزٍ ، وقصةُ الغامديةِ علينا ببعيد .

ثم إن علماءَ أصولِ الفقه يقولون : [2] « من ينظرْ فى آية حدِّ الزنا

---

(١) الكشاف جـ ٤٧/٣ .   (٢) بلاغة القرآن ١٠٩ .

مجرداً من الهوى ، لم يفهمْ منها سوى أن من يرتكبَ فاحشة الزنا عقوبتُه الجلد ، وأن الأمر فى [فاجلدوا] وارد على سبيل الوجوب – وذلك أن بناء الأمر بالجلد فى آيةِ حَدِّ الزنا على قوله : [الزانيةُ والزانى] يصرفُهُ إلى الوجوب ، حَيْثُ إن تعليق الحكم على شخص موصوف بوصف يؤذن بأن المقتضىَ للحكم هو ذلك الوصفَ الذى قام بالشخص .

ثم إنَّ اتصال آيةِ حدِّ الزنا بقوله تعالى : ﴿ ولاَ تَأخُذْكُم بِهِمَا رأْفَةٌ فى دِينِ اللَّه ﴾ يؤكد هذا الوجوب ، فقد عَرفَ الشارعُ أن فى الناس من تثورُ فى نفسه العاطفُة العمياءُ ولا ينظرُ إلى المصالح بعقل سليم ، فيرى أن فى جَلْدِ الزانى إفراطاً فى العقوبة ، فحذَّر من الانقياد إلى تلك العاطفةِ الجاهليةِ بقوله تعالى : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفةٌ فى دين الله ﴾ .

ثم نَبَّه اللهُ تعالى على أن مقتضى الإيمان تنفيذُ أحكام الله فى غير هوادة ، فأدخل [إنْ] الشرطية على الأمر المتيقَّن دون المشكوك فيه – وهو أصلُها – لإثارة نفوسِ المؤمنين وتهييجِهم ، لتبلغَ الكمالَ فى صفة الإيمان ، ويذروا أىَّ صورةٍ من صور التهاون ، فقال : ﴿ إنْ كُنْتُم تُؤمْنُون باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾ .

وإذا نظرنا بعد هذا إلى قوله تعالى : ﴿ ولْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائِفةٌ من المُؤْمنين ﴾ نرى أن الله تعالى أمر بأن يُقام هذا الحد بمرأى طائفةٍ من المؤمنين ، ليكون فى إعلانه وإذاعته الزجرُ البالغ ، وفى الأمر بإعلان العقوبة قصدا للمبالغة فى الزجر ، ما يؤكدُ أن الأمَر بالجلدِ واردٌ على سبيل الوجوب » .

وليس فى زعم هذا الباحث مراعاة لحقِّ السارق أو الزانى ، إذْ هو

ليس بأرأفَ على العباد من خالقهم ومربيهم ، فالله أرأفُ بالعباد من أنفسِهم ، وصدق القائل :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا. ومنْ يَكُ راحِماً   فَلْيَقْسُ أحياناً على مَنْ يَرْحَمُ

وعلى أنه حين توجد شبهة فى أيِّ حَدٍّ من حدود الله ، فالمبدأ العامُّ فى الإسلام قولُ الرسول – صلى الله عليه وسلم – « ادرأوا الحدود بالشبهات » ، وقولُ عمر – رضى الله عنه – « لأن أعطِّلَ الحدودَ بالشبهات أحبُّ إلىّ من أن أقيمَها بالشبهات » ، ولذلك لم يقطعْ عمَر – رضى الله عنه – فى عام الرمادة ، حينما عمت المجاعة .

كذلك لم يقطعْ فى حالة خاصة ، فعندما سَرَقَ غِلْمانُ ابن حاطب بنِ أبى بلتعة ناقةَ رجلٍ من مزينة ، أمَر بقطعهم . ولكنْ عندما علم أن سَيِّدهم يُجيعُهم درأ عنهم الحد ، وغَرَّم سَيِّدهم ضعْفَ ثمن الناقة ، تأديباً له »[1] .

والإسلام لا يتشدد فى العقوبةِ هذا التشديد إلا بعد تحققِّ الضمانات الوقائية المانعة من وقوع الفعل ، ولا يوقّعُ العقوبة إلا فى الحالات الثابتة التى لا شبهة فيها ، فالإسلامُ منهجٌ لا يقوم على العقوبة ، بل يقومُ على توفير أسباب الحياةِ النظيفة ، وتطهيرِ المجتمع من الأسباب الدافعة إلى الجريمة .

وأما قوله تعالى : ﴿ واللَّذَانِ يأْتِيَانِها منكم فآذُوهُما فإنْ تابَا وأصْلَحَا فأعْرِضُوا عنهما ﴾ والتى ادعى الباحث أنها جاءت بديلا عن حد الزنا

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٤٦/٦ ، ١٥٠ .

عندما يَسقُطُ المراهقُ فى الزنا أولَ مرة - فَيَعْرِفُ سببُ نزولِها من اطَّلع على تاريخ التشريع .

« فقد كان فى أول الإسلام عقوبةُ الزانى الحبسَ إلى المات فى حق الثيب ، والأذى بالكلام فى حق البكر ، قال تعالى :

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا (١٥) وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا (١٦) ﴾ [النساء ١٥ ، ١٦] .

ثم نُسخَ ذلك الحكم ، وجُعل حدُّ الزنا على الثيب الرجم ، وعلى البكر الجلد »[١] .

ثم نقول لهذا الباحث - ولكل باحث - إذا خفى الحكم ، وعجز العقلُ عن إدراكِ حكمة التشريع فيه ، فليسألْ أهلَ الذكر ، فعندما يُصاب المرء بدوار - مثلا - بحث عن أمهر الأطباء ، واستشارَ الاختصاصيين فيه ، فلماذا عندما يتعلقُ الأمرُ بحد من حدود الله تعالى ، تستبدون برأيكم ، وتخرجون على العامة بآرائكم ، تُبَلْبِلُون بها أفكارهم ، وتشككونهم فى أمور دينهم ؟

لماذا لا تَسْتشيرون العلماء ، وتتبينون كلَّ ما خفى عليكم من الفقهاء ، فهم أهل الاختصاص ، والله يقول :

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢/١٣٤ ، تفسير آيات الأحكام جـ ٢/١٩ .

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء ٧] .

﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب ٤] .

على أن هذا الزعم من هذا الباحث تقليدٌ لزَعْمٍ سابق فى تاريخ الإسلام ، زعمه زعيم الطائفة القاديانية – وهو محمدٌ علىّ[١] – من خمسين عاما تقريبا ، فى الربع الأول من هذا القرن العشرين ، وتابعه فى هذا الوهم آخرون . ومنهم هذا الباحث .

وفى هذا الوقت نفسه ابْتُلِىَ العالمُ الإسلامىُّ بمن زعم أيضا[٢] أن الأمر فى الآيتين : [السارقُ والسارقة فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما ﴾ ، ﴿ الزانيةُ والزَّانى فاجْلِدُوا كُلَّ واحدٍ منهما مائةً جَلْدَة ﴾ ، ليس هذا الأمر للوجوب ، وإنما هو للإباحة ، مثل قوله تعالى :

﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف ٣١] .

فقد زعم أن القطع هو أقصى عقوبة فى الشريعة ، ويجوزُ العدول عنه فى بعض الحالات ، إلى عقوبةٍ أخرى رادعة ، ويكون شأنه فى ذلك شأنَ كلِّ المباحات التى تخضعُ لتصرفات أولى الأمر ، وتقبلُ التأثرَ بكل زمان ومكان – وهكذا الأمر فى حد الزنا سواءٌ كان رجما أم جلدا .

(١) بلاغة القرآن ١١٠ .

(٢) مقال فى العدد السادس من جريدة السياسة الأسبوعية (مصرية) تحت عنوان (التشريع المصرى وصلته بالفقه الإسلامى) .

وقد رد عليه فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين فى مجلته (الهداية الإسلامية جـ ٧ من المجلد التاسع محرم ١٣٥٦ هـ (راجع بلاغة القرآن ص ١٠٦ مقال بعنوان [تحريفات آيات الحدود عن مواضعها]) .

وكلاهما – وأمثالُها كثير – قد خرج بهذا عن قانون اللغة العربية ، كما خرج عن سنة النبى – صلى الله عليه وسلم – القولية والعملية ، فقد قَلَّ فى علم العربية نصيبُهم ، وخَفَّ فى فقه الشريعة وزنهم ، ومع هذا فقد انطلقوا إلى القرآن الكريم يؤولونه على ما يوافق شهواتهم ، ويَقْضِى حاجاتٍ فى نفوس ساداتهم ، يفعلون هذا ولا يرقبون فى اللغة العربية ذمة ، ولا يَرعُون لسنة أفضل الرسل حرمة ، وتراهم ينبذون ما يقرره أئمةُ العربية ، أو فقهاء الشريعة نبذا لا يتكىء على دليل ، ويطلقون ألسنتَهم فى هؤلاء الأئمة الذين خدموا الدين والعلم وإنما يَعرفُ فضلَهم العالِمُ النبيل .

ولو جرى الناس على مثل ذلك فى تفسير الكتاب المجيد لَكَفَوْا خصومَ الإسلام جانبا من العمل لهدم أركانه ، وطمْسِ معالمه ولكنَّ مكرَ اللهِ فوقَ مكرِهم «ويَمْكُرون ويَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكرين»: ﴿ إنَّا نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا له لحافِظُون ﴾ [الحجر ٩] .

* * *

سر اختيار اللفظ دون مرادفه

الترادف ميزة فى اللغة العربية :

فقد امتازتْ اللغة العربية بأن التعبير فيها يُوصف بائتلاف الجرس ، ويُسْر اللفظ ، وصفاء الرونق ، وخفة الأداء ، ومن أجل ذلك هَجرت اللغة كلَّ لفظٍ خَشن ، وتجافت عن كلِّ ما يؤذى حركات الصوتِ وتردُّدِ النفس .

كما امتازت بوفرة كلماتها فى المعنى الواحد ، وليس معنى ذلك أن هذه الكلمات كلَّها تدل على هذا المعنى الواحد بدون فروق يلاحظُها المتكلم أو السامع ، لا ، بل بين هذه الألفاظ فروقٌ دقيقةٌ فى الدلالة ، وتفاوتٌ يلاحظ فى المعنى ، فمثلا [النظرُ إلى الشيء] كلمةٌ عامة ومدلولُها واسع ، لكنْ فى تفصيل مدلول كلمةِ [النظر] كلام يطول ، عند من أورثه الله ذوْقاً فى اللغة ، وملَكَةً فى معرفة أصولها .

فالباحث فى اللغة يرى أن الإنسان إذا نظر إلى الشيء بمجامع عينه ، قيل : [رَمَقَه] .

وإذا كان النظر من جهة أذنه ، قيل : [لحظه] .

فإذا نظر إليه بعجلة ، قيل : [لمحه] .

فإن رماه ببصره مع حِدَّة نظره ، قيل : [خَدَجه] .

فإن نظر إليه بشدَّة وحِدَّة ، قيل : [أرشقه] .

فإن نظر إليه بعين العداوة ، قيل : [نظر إليه شَزْراً] .

فإن نظر إليه نظر المتثبت ، قيل : [استوضحه وتوسَّمه] .

فإن نظر فى حساب أو كتاب ، قيل : [تصفحه] .

فإن نظر وفتح جميع عينيه لشدة النظر ، قيل : [حدَّق] .

فإن فتح عينيه وجعل لا يَطرِف ، قيل [شخَصَ] .

فإن أدام النظر إلى الأرض – وهو ساكت – قيل : [أطرق][1] .

ولقد صفى القرآن الكريمُ هذه اللغة فأشاع فى الاستعمال أصفى ألفاظِها جَرْسًا ، وأدقَّهَا تعبيرا ، وأحلاها نغما ، وأورد كل لفظة فى مكانها المناسب ببراعة فائقة ، والتزم الدِّقَّة فى مراعاة دلالة الألفاظ ، وإيرادها موارِدَها ، بطريقة تعْجِز عنها الخلائق ، وقد نبه لذلك الجاحظُ ، فقال :[2]

« وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرُها أحقُّ بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن [الجوعَ] إلا فى موضع العقاب ، أو فى موضِع الفقر المدقع ، والعجزِ الظاهر ؟ والناسُ لا يذكرون [السَّغَب] ، ويذكرون [الجوعَ] فى حال القدرة والسلامة .

وكذلك ذِكْرُ [المطر] فلا نجد القرآن يلفِظُ به إلا فى موضع الانتقام ، والعامةُ ، وأكثُر الخاصَّةِ لا يفْصِلون بين ذكر [المطر] ، وذكْرِ الغيث .

ولفظُ القرآن الذى عليه نزل أنه إذا ذَكَر [الأبصار] لم يقلْ : [الأسماع] ، وإذا ذكر [سبعَ سموات] ، لم يقل : [الأرضين] ، ألا

---

(١) اللفيف فى كل معنى طريف ص٥٠ .

(٢) البيان والتبيين جـ ٤٠/١ .

تراه لا يجمع [الأرض] على [أرضين] ، ولا [السمْعَ] على أسماع ؟ والجارى على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتَفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر ، وأولى بالاستعمال » .

الفروق الدقيقة بين المترادفات :

القرآن الكريم يَنتَقِى ألفاظَهُ ، ويختارُ كلماتِه ، لمِا بين الألفاظ من فروق دقيقةٍ فى دِلالتها ، فيستخدمُ كلَّ كلمةٍ بدقة بحيث تؤدِّى معناها المرادَ فى إحكام شديد ، يكاد السامع يؤمنُ بأن هذا المكان خُلقت له هذه الكلمةُ بعينها ، وأن كلمة أخرى لا تؤدِّى المعنى الذى أفادته أختُها .

وعلى هذا فقضية الترادفِ فى التعبير القرآنى غيرُ واقعة ، إذ أن كلَّ كلمة لابد أن تؤدىَ معنى جديداً وتبعث فى النفس إيحاءات خاصة .

وقضيةُ الترادف قضية قديمة « حكى الشيخُ القاضى أبو بكر بنُ عربى عن أبى علىٍّ الفارسى ، قال : كنت بمجلس سيف الدولة بحلب ، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ، وفيهم ابنُ خالَوْيه ، فقال ابنُ خالويه : أحفظُ للسيف خمسين اسما ، فتبسم أبو علىٍّ ، وقال : ما أحفظُ له إلا اسما واحدا ، وهو السيف ، قال ابنُ خالويه : فأين المهند ، والصارم ، وكذا وكذا ؟ فقال أبو على : هذه صفات »[1] .

فالمترادفات إنما تحسب مترادفاتٍ إذا ما أُريد منها الدلالةُ الإجماليةُ للمعنى ، وهذا ما يقْتنع به أنصافُ المتعلمين ، والعامة من المتكلمين

---

(١) المزهر جـ ١/٤٠٥ .

وغُيرهُم ممن يَكْتَفِى من مخاطَبِه بإيصال خُلاصةِ كلامه ، ومُجمل أفكاره .

أما من عَلِم من اللغة عِلماً أورثه ذوقا فيها ، وملَكَةً فى معرفة أصولها وقواعدِها ، وسَبَر هذه الكلمات واستخرج ما بينها من فروق وخصائص ، فليست هذه الكلماتُ من المترادفات .

وفى الكلام العربى ألفاظٌ يحسبها أكثر الناسِ متساويةً فى بيان المراد ، كـ [الحمد] و[الشكر] ، وغَيْرهما كثير ، غير أن لكل لفظةٍ خاصَّةً تميزها عن اللفظة التى تقاربها فى بعض المعنى ، أو تشرك معها فى بعض الدلالة .

* * *

[الحمد ، والشكر] .

« فـ [الحمد] و [الشكر] يفترقان : فى أن [الحمد] يكون ابتداءً بمعنى الثناء ، أما [الشكرُ] فلا يكون إلا فى المكافأة والجزاء ، تقول : [حَمَدتُ هذا] - إذا أثنيتَ عليه فى أخلاقه ومذاهبه ، وإن لم يكن سبق إليك منه معروف ، و [شكرت زيدا] - إذا أردت جزاءه على معروف أسداه إليك .

ثم قد يكون [الشكر] قولا كـ [الحمد] ، وقد يكون فعلا ، كقوله عز وجل : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ ١٣] .

وإذا أردت أن تتبين حقيقة الفرق بينهما اعتبر كلَّ واحدٍ منهما بضده ، وذلك أن ضدَّ [الحمد] [الذم] ، وضدَّ [الشكرِ] [الكفران] .

وقد يكون [الحمد] على المحبوب والمكروه ، ولا يكون الشكر إلا على المحبوب »[1] .

ولما كان الشكر لا يكون إلا جزاء على معروف ، ومكافأة لعمل ، لم يستثن الله تعالى فيه ولم يعلقه على مشيئته ، فقال : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم ﴾[إبراهيم ٧] .

لكنه استثنى فى الإغناء ، فقال : ﴿ وَإِنْ خِفْتُم عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكم اللهُ من فَضْلِهِ إِنْ شَاء ﴾[التوبة ٢٨] .

وفى الإجابة ، فقال : ﴿ فيكشِفُ ما تَدْعُون إليه إنْ شاء ﴾ [الأنعام ٤١]

وفى الرزق ، فقال : ﴿ ويرزُقُ من يَشَاء بِغَيْر حساب ﴾ [آل عمران ٢٧] .

وفى المغفرة ، فقال : ﴿ إنَّ اللهَ لاَ يغْفِرُ أنْ يُشْرَك بهِ ويَغْفِر ما دُون ذَلك لِمَن يَشاء ﴾ [النساء ١١٦] .

وفى التوبة ، فقال : ﴿ ويتُوبُ اللهُ علَى مَنْ يَشاء ﴾ [التوبة ١٥]

وأما الشكر فقد أطلقه بغير استثناء ، فقال : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾[2] .

ولقد كان القرآنُ الكريم فى ذلك المثلَ والقدوة ، فقد فَرَّق بين المترادفات ، وفَصَل بينها بما لا يكاد الفطنُ اللبيب يدركُه ، أو يتَّجهُ نحوه .

* * *

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابى ٣٠ .

(٢) قصص الأنبياء ١٤٣ .

[**الخشية والخوف**] :

« ومن هذا الباب : الفرقُ بين [الخشية ، والخوف] ، فقد يُظن أنهما بمعنى واحد ، لكنَّ (الخشية) أعلى مرتبةً من [الخوف] ، فإنها مأخوذةٌ من [شجرة خشيَّة] ، إذا كانت يابسة ، وذلك فواتٌ بالكلية ، و[الخوف] من قولهم : [ناقة خوفاء] ، إذا كان بها داءٌ وذلك نقصٌ وليس بفوات ، ومن ثَم خُصَّت [الخشية] بالله فى قوله تعالى : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد ٢١] ، لأن خوف الله ينبغى أن يكون فى أعلى المراتب ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « أنا أعرفُكُم بالله ، وأشَدُّكم له خشية »[١] .

وفُرِّق بينهما أيضا : بأن [الخشية] تكون من عظم المخشىّ ، وإن كان الخاشى قويا ، و[الخوف] يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمرا يسيرا .

ويدل لذلك أن [الخاء والشين والياء] فى تقاليبها فى التصريف تدل على العظمة ، نحو : (شيخٌ) للسيد الكبير ، و(خَيْشٌ) لما غلظ من اللباس ، ولذا وردت الخشية غالبا فى حق الله مثلُ قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة ٧٤] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر ٢٨] .

---

(١) صحيح البخارى جـ ١١/١ .

وأما قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝ ﴾ [النحل ٤٩ ، ٥٠] .

ففيه نكتةٌ لطيفة ، لأنه وَصْفٌ للملائكة ، ولما ذَكر قُوَّتهم ، وشدَّة خَلْقهم ، عبَّر في جانبهم بالخوف لبيان أنهم وإن كانوا غِلاظا شدادا ، فهم بين يدى الله تعالى ضُعفاء ، ثم أردفه بالفوقية الدالةِ على العظمة ، فجَمع بين الأمرين ، ولما كان ضعف البشر معلوما لم يَحتج إلى التنبيه عليه[1] .

[جاء ، وأتى]

ومن ذلك [جاء ، وأتى] – فالفعل [جاء] : يقال فى الجواهر والأعيان ، والفعل [أتى] : يكون فى المعانى والأزمان ، ولهذا ورد[جاء] فى قوله تعالى فى قصة يوسف – عليه السلام –

﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ [يوسف ٧٢]

وكذلك قوله تعالى فى القصة نفسها :

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف ١٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ [الفجر ٢٣] .

وجاءت [أتى] فى قوله تعالى فى شأن يوم القيامة ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلوه ﴾ [النحل ١] . وقوله تعالى :

---

(١) الإتقان جـ ١٩٥/١ ، البرهان للزملكانى ٩١ ، المعترك جـ ٦٠٢/٣ .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا ﴾ [يونس ٢٤] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾ [الفجر ٣٢] أى أمَره ، فإن المراد به : أهوالُ يومِ القيامةِ المشاهَدة ، وكذلك : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [الأعراف ٣٤] . لأن الأجل كالمشاهد ، ولهذا عُبِّر عنه بالحضور فى قوله تعالى : ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾ [النساء ٨] .

ولهذا فرق التعبير القرآنى بين الفعلين [جاء ، وأتى] فى قوله تعالى فى قصة لوط – عليه السلام – ﴿ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الحجر ٦٣ ، ٦٤] . لأن الفعل الأول [جاء] يراد منه العذاب ، وهو مشاهدٌ مرئى ، بخلاف الحق ، فهو معنى من المعانى .

وقال الراغب : الإتيان – مجىء بسهولة ، فهو أخص من مطلق المجىء ، ومنه قيل للسيل المار على وجهه : أتاوىٌّ ، وأتىٌّ .

* * *

[السبيل والطريق]

ومثل ذلك [السبيل والطريق] ، فـ[السبيل] : أغلب وقوعه فى الخير ، ولا يكادُ [الطريق] يراد به الخير إلا مقترنا بوصف أو إضافة تخلصه لذلك ، كقوله تعالى على لسان الجن :

﴿ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف ٣٠]

[مَدَّ ، وأمَدَّ] :

وكذلك [مَدَّ ، وأمدَّ] قال الراغب : أكثرُ ما جاء لفظُ [الإمدادِ] فى المحبوب ، نحو : ﴿ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الطور ٢٢] .

ولفظُ [المدِّ] يجىء فى المكروه ، نحو : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ [مريم ٧٩] .

* * *

[عمل ، وفعل] :

ومن هذا القبيل [عمِل ، وفعَل] فـ [العملُ] لما كان مع امتداد الزمان جاء التعبير القرآنى موافقا لذلك ، فقال تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ ﴾ [سبأ ١٣] . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴾ [يس ٧١] لأن خَلْق الانعام والثمارِ والزروع يكون على امتداد الزمان .

أما [الفعل] فلا يحتاج إلى زمن ، لذلك جاء التعبير القرآنيّ مؤكّدا هذا ، فقال تعالى يخاطب محمد - عليه السلام - ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [الفيل ١] . وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كيف فَعَل ربُّك بعادٍ ﴾ [الفجر ٦] . وقوله تعالى يخاطب أهل مكة : ﴿ وَتَبَيَّنَ لكم كَيْفَ فَعَلْنَا بهم ﴾ [إبراهيم ٤٥] . لأن كلَّ هذه الأفعال إهلاكاتٌ وقعت فى غير بطء ، وقولُه تعالى فى وصف الملائكة : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهم مِنْ فَوْقِهم ويَفْعَلُون ما يُؤْمَرون ﴾ [النحل ٥٠] . أى فى طرفة عين .

ولهذا السر عُبِّر بالفعل [عَمِل] فى قوله تعالى :

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة ٢٥] حيث كان المقصودُ المثابرة على عمل الصالحات ، لا الإتيانَ بها مرة واحدة أو بسرعة .

ولهذا السرَّ أيضا عُبِّر بالفعل [فَعَل] فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج ٧٧] حيث كان [افعلوا] بمعنى [سارعوا] ، كما قال : ﴿ فاستَبِقُوا الخَيْرات ﴾ [البقرة ١٤٨]

ومثل ذلك قوله تعالى فى صفة المؤمنين : ﴿ والَّذين هُمْ للزَّكاةِ فَاعِلون ﴾ [المؤمنون ٦] حيث كان القصد أنهم يأتون بها على سرعة من غير توان »[1]

(١) انظر الإتقان جـ ١٩٥/١ ، البرهان للزملكانى ٩١ ، المعترك جـ ٦٠٢/٣ .

« وقد قال قوم فى هذه الآية : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ إن المستعمَلَ فى [الزكاة] والمعروف لها من الألفاظ [الأداءُ ، والإيتاء ، والإعطاء] ، ونحوهُا ، كقولك : أدى فلان زكاة ماله ، وأتاها ، وأعطاها ، أو زكَّى ماله ، ولا يقال : [فعل الزكاة] ، ولا يُعرف ذلك فى قول أحد .

والجواب : أن هذه العبارات لا تستوى فى مراد هذه الآية ، وإنما تفيد حصول الاسم فقط ، ولا تزيد على أكثر من الإخبار عن أدائها فحسب .

والمراد من الكلام فى الآية المبالغة فى أداء الزكاة ، والمواظبة عليها ، حتى يكون ذلك صفةً لازمة لهم ، فيصيرُ أداءُ الزكاةِ فِعْلاً لهم مضافا إليهم يُعْرَفُون به ، فهم له فاعلون ، وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ فهذه العبارةُ أولى العبارات ، وأبلغُها فى هذه المعنى »[١] .

* * *

[الإعطاء ، والإيتاء] :

« ونحوُ ذلك [الإعطاءُ والإيتاءُ] ، فـ [الإيتاءُ] أقوى من [الإعطاء] فى إثبات مفعوله ، لأن [الإعطاء] له فعل مطاوع ، تقول : أعطانى فَعطوْتُ ، ولا يقال فى [الإيتاء] : أتانى فأتيت ، وإنما يقال : آتانى فأخذت ، والفعل الذى له فعلُ مطاوع أضعف فى إثبات

---

(١) بيان إعجاز القرآن ٥٩ .

مفعوله من الذى لا مطاوع له ، لأنك تقول : قطعته فانقطع ، فيدل على أن فعلَ الفاعل كان موقوفا على قبولٍ فى المحل ، ولولاه مَا ثَبَتَ المفعول ، ولهذا يصح : قطعته فما انقطع ، ولا يصح فيما لا مُطاوِع له ذلك ، فلا يجوز ضربته فانضّرب ، أو فما انضرب ، ولا قتلته فانقتل ، أو فما انقتل ، لأن هذه أفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعولُ فى المحل .

وبناء على هذا فـ [الإيتاء] أقوى من [الإعطاء] .

وهذا المعنى مراعى فى القرآن الكريم فى كلتا الكلمتين [الإيتاء والإعطاء] ، ففى لفظ [الإيتاء] يقول تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾

[آل عمران ٢٦] . لأن المُلْك شىء عظيم ولا يُعطيه إلا من له قوة .

وكذلك قولهُ تعالى : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾[البقرة ٢٦٩]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾

[الحجر ٨٧] . وذلك لعظم القرآن وقوة شأنه .

أما [الإعطاء] فيقول تعالى : ﴿ إنَّا أعْطَيْنَاكَ الكَوْثر ﴾ لأنَّ الكوْثَرَ موردٌ فى الموقف مرتحَلٌ عنه ، قريبا إلى منازل العِزِّ فى الجنة ، فعُبِّر فيه بـ [الإعطاء] ، لأنه يُتْرَك عن قُرْب ، ويُنْتَقَل إلى ما هو أعظمُ منه .

وكذا قوله تعالى : ﴿ ولسَوْفَ يُعْطِيك ربُّك فَتَرْضَى ﴾[الضحى ٥] لما فيه من تكرر [الإعطاء] والزيادةِ إلى أنْ يَرضى كلَّ الرضا ، وهو

مفسَّر أيضا بالشفاعة ، وهى نظيرُ [الكَوثر] فى الانتقال بعد قضاءِ الحاجة منه »[1] .

* * *

[القعود ، والجلوس] :

« ومن ذلك لفظتا [القعود والجلوس] ، فـ [القعود] : يستَعمل فى كل ما يكون فيه لَبْثٌ ومُكث بخلاف ، [الجلوس] ولهذا يقال : [قواعدُ البيت] ، ولا يقال : [جوالُسه] ، للزومها للبيت ومُكثِها فيه ، ويقال : [جليسُ الملك] ، ولا يقال : [قعيدُه] ، لأن مجالس الملوكِ يستحبُّ فيها التخفيف ، وعلى هذا جاء قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر ٥٤ ، ٥٥]

فجاء التعبير القرآنى [فى مَقعَد صدق] للإشارة إلى أنه لا زوال له ، بخلاف قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المجادلة ١١] .

فقد جاء التعبير القرآنى [فى المجالس] ، لأن هذا المجلس يُجلس فيه زمانٌ يسير »[2] .

« وقد حُكى عن النضر بن شُمَيْل : أنه دخل على المأمون عند مَقْدَمه مدينة (مرو) ، فَمَثُل بين يديه ، وسلَّم ، فقال له المأمون : اجلس ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أنا بمضطجعٍ فأجلس ، قال : فكيف تقول ؟ ، قال : قُلْ : اقْعُد ، فأمرله بجائزة .

(١) الإتقان جـ ١٩٧/١ . (٢) الإتقان جـ ١٩٦/١ .

وكلام النضر بنِ شُمَيْل يصح عند المقابلة ، فنقول : [القيامُ والعقود] ، كما نقول : [الحركةُ والسكون] ، ولا نَسمعُهم يقولون : [القيام والجلوس] ، وإنما يقال : قعد الرجل عن قيام ، وجلس عن ضجْعَةٍ واستلقاء »[1] .

« وقد فَرَق الخليلُ بنُ أحمد بين [القعود والجلوس] ، فقال لمن كان قائما : [اقْعد] ، ولمن كان نائما أو ساجدا : [اجْلس] .

وعللوا لهذا الاختيار بأن القعود هو الانتقالُ من عُلْو إلى سُفْل ، ولهذا قيل لمن أصيب برجله : [مُقْعَد] ، وأن [الجلوس] : هو الانتقالُ من سُفْل إلى عُلُو ، ومنه سميت [نجدُ] : [جَلْساً] ، لارتفاعها ، وقِيلَ لمن أتاها : [جالس] ، [وقد جلس] ، ومنه قولُ عمرَ بنِ عبد العزيز للفرزدق :

قل للفرزدق –والسَّفَاهةُ كاسمها   إن كنتَ تاركَ ما أمرتُك فاجلِس

أي اقصد نجدا – وموجب هذا البيت : أن عمَر بنَ عبد العزيز لما كان واليا على المدينة ، قال للفرزدق : إن كنتَ تلزم العَفافَ وإلا فاخرج إلى نجد ، فإن المدينة ليست بدارِ مُقَامٍ لك .

وحَكَى عبد الله بنُ خالويه ، قال : دخلت يوما على سيف الدولة ابن حمدان ، فلما مُثْلتُ بين يديه ، قال لى : اقعد ، ولم يقل : اجلس ، فتبينت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب ، واطلاعَه على أسرار كلام العرب »[2] .

* * *

(١) بيان إعجاز القرآن ٣٦ .   (٢) درة الغواص فى أوهام الخواص ١٩٤ .

[المشى ، والانطلاق] :

« وقد زعم قوم وتوهموا أن [المشى] فى قوله تعالى : ﴿ وانْطَلَق الملأُ منهم أن امْشُوا واصْبِرُوا على آلِهَتِكم ﴾[ص ٦] ليس بأبلغ الكلام ، ولو قيل بدل ذلك : [أن امضوا وانطلقوا] لكان أبلغَ وأحسن .

وليس الأمر على ما زعموا ، بل [المشىُ] فى هذا المحلِّ أولى وأشبهُ بالمعنى ، وذلك أنه قصد به الاستمرار على العادة الجارية . ولُزوم السجية المعهودة فى غير انزعاج منهم ، ولا انتقالٍ عن الأمر الأول ، وذلك أشبهُ بالثبات والصبر المأمور به فى قوله تعالى : ﴿ واصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾ والمعنى : كأنهم قالوا : امشوا على هيْنَتكم وإلى مهوى أموركم ، ولا تعرِّجُوا على قوله ، ولا تبالوا .

وفى قوله : [امضوا وانطلقوا] زيادة انزعاج ، ليس فى قوله : [امشوا] ، والقومُ لم يقصدوا ذلك ، ولم يُريدوه »[1] .

* * *

[أكل ، وافترس] :

« كما توهموا بأن الله تعالى حينما قال على لسان إخوة يوسُف - عليه السلامُ - ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ [يوسف ١٧] ، إنَّ [أكل] ، ليس الفصيحَ المختار ، وإنّما المختارُ الفصيحُ [افترس] ، لأن [الأكل] عامٌ لا يختصُّ به نوع من الحيوان دون نوع .

---

(١) بيان إعجاز القرآن ٥٦ .

وليس الأمرُ فى معنى هذه الآية على ما تأولوه ، ولا المرادُ ما ظنوه وتوهموه ، فـ [الافتراس] معناه فى فِعْل السَّبع : [القتلُ] فحسب ، وأصل الفرْسِ : دقّ العنُق ، والقومُ إنما ادَّعَوْا على الذئب أنه أكله أكلا ، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مِفْصَلاً ولا عظما ، وذلك أنهم خافوا مطالبةَ أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهدُ بصحة ما ذكروه ، فادعَوْا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفَرْسُ لا يعطى تمامَ هذا المعنى ، فلم يَصْلح على هذا أن يُعبَّر عنه إلا بالأكل »[1] .

[الملجأ ، والمغارة ، والمُدَّخَل] :

ووصف الله تعالى المنافقين بالجبن والخور فى الحروب ، وأن ما يتظاهرون به من الشجاعة تمويه وتضليل . فقال معبرا عن ذلك :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة ٥٧] . فهم جماعة تائهة تذهب هنا وهناك بحثا عن الأمن من الخوف ، والمهرب من الشدة .

وقد يَظنُّ صاحبُ النظرة العَجْلَى أن تلك الألفاظ [ملجأً ، ومغاراتٍ ، ومدَّخلاً] ألفاظٌ مترادفةٌ فى المعنى ، لكنها فى الحقيقة ليست كذلك ، فكل كلمة من تلك الكلمات تُبيِّن شكلا خاصا للمهرب الذى يَبحثُ عنه المنهزم من هؤلاء المنافقين .

فـ [الملجأ] : هو الشكل العادىُّ المألوف من غرفة أو دار ، أو زُمرة من الناس .

---

(١) نفسه ٥٣ .

و[المغارة] : حفرةٌ فى باطن الأرض ، أو بطن جبل ، لا يألفه ولا يرضاه إلا من اشتد خوفُه .

و[المدّخل] : هو المكان الضيق الذى لا يستطيع الخائفُ أن يَدْخُلَه إلا بجهد ، ولا يمكنُ أن يستقرّ فيه إلا تضاؤلا والتصاقا ، وتوحى هذه الكلمةُ بجرسها ، وصوتها ، ووزنها ، وتشديد الدال فيها ، بهذا المعنى (١) .

وعلى هذا فلا يمكن أن تَحُل إحدى هذه الكلمات محل جارتها ، أو يُستغنَى بإحداها عن الأخرى ، فكل كلمة مقصودٌ منها غرض خاص ، ومعنى لا يستفاد من الأخرى .

* * *

[جنى وثمر ، دان وقريب]

ومثل ذلك قوله تعالى فى وصف الجنة :

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾

[الرحمن ٥٤] ، فلو جُعِل التعبيرُ القرآنى مكان [وجَنَى الجَنَّتَيْنَ دَانٍ] ، [وثمرُ الجنتين قريب] ، لم يَقُم مكانَه ، ولم يَسُد مسدَّه ، حيث إن فى التعبير القرآنى جمالَ الجناس ، بين [جنى ، والجنتين] ، كما أن لفظَ [الثَّمر] لا يُشعِر بمصيره إلى حال يُجنى فيها ، ولا يُنبىء عن بلوغه مرحلة النضج ليصير يانعا تشتهيه الأنفس ، وتلَذُّ به الأعين . بينما يتبادر

---

(١) من روائع القرآن ٢٠٠ .

(٢) بينات المعجزة الكبرى ٢٥١ .

هذا المعنى إلى النفس والفكرِ سراعا من لفظة [جَنى] ، كما أن هذا التعبير البديل « وثمر الجنة قريب » يُفَوِّت على السامع المؤاخاة فى الفواصل ، وهى حليةٌ لفظية ومعنوية تزيد الكلام حسنا ، واللفظ رَوعة وبهاء ..

* * *

[مرضع ، ومرضعة] :

ومن ذلك كلمة [مرضعة ومرضع] ، فالتعبير القرآنى يصور هولَ يومِ القيامة والفزعَ الذى يصيب الناسَ فيه بحيث لا يدعُ بقيةً من وَعْى ، فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾[الحج ١ ، ٢]

الأصل فى لغة العرب أن لفظةَ [مُرْضِع]– بدون التاء – وصفٌ خاصٌّ بالمرأة ، ولا يكون هذا الوصفُ للرجل ، ولهذا لا تدخل [التاء] عليها ، إذ الأمورُ الخاصةُ بالمرأة لا تدخلها التاءِ ، فلا يقال : رجل مرضع وامرأة مرضعة – وإنما يقال : امرأة مرضعٌ فقط .

كذلك لا يقال : رجل حامل ، وامرأة حاملة ، وإنما يقال : امرأة حامل – إذا كانت حبلى – فإذا حَملت شيئا على ظهرها أو على رأسها ، فيقال لها حينئذ : [حاملة] ، أو [حمّالة] بالتاء ، قال تعالى : ﴿ وامرأتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَب ﴾[المسد ٤] .

وإنما دخلت التاء على لفظة [مرضعة] فى قوله تعالى : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة] ، لأن الله تعالى يريد أن يصور لنا هولَ يومِ القيامة ، حتى إنه يُشغلُ الإنسانَ عن أعزِّ ما يُحب .

فـ [المرضعُ] – بدون التاء – هى المرأة التى من شأنها أن ترضع ، أو مَن لها وَلَد تُرضعه ، وإن لم تكن فى ذلك الوقت مرضعة ، لكن [مرضعةً] – بالتاء – هى التى تَلْقَم الثدىَ فمَ الطفل ، وتزاول هذا العملَ فعلا .

فـ [مرضعة] لا تكون إلا لحالة الإرضاع ذاتِها ، وأما [مرضع] فتقال للمرأة التى من شأنها أن ترضع وإن لم تكن مرضعة فى ذلك الوقت ، ولا شك أن الذهول فى [المرضعة] يكون أخوفَ وأفزع ، فلا تذهلُ [المرضعةُ] عن طفلها والثدىُ فى فمه إلا للهول الذى لا يَدَعُ بَقِيَّةً مِنْ وَعى .(١)

كما آثر القرآنُ التعبير فى الآية بـ [كلُّ ذَاتِ حَمْلٍ] على [كلُّ حامل] ، لأن لفظ [الحامل] قد يُطْلَقُ على المرأة المهَيَّئةِ للحمل ، وعلى مَنْ هِيَ فى أوائل حملِها ومباديه ، فإذا قيل : [ذاتُ حملٍ] لم يكن إلا لمن قد ظهر حملُه ، وصلُح للوضع كاملا أو سقْطا ، كما يقال : [ذاتُ وَلَد] .

فالتعبير القرآنى آثر لفظ [المرضِعَة] بالتاء إذْ يتحقَّقُ معها فعلُ الإرضاع ، دون التهيُّؤ له ، واختيار لفظة [ذات حَمْل] حيث يتحققُ

---

(١) انظر القضاء والقدر ١١٩ ، على مائدة الفكر الإسلامى ٣٤٥ ، بدائع الفوائد جـ ٣١/٤ .

معه وجودُ الحمل ، وقَبولُهُ للوضع – كل ذلك لتصوير الهول العظيم ، وتمثيل الشدة الكبيرة التى تقع فى ذلك اليوم .

فنرى الدقةَ الواضحةَ فى التعبير القرآنى ، والتحديدَ الكاملَ للفظ ، والإتيانَ به فى خاصّ معناه ، ولو كان أحدُ اللفظين فى موْضِعِ الآخر لأوقع السامعَ صاحِب الفطرةِ السليمةِ ، والطبعِ المواتى ، والذوق اللغوى فى حيرة وارتباك ، وأدخلَ عليه اللَّبْسَ والخلْط .

* * *

[التمام ، والكمال] :

كذلك ليس من المترادفات لفظتا [التمام والكمال] ، « وقد اجتمعا فى قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة ٣]

فـ [الإتمام] : لإزالة نقصان الأصل ، و[الإكمال] : لإزالة نقصان العوارضِ بعد تمام الأصل ، ولهذا جاء قوله تعالى فى أحكام كفارات الحج :

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة ١٩٦] . فـ [كاملةٌ] فى الآية أفضل من [تامة] لأن [التمام] قد عُلِم من العدد (عشرة) ، وإنما نَفَى احتمالَ نقصٍ فى صفاتها » .(١)

* * *

(١) البرهان للزملكانى ٩١ .

[ضيزى ، جائرة]

ومن عجيب النظم فى القرآن ، وجمال التعبير فيه ، أنك ترى لفظيتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسنٌ فى الاستعمال ، وقد يكونان على وزن واحد ، وعددٍ واحد فى الحروف ، إلا أنه لا يحسُنُ استعمالُ هذه فى كل موضع تستعمل فيه تلك ، بل يكون بينهما من الفرق ما يدركُه من دَقَّ فهمُه ، وجَلَّ نظره .

فنى القرآن الكريم لفظة غريبة ، هى أغرب ما فيه ، وفى اللغة ما يعادلها فى المعنى ، ويماثلُها فى أداء الغرض ، لكنَّ التعبير القرآنى يؤثر هذه الكلمةَ الغريبة ، وكأنه يرى أنه لا تَحْسُنُ فى كلام قط حُسْنَها فى موقعها ذلك ، وهى كلمةُ [ضيزى] من قوله تعالى يخاطب العرب منكرا عليهم : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم ٢١ ، ٢٢] .

فابنُ الأثير يقول فى سبب اختيار كلمة [ضيزى] بذاتها : « وهذه اللفظة فى موضعها لا يَسدُ مسدَّها غيرُها ، ألا ترى أن السورة كلَّها – وهى سورة النجم – مسجوعةً على حرف الياء ، يقول تعالى :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) ﴾ إلى آخر السورة .

ثم إن هذه الكلمة فى معرض الإنكار على العرب ، إذْ وردت فى ذكر الأصنام وزعمهم قسمة الأولاد ، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنامَ بناتٍ لِلّه – مع وأدهم البنات – فقال تعالى منكرا عليهم ذلك :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَر ولَهُ الأُنْثَى ، تلك إذاً قِسمة ضِيزَى ﴾ فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذى جاءت السورةُ جميعُها عليه ، وغيرُها لا يسدُّ مسدَّها فى مكانها .

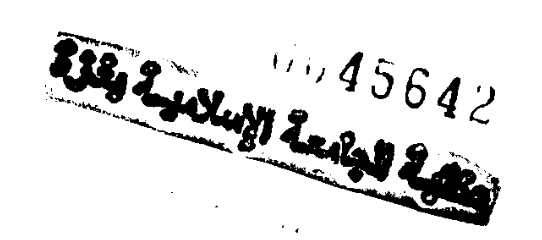
وإذا جئنا بلفظة فى معنى هذه ، قلنا : [قسمةٌ جائرة ، أو ظالمة] ، ولاشك أن [جائرةً أو ظالمةً] أحسن من [ضيزى] ، إلا أننا إذا نَظَمْنَا الكلام ، فقلنا : «ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمةٌ ظالمة» ، لم يكن النظم هذا كالنظم الأول ، وصار الكلامُ كالشيىء المعْوِز الذى يحتاج إلى تمام»[1] .

فابن الأثير أرجع الجمالَ والحُسْنَ فى الآية إلى شيءٍ لفظى خالص ، وهو مراعاة الفواصل ، ليتم لها الإيقاعُ الحَسَنُ ، والانسجامُ الصوتى — وهذه علةٌ مسلّمة بحكم الذوق والسمع .

لكن [الرافِعِىَّ] نظر إلى الآية نظرة أخرى شاملة ، وتناولَها من ناحية ائتلاف اللفظ مع المعنى ، فأضاف إلى ما أدركه ابنُ الأثيرُ بعدا جديدا ، فقال :

« **ثم إن الآية [قسمةٌ ضيزى] فى معرِض الإنكار على العرب ، إذْ وردت فى ذكر الأصنام وزَعْمِ العرب قسمةَ الأولاد ، فقد جعلوا الملائكةَ والأصنام بنات لله ، مع وأدهم البنات — فقال تعالى منكرا عليهم ذلك** «ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذا قسمة ضيزى» فكانت غرابةُ اللفظ أشدَّ الأشياءِ ملاءمة لغرابة هذه القسمةِ التى أنكرها ،

(١) المثل السائر جـ ٢٢٩/١ .



وكانت الجملةُ كلُّها تُصَوِّر فى هيئة النطق بها الإنكار فى الآية الأولى ، والتهكم فى الآية الثانية ، وكان هذا التصوير أقوى فى البلاغة ، وبخاصة فى اللفظة الغريبة التى تمكنت فى موضعها من الفاصلة »[1].

* * *

[الجهاد ، والحرب] :

ومن هذا القبيل ما نَجدْه شائعا فى القرآن الكريم ، فقد تجنَّب التعبيرْ القرآنى — عندما كان يبعث المسلمين على نشر الإسلام — تجنب لفظ [الحرب] واصطلح على مرادفها وهى كلمةُ [الجهاد] ، حيث إن فيها كفايةً لنشر الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، ولفظ [الجهاد] أبلغُ منها تأثيرا ، وأكثُر منها إحاطةً بالمعنى المقصود .

فلماذا آثر التعبيرُ القرآنىُّ كلمة [الجهاد] واختارها دون سواها . وأعرض فى أكثر تعبيراته عن تلك الكلمة التى كانت شائعة فى الوسط الجاهلى ؟

ذلك لأن لفظة [الحرب] كانت تُطلَق — وما زالت — على القتال الذى يَشِب لهيبُه ، وتستعِرُ نارُه ، بين الرجال والفئاتِ والطوائف ، لمآربَ شخصية ، وأغراضٍ ذاتية ، ولا تكون فى سبيل انتصارٍ لمبدأ سامٍ ، أو فكرةٍ سليمة .

ومن أجل ذلك تَرك هذه الكلمة الكريهة ، حينما كان يحث المسلمين على جعل كلمةِ الله هى العليا .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ٢٦١ .

وجاء التعبير فى القرآن : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج ٧٨] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

[الأنفال ٧٢] . ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال ٧٤]

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ ﴾ [الأنفال ٧٥]

فالتعبير بلفظ [الجهاد] يوحى بأن ما فى الإسلام ليس من قبيلِ تلك الحروب التى تشِب لمثل هذه الأغراض الدنيئة .

كما أن [الجهاد] كلمةٌ تشمل جميعَ أنواعِ السعى ، وبَذْلَ الجهد : فتغييرُ أفكارِ الناس وتبدلُ ميولهم ، وإحداثُ انقلاب فكرىٍّ بوساطة الكلمة والمقال والقلم نوع من الجهاد ، كذلك بَذْلُ الأموالِ فى سبيل الله ، وتَحَمُّلُ المشاق ، ومكابدة الشدائِد فى سبيله كل ذلك داخل ضمن الجهاد .

* * *

وقد نقل السيوطى (١) عن كتاب [أنوارِ التحصيل فى أسرار التنزيل] للبارِزِىّ كثيرا من الألفاظ التى اختارها القرآنُ الكريم وآثرها عما يُشابهها فى المعنى ، وذكر منها قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت ٤٨]

فلفظُ [تتلو] أحسنُ فى التعبير من لفظ [تقرأ] لثقله بالهمزة .

ومنها : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة ٢] . أحسنُ من [لاشكَّ فيه] ، لثقل الإدغام ، ولهذا كَثُر ذكر [الريب] فى القرآن .

---

(١) الإتقان جـ ١٢٥/٢ .

ومنها : « ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ [آل عمران ١٣٩] . أحسنُ من [ولا تضعُفُوا] ، لِخفَّته .

وقوله : ﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ [مريم ٤] أحسنُ من [ضَعُفَ] ، لأن الفتحة أخَفُّ من الضمة .

وقوله : [آمَنَ] في قوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرسولُ بما أُنْزِل إليه مِنْ ربِّه والمؤمنون ﴾ [البقرة ٦٢] أخَفُّ من [صَدَّق] ، ولذا كان ذكر الإيمان أكثَرَ من ذكر [التصديق] في القرآن .

و[آتى] من قوله تعالى : ﴿ وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [البقرة ١٧٧] أخفُّ من [أعطى] . و[أَنْذَرَ] من قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ (الأحقاف ٢١) . أخفُّ من [خوَّف] .

و[خيْرٌ لكم] من قوله تعالى : ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة ١٨٤) . أخفُّ من [أفْضَلُ لكم]

والمصدرُ في نحو : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان ١١] أخفُّ من [مَخْلوق] .

و[تَنْكِحُ] من قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ [البقرة ٢٣٠] أخفُّ من [تتزوج] ، لأن [تفْعِلَ] أخفُّ من [تَتَفَعَّلَ] ، ولهذا كان ذكْرُ النكاح فيه أكثر .

ولأجل هذا التخفيفِ والاختصارِ استُعمل لفظُ [الرحمةِ ، والغضب ، والرضا ، والحب ، والمقت] في أوصاف الله تعالى ، مع أنه

لا يوصف به حقيقة ، لأنه لو عُبِّر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام ، كأن يقال : [يُعامله معاملة المحب أو الماقت] ، فالمجاز فى مثل هذا أفضلُ من الحقيقة لخفته واختصاره ، فإن قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف ٥٥] أحسنُ من [فلما عاملونا معاملة المغضب] ، أو [فلما أتوا إلينا بما يأتيه المغضب] .

* * *

[يكوِّر ، ويبسط]

ويقول تعالى فى معرِض إبراز قدرته لخلقه وعِظَم مخلوقاته :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ ﴾ [الزمر ٥]

فالمراد من [التكْوير] فى الآية : أن يأخذَ الليلُ والنهارُ صورة خاصة فيحيطان بالكرة الأرضية إحاطة اللِّفافة حول الكرة ، كما تقول : كورت هذا القماش ، أى جعلته يأخذُ شكل الكرة الملفوفِ حولها .

ولو جاء التعبير فى الآية : [يبسط الليلَ والنهار] أو [يُغيِّر الليلَ والنهار] لاقترب من المعنى المراد .

لكن القرآن الكريم اختار لفظة [يكور] دون [يبسطُ ، أو يُغيِّر] ، لأن لفظة [يكور] هى التى تصور المعنى المرادَ أحسنَ تصوير ، وتُبرز الغرض المقصود فى أوضح عبارة ، إذْ المرادُ أن الليل والنهار يحيطان بالكرة الأرضية ، ومعلومٌ أن الأرض على شكل الكرة ، فالليلُ والنهار

يُكوَّران حول سطح الكرة الأرضية فى كل وقت ، وذلك لأن نصفَ الكرة الأرضيةِ المواجهَ للشمس يكون نهارا ، والنصفَ الآخرَ يكون ليلا ، فالآية إعلان من الله تعالى بأن النهار والليلَ موجودان معا على سطح الكرة الأرضية فى الوقت الواحد ، كما أنه إعلان عن كروية الأرض .

وهذا مما نبَّأ به القرآنُ الكريم منذ أربعة عشر قرنا ، ولم يصل إلى علم البشر إلا منذ وقتٍ قريب .

ونلمَس دقة التعبير فى قوله : ﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ فاستخدامُ حرف [على] يصور مدى انطباق الليل والنهار على سطح الكرة الأرضية . (١)

فالتعبير بلفظة [يُكَوِّر] هو الذى وضح هذا المعنى ، وبين هذا المراد ، ولولا هذه اللفظة ما وَضَح تمامُ المراد ، ولا فُهِم حقيقةُ المعنى المقصود .

* * *

[حسَن ، وأحسن] :

ويقول تعالى فى ذكر الخمر قبل تحريمها : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ ﴾ [النحل ٦٧] أى خمرا يسكر ، وقد سميت [الخمر] بالمصدر – وهذا قبل تَحريمها – أما الرزق الحسن ، فهو كالتمر والزبيب .

---

(١) انظر المنتخب من تفسير القرآن ٥٥ .

فلماذا اختار الله تعالى لوصف [الرزق] لفظَ [حَسَناً] ، دون لفظِ [أحسن] ؟

جاء الإســـلام والعـــرب كانوا يشربون الخمر ، ولا يتحرجون من تعاطيها ، وكانوا يسمونها [سَكَراً] لكن الإسلام كان يهيىء النفوس إلى تحريم هذه الخمر ، فكان أول خطوة فى التحريم سلبَ الحسن عنها ، وتَعْرِيَتها من صفات الصلاح والكمال . فوصف الرزقَ بالحُسْن ، وسكت عن السَّكَر . فقال : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكَرا ورزقا حسنا ﴾ ، ليفهم المسلمون من هذا الانصراف عن هذا السَّكَر ، وأنه غيرُ مطلوبٍ للشرع .

ولو قال : ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا أحسن ، لأصبح السَّكَرُ فيه شىءٌ من الحسن . وهذا غير مرادٍ لِلّه تعالى .

لهذا وصف [الرزق] بالحسن ، حتى يكون [الحُسْنُ] فى [الرزق] مقابلاً لـ [القبح] فى [السَّكَر] . فيفهم المسلمون من هذا التلميح أن الإسلام يُهيب بالنفوسِ المسلمة أن تنأى بنفسها وتبتعد عن هذا السكَّر .

* * *

[مرُّ السَّحاب ، ومرُّ الرِّياح] :

ومن ذلك قوله تعالى فى وصف مشهدٍ من مشاهد يوم القيامة :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل ٨٨]

فهذه الجبال الراسخة ، وتلك الأوتاد التى تبدو أمامنا جامدة صامدة ، لا يستطيع أحدٌ أن يفتتها أو يزيلها ، هذه الجبالُ الرهيبةُ تتحركُ وتمرُّ أمامنا مر السحاب ونحن لا ندرى ، ولذلك يقول الله تعالى عنها ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾ كأن ذلك حسبانٌ منا وليس بحقيقة .

فلماذا لا يكون التعبير فى الآية : وهى تمر مر الرياح ، أو مر العواصف ؟

ذلك لأن السحاب لا يتحركُ بنفسه ، وإنما تدفعُه قوةٌ أخرى وهى قوة الريح ، فحين يتحركُ السحاب من مكان إلى مكان آخر لا ينطلقُ بذاته ويمضى ، بل تأتى الرياحُ وتحملهُ من المكان الذى هو فيه إلى مكان آخر ، فحركةُ السحاب ليست حركةً ذاتيةً وإنما حركتُه بالتبعية لحركة الرياح .

وكأن الله تعالى يقول لنا : « إن حركة هذه الجبال الضخمة ليست حركة ذاتية كحركة الأرض ، وليست حركتُها حركةً ذاتية كحركة الرياح ، فالجبال لا تتحرك بذاتها ، فهى لا تنتقل من مكانها على سطح الأرض إلى مكان آخرَ على سطح الأض بذاتها وإنما تتحرك تبعا لحركة الأرض ، فحركتها ليست حركة ذاتية وإنما هى حركة بالتبعية .

فاتفقت حركة الجبال وحركة السحاب ، فكلا الحركتين حركةٌ غير ذاتية ، وإنما حركتهما تبعٌ لشى آخر ، فالجبالُ حركتها تبعٌ لحركة الأرض ، والسحابُ حركتهُ تبعٌ لحركة الرياح ، وهذا مما حسّن التشبيه فى الآية ، وكان لحذف الأداة فيه منتهى البلاغة .

ولو جاء التعبير فى الآية « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تسير ، أو وهى تجرى ، أو وهى تتحرك ، أو وهى تمر من مكان إلى آخر . . . » ما أفاد ما أفاده التعبيرُ فى الآية الكريمة ، حيث إن كلَّ هذه التعبيرات تعطى الجبال ذاتيَّة الحركة ، والحقيقةُ أن هذه الجبالَ حركَتها تبعٌ لحركة الأرض ، كما أن السحابَ حركتهُ تبعٌ لحركة الريح .

ولذلك نجد التعبير القرآنى استبعد كلَّ هذه الألفاظ البديلة ، والتى تعطى الجبال ذاتيةَ الحركة ، وأتى بالتعبير الذى يحددُ المعنى المراد ، ويصلُ إلى الغرض المقصود[1] .

* * *

[**ألمْ تَرَ ، وألم تعلم ؟**] :

ويقول تعالى مقررا للرسول – عليه السلام – بحادثة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ [الفيل ١]

فلماذا أتى التعبير القرآنى بـ [ألم تر] وهو الفعل الذى يدل على الرؤية البصرية ، مع أن حادثة الفيلِ هذه كانت فى عام ولادتِه – صلى الله عليه وسلم – فهو لم يَرَ أحداث القصة ، ولم يعاينْها ، بل سمعَها وأُخْبَرَ بها ، وعلى هذا فالمقام يقتضى فى التعبير [ألم تعلم] ، دون [ألم تر] ؟

نعم – المقام يقتضى فى التعبير البشرى [ألم تعلم] ، لأن هذه الحادثَة سمعها الرسولُ – عليه السلام – وأُخبر بها ، لكنّ التعبير القرآنيَّ اختار كلمةَ [ألم تر] ، لأن العلم الذى يقول الله تعالى لرسوله – ﷺ – ويُخبُرُ

(١) انظر المنتخب من تفسير القرآن ٥٥ .

به نبيَّه من قبَله – وإن كان غيبا – فهو بمنزلة الخبر المشاهَد ، ويجب أن يكون إخبارُ الله تعالى أقوى وسائِل العلم – وهو الرؤية العينية – إذ هى من قبيل التجربة الشخصية ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ ؟

[النساء ٨٧]

وهذا هو السبب فى أن [ألم تر] تَرِدُ كثيرا فى كتابه الله تعالى ومعناها [ألم تعلم] ، كقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

[الحج ١٨]

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج ٦٥]

فما دام الخبر من الله تعالى – وإن كان غيبا – فهو بمنزلة الخبر المشاهَد المعاين ، ويجب أن يكون إخبارُ الله تعالى له بأقــوى وسائل العلم – وهو الرؤية – ولهذا يجيء التعبير فى كتاب الله تعالى كثيرا بـ [ألم تر] ، دون [ألم تعلم] .

وفى الآية لفْتَةٌ كريمة إلى كيفية كيد الله تعالى لجيش أبرهة ، فقال : ﴿ أَلمْ تَرَ كَيْفَ فعَل ربُّك بأصحابِ الفِيل ﴾ – فلو جاء التعبير : [ألم تر ما فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ لصح الكلام .

لكن المراد ليس مجردُ فعلٍ ، ولكنه فعلٌ على كيفيةٍ مخصوصةٍ لا تصدُر إلا من الله تعالى فقد كان من الممكن أن يهزم اللهُ جيشَ أبرهةَ بطريقة عادية ، فكانت جماعة قريشٍ تقوم على جماعة الحبشة ، وينصرُ

الله قريشا عليهم ، كأىِّ معركة من المعارك التى تدور بين البشر ، لكن الله تعالى فعل ما فعل بأصحاب الفيل ، لا بأيدى قريشٍ ، ولا بأسبابهم ، وإنما بشىء آخر فوق الأسباب الأرضية ، والقواميسِ البشرية ، فالعجبُ إذن ليس من الفعل نفِسه ، ولكن من كيفيته التى وقع عليها .

وهذا هو السر فى التعبير بكلمة [كيف] فى الآية الكريمة .

ثم إن الخبر فى الآية يأتى من الله تعالى بأوثق أنواع التوكيد ، فلم يقل لرسوله – صلى الله عليه وسلم : [أرأيت ما فعل ربك بأصحاب الفيل] بالإثبات ، ولكنه قال : [ألم تر] بالاستفهام المراد منه النفى والداخل على [لم] التى تدل على النفى ، وذلك تقريرٌ بأبلغ أسلوب ، لأن نفى النفى إثبات .

لأنه حين يُلقَى الخبرُ بصيغة الاستفهام يجعل المتكلمُ المخاطبَ شريكا فى إعداد الجواب ، فلو قال : [أرأيت ما فعل ربك بأصحاب الفيل] ؟ كان فى ذلك الأسلوب إشراكُ المخاطبِ فى استنطاقه بالجواب .

ولو لم يكن المستفهِم – وهو الله تعالى – واثقا من أن جوابَ المخاطَبِ سيكون بالإثبات لَمَا أُلْقِىَ إليه ذلك السؤال ، لكنْ لثقته بأن الجواب لا يكون إلا بالإثبات جاء بالاستفهام ، وذلك آكد فى الجواب .

ولم يأت سبحانه بالاستفهام وحده وإنما جاء بالاستفهام داخلا على النفى [لم] ، فقال : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ ، فكان ذلك استفهاما ليس موحيا بالجواب .

والحق سبحانه وتعالى حينما يأتى ليقررَ بشىء لا يقررُه بصيغة

الإثبات ، ولكن يقرُره بالصيغة المقابلة وهى [النفى] ثقة منه بأن الإجابة لا تكون إلا بالإثبات ، فلم يقرر النَّبى – عَليه السلام – هنا بقوله [رأيت – بالإثبات – أو أرأيت – بالاستفهام] فربما يكون ذلك إيحاءً بالجواب ولكن جاء بالنفى مع الاستفهام ليكون التقريرُ بأبلغِ أُسلوب – وكل ذلك مما يزيد الخبرَ توكيدا وتثبيتا .[1]

وعلى هذا جاء كثيرٌ من الآيات القرآنية ، كقوله تعالى : ﴿ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ﴾ ؟ [الفيل ٢] ﴿ ألم نشرحْ لك صَدْرك ﴾ ؟ ، ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء ١٨] .

* * *

وفى قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم ٣٧]

وقوله تعالى فى آية أخرى :

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الزمر ٥٢]

فلماذا جاء التعبير فى الآية الأولى بـ [أولم يروا] ، وفى الثانية بـ [أولم يعلموا] والموضوع واحد ، وما الذى أوجب اختصاصُ كلَّ واحد من المكانَيْن باللفظ الذى اختُصَّ به ، مع أن اللفظين يبدو أنهما مترادفان ؟

---

(١) انظر المنتخب من تفسير القرآن ٩٨ – ١٠٤ .

السبب فى ذلك : أن الآية الأولى [أولم يروا] ، جاءت عقب آية قصد بها كفارُ مكة وهى : ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم ٣٦] .

والمعنى : إذا أنعمنا عليهم نعمة تُرى عليهم ، وتملأ مسارحَهم ، ومراحَهم ، وتَعْمُر أفنيتَهم ، وآنيتَهم ، ملكهم الفرحُ ، واستولى عليهم البطرُ ، وإن أصابتهم عقوبةٌ على ما قدموا من معصية ، ونالتهم شديدة من جَدْبٍ أو قحْط يَصْفَر لها الإناء ، ويَفْرُغُ منهما الفِناء ، حتى لا تَرى لهم ثاغيةً ، ولا راغية ، فكان الأليق بهذا المكان : [أولم يروا] ، على معنى : أو لم يروا أموال من بسط اللهُ له الرزق ، فيعلموا أنه يُوَسِّع لمن يشاء ، ويضيِّقُ على من يشاء ، وكلتا الحالتين مرئيتان عندهم مشاهدتان لديهم ، فإن من بسط اللهُ له الرزق يُرى ماله ، ولم يَخْفَ على المشاهدِ حالهُ ، ومن انقلب أمْرهُ ، وانقطع خيرُه أدركت العينُ منه ذلك .

فلمَّا جاءت هذه الآيةُ بعد ذكرِ النعمة إذا وُهِبَتْ ، وحال الإنسان فيها إذا سُلبت ، والنعمةُ مرئية ، لاق بهذا المكان ، ﴿ أَوَ لم يَروْا أنَّ الله يبسط الرِّزْق لمن يَشَاءُ وَيَقْدِر ﴾ .

وأما الآية الثانية [أولم يعلموا] ، فإن الآيات قبلها :

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ

عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ ﴾ [الزمر ٤٩ - ٥٢] .

فالآيات تبدأ بحكاية حال الإنسان الكافر ﴿ فإذا مس الإنسان ضرٌّ دعانا ﴾ ، والضر : هو سوءُ الحال من مرضٍ فى النفس ، ونقصٍ فى المال ، وهو الذى شكاه أيوبُ – عليه السلامُ – بقوله : ﴿ أنى مسَّنِىَ الضُّرُّ ﴾ [الأنبياء ٨٣] .

﴿ ثم إذا خولناه نعمة منا ﴾ ، أى إذا أعطيناه بعد العلة صحة ، وبعد القلة ثروة ، ادعى أنه أوتى ما أوتى بعلمه ، إذْ هو أهل له ، وأنه جلب العافية لنفسه بظنه ، وأنه لم تعاوِدْه الصحةُ من قِبَل ربه ، ويقول فيا يحسُنُ من حاله : إنى افتقرتُ لأنى قصَّرتُ ، والآن علمتُ التأنِّى للاكتساب ، واستعادةِ الغِنَى بعد الكساد .

ولم يعلم هذا الإنسان أن النعمة هذه هى فتنةٌ له ، وتشديدٌ فى التكليف عليه ، حيث إنه مطالَبٌ بمعرفتها ، والشكر لها ، ولكنه غَفَل عن شكر واهبها ، وألهاه الانغماسُ فى لذاتها عن حمد من تَفضَّل بها ، ومن الناس من يعلمُ بموجبها ، ولكنْ أكثرُ هؤلاء الناس لا يعلمون . ﴿ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ فقد كَفَر مثْلُ كفرهم من كان قبلَهم ، فلما نَزَل عذابُ الله بهم لم يملكوا دفْعَهُ بعلمهم ولا بمالهم ، ولكنْ أصابتهم عقوباتُ ما ساء من أعمالهم .

والذين ظلموا فى عهدك يا محمد ، سيصيبهُم عقوبةُ ما عملوا كمن سبقهم .

ثم أتى التعبيرُ بـ [أولم يعلموا] فيُذَكِّرهم بما يعلمون من أن الله يوسِّعُ على الفقير حتى يستغنيَ ، ويفتحُ له أبواب الرزق حتى يَثْرَى ، وأنه يُضَيِّقُ على من يَشاءُ أن يُضَيِّقَ عليه ، ويُسْقِمُ مَنَ يَشاءُ إسْقامَه ، ويُصِحُّ من يشاءُ صِحَّته .

فجاء التعبير هنا بـ [أولم يعلموا] بدلا من [أولم يروا] كالآية السابقة ، لأنه لما قال كافرهم : ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ ، وادَّعى العلم والأهلية فيما آتاه اللهُ من ثروة ، وبما أسبغ عليه من عافية ، فقابل الله تعالى هذا القول الذى قاله كافِرهم بقوله ﴿ أولم يعلموا ﴾ أى فلماذا يعلمون هناك ولم يعلموا هنا ؟ ، بل هم يعلمون أن الله يبسط الرزق إذا أُرسل عليهم السماءَ مدرارا ، ويقدرُ إذا ضَنَّ السحابُ بقطرة ، وابْتُلُوا بفقده .[1]

فكان التعبير بـ [أولم يعلموا] ، أولى بهذا المكان من قوله : بـ [أولم يروا] فى الآية السابقة أولى ، فلكل كلمة مع سياقها مقام .

* * *

السر فى التعبير بـ [تَرَى] :

وقد كثر التعبير فى القرآن الكريم ب [تَرى] ، وليس المرادُ بها الخطابَ لواحدٍ مخصوصٍ معينٍ دون غيره ، بل يُقصدُ بها : تعميمُ الخطاب وكونُ الشيء على تلك الصفة ، إذا رآه أيُّ راءٍ ، رآه عليها ، فلا تختص براء معين ، كما فى قوله تعالى فى بعض مشاهدِ يومِ القيامة :

(١) درة التنزيل ٣٧١ - ٣٧٢ .

﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾
[الشورى ٤٤]

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ﴾
[الشورى ٤٥]

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية ٢٨]

﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾
[الشورى ٢٢]

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزمر ٧٥] .

كما أتى التعبير بها فى مظاهر الحياة الدنيا ، والمشاهد المبثوثة فى الكون ، فقال تعالى :

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ [الحديد ٢٠] .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ [النحل ١٤]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ [الزمر ٢١]

فالمقصودُ من الخطاب بـ [تَرى] أيُّ مخاطب ، وكلُّ مخاطبٍ يتأتى منه الخطاب ، وليس ذلك خطابا لشخص معين – كما هو الأصلُ فى الخطاب – وذلك للإشارة إلى أن الأمر – موضوع الخطاب – من الوضوح بمكان ، وقد بلغ من وضوحه أنه يراه الناسُ جميعا ، فلا يختصُّ به راءٍ دون راءٍ ، فكل من يتأتى منه الخطاب له مدخل فى الرؤية .

وكأن المرادَ بكلمة [ترى] فى مشاهد القيامة تلك ، التشهيرُ بحال المشركين يومَ المحشر ، وأن حالَتهم فى ذلك اليوم من تنكيس الرؤوس ، ورثاثة الهيئة ، واسوداد الوجه ، وغير ذلك من سمات الخزى والخذلان ، قد بلغت من الظهور لأهل الجمع كلهم إلى درجة يمتنع خفاؤها .

أما التعبير بها فى مشاهد الدنيا ومظاهِر الحياة ، فالمراد : أن هذه النعمَ السابغة ، والأرزاقَ المرئية ، والمشاهد المبثوثة فى الكون ، كأنها فى شهرتها وظهورِها للناس أكثرَ من نار على علم ، وقد ظهرت لأهل الرؤية عامة ، وبلغت درجةً من الوضوح لا يمتنع خفاؤها على أحد .

* * *

[الإراءة ، والرؤية] :

ومن هذا كلمةُ [نُرِيَ] ، فى قوله تعالى فى قصة الإسراء :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ [الإسراء ١]

وكلمةُ [رأى ويرى] فى المواضع الأربعة من قوله تعالى فى قصة المعراج :

﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [النجم ١٠ – ١٨] .

فلماذا جاء التعبير فى الآية الأولى بلفظ [نُرِيَه] – مشتقٌ من [الإراءة] ، وعبر فى الآية الثانية فى المواضع الثلاثة بلفظ [رأى] ، وفى الموضع الرابع بالمضارعِ [يَرى] – وكلها مشتقةٌ من [الرؤية] ، وهل فى هذا الاختلافِ فى التعبير من فرق فى المعنى ؟ .

حينما تَعرّض القرآنُ الكريمُ للآية الأرضية – وهى الإسراء – قال سبحانه فى الغرض من الرحلة : ﴿ لنريهُ من آياتنا ﴾ ، فالفعل [نُرِيَه] من [الإراءة] ، و[الإراءة] : من [أَرَيْتُه الشىءَ فرآه] ، وهى أن تجعلَ من لا يَرى ، يَرى ، وذلك إما بتحويل المرئىِّ إلى ما يناسب الرائى ، أو بنقل الرآئى لأن ينفذَ إلى قانون المرئىِّ .

فالمريض ببصره – مثلا – حينما يذهب إلى الطبيب فيعطيه نظارةً تكبر له الأشياء ، يصير بها رائيا ، فما كان لا يراه أولا ، صار يراه ثانيا – فهذا يقال له : [إراءة] ، فإذا لم يحتج إلى هذه النظارة ، ورأى بدونها ، يقال له : رأى .

ففي حادثة الإسراء الأرضية عبّر الله تعالى بـ [لِنُرِيَه] ، لأن محمدا – صلى الله عليه وسلم – بَشَرٌ على الأرض ، ومقيَّدٌ بقانون الإبصار البشرية ، وقانون الضوء الأرضي .

فإذا كان هناك آيات من غيب الله في الأرض – وهي لا تناسب طبيعة الرسول التكوينية – فلابد أن يَحْدُث له إراءة ، لأنه بطبيعته البشرية لا يرى هذه الأشياء .

ولهذا كان التعبير في حادثة الإسراء الأرضية [لنريه من آياتنا] .

لكن عندما ينتقل الرسولُ – صلى الله عليه وسلم – إلى الملأ الأعلى في حادثة المعراج ، ويلتقي بالأنبياء والملائكة ، تغيرت ذاتيَّتُه – صلى الله عليه وسلم – وكأنه طرح البشرية ، وأخذ شيئا من الملائكية التي ترى بنفسها ، وتُبْصِر بذاتها ، ولهذا كان التعبير بمادة الرؤية في أربعة مواضع : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى – أفتمارونه على ما يرى – ولقد رآه نزلة أخرى – لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ ، ولم يقل في كل ذلك [أرَيْناه] .

فكأن الرسول – عليه السلام – في الأرض كان في حاجة إلى تعديلٍ لبشريته ، وأما في السماء فقد أصبح بذاته يَرى ، فالرسول – عليه السلام – في الأرض كان بشرا ، وجبريلُ – عليه السلام – كان يُرى

محمدا – عليه السلام – الأشياءَ – يَسمع الرسولُ صوتا فيقول : ما هذا يا جبريل ؟ فيقول له : هذا كذا وكذا .

لكن لما صعَد إلى السماء كان يَرى المرائى والمشاهدَ ، فلا يستفهمُ من جبريلَ عنها ، بل كان يَسمعُ فيَفْهم ، فقد أصبحت له ذاتيةٌ فاهمة بلا وسَاطة جبريل ، ورائيةٌ بلا وساطة أحد .

وعلى هذا – فى حادثة الإسراء لما كان الله تعالى جعل الرسول يَرى بعد أن كان لا يرى ، جاء التعبير القرآنى [لنُريه] – من [الإراءة] .

ولما كان الرسول فى حادثة المعراج ، يرى بنفسه ، ويُبصر بذاته ، عبر فى الأربعة مواضع فى آيات المعراج بمادة [رأى] ، دون [الإراءة] .

وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى على لسان موسى – عليه السلام – ﴿ رِبِّ أرِنِى أنْظُرْ إليك ﴾[الأعراف ١٤٣] فموسى – عليه السلام – لم يسأل [الرؤية] ، وإنما سأل [الإراءة] .

فلفظة [أرَنِى] ، المرادُ منها : [الإراءة] ، بمعنى إن تُرِنى أنظرِ ، وإن لم تُرِنى لا أنظر ، حيث إننى بطبيعةِ تكوينى لا أقدر أن أنظر إليك ، لكن إن عدَّلت فِى بَشريتى، وأَريْتَنى أَرَ .

فالذى طلبه – موسى – عليه السلام – [الإراءة] ، وليست [الرؤية] ، لأنه يعلم أنه بطبيعته التكوينية البشرية لا يرى ، لكن الذى خلقه يستطيع أن يُرِيَه .

ولذلك كان الجواب من الله تعالى : [لنْ تَرانى] ، فليس المانع من

جهة الحق تبارك وتعالى ، ولكنْ من جهة تكوين موسى – عليه السلام – فتكوينهُ لا يتحمل رؤيتَه ، ولو أن الله تعالى لا يُرَى لقال : [لن أُرى] ، ولكنه قال : [لن ترانى] أى أن طبيعتك التكوينية لا تقوى على رؤيتى .[1]

* * *

[**قُتِل ، ويموت**] :

ويقول تعالى فى ذم الإنسان الكافر : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ عبس ١٧] .

فلماذا اختار الله تعالى لفظ [القتل] فى الدعاء على الإنسان ، دون لفظ [الموت] ، مع أن كليهما هلاك ؟

جاء التعبير القرآنى بلفظ [قُتِل] دون لفظ [يموت] ، لأن [القتل] دعاءٌ على الإنسان الكافر الذى ليس له منهجٌ سماوى يعصمه من الزلل ، وكلمة [قُتِل] تعنى : أنه لو وَجَد هذا الإنسان الإنصافَ لجاء مَنْ يقتله ، ويريحُ الناسَ من شره ، أما [الموت] فالكل سيموت ، وليس الكلُّ سيقتل .

كما أن كلمة [القتل] وُضعت لتناسب [الإنسان] الذى ليس له منهج سماوى يهتدى به فى الحياة الدنيا .

ونلاحظ أن القرآن الكريم إذا تكلم عن الإنسان[2] فقط ، فدائما

---

(١) انظر فى هذا الموضوع على مائدة الفكر الإسلامى ١٦٨ – ١٧٢ ، حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ٢٢٩ لابن القيم الجوزيه .

(٢) ورد لفظ الإنسان فى القرآن الكريم فى خمسة وستين موضعا (انظر مقال فى الإنسان ص ١٥ للدكتورة بنت الشاطئ) .

يكون الخبر عنه من جنس الشر ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد ٤] .

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾
[الإسراء ١١] .

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ⑥ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ⑦ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات ٦ - ٨] .

ولا ينجو الإنسان من خبر الشر إلا من استُثْنِىَ ، كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ⑲ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ⑳ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ㉑ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ㉒ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ [المعارج ١٩ -٢٣] .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ⑤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [التين ٤ - ٦] .

﴿ والعصر ، إنَّ الإنسانَ لَفِى خُسْر ، إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

فـ [الإنسان] فى هذه الآيات لم ينج من خبر الشر إلا بهذا الاستثناء الذى أخرجه من زمرة الكفار ، وأدخله فى منهج الإيمان ، وصفات المؤمنين .

* * *

[الزوج والمرأة] :

من الثابت فى كلام العرب أن كلمةَ [زَوْج] تعنى : الفردَ المزاوج لصاحبه ، فكلٌّ منهما زوج ، فيقالُ للرجل : زوج ، وللأنثى زوج ، فأما الاثنان المصطحبان ، فيقالُ لهما : زوجان ، فيقال للذكر والأنثى من الطير : زوجان ، يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ [النجم ٤٥ ، ٤٦] .

ويقول : ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ﴾ ثم يقول : ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [الأنعام ١٤٣ ، ١٤٤] .

فقد جعلها اللهُ ثمانية وهي أربعةٌ ، لأنه أراد ذكرا وأنثى من كل صنف ، فالأنثى زوج ، والذَّكَرُ زوج .(١) .

وعلى هذا ، فامرأةُ الرجل وحليلتُه يقال لها : زَوْج ، وبهذا جاء القرآنُ الكريم ، قال تعالى لآدم – عليه السلام – ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [الأعراف ١٩] .

وقال فى حق زكريا – عليه السلام – : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء ٩٠] .

ويقول تعالى فى شأن زيدِ بن حارثة : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [الأحزاب ٣٧] .

---

(١) درة الغواص ٢٥٢

هذا هو الاستعمالُ الكثيرُ فى اللغة والذى نزل به القرآن الكريم .

وقد يقال لامرأةِ الرجل وحليلته [زوجة] بالتاء ، وعلى هذا جاء قول ابن عباس فى عائشة – رضى الله عنهما – : « إنها زوجةُ نبيِّكم فى الدنيا والآخرة » .

وقول الفرزدق :

وإنّ الذى يَبْغى لِيُفسِد زوْجَتِى   كسَاعٍ إلى أُسْدِ الشَّرَى بستَبِينُها

وقال ذو الرمة وقد مر بعجوزٍ بالبصرة ، فعرفتْ أنه غريبٌ عنها ، فقالت له : ألك هنا زوجة ، أم لك قضيةٌ عند الحاكم ؟ فقال حكاية عنها :

أذُو زَوْجةٍ فى المِصْرِأمْ ذُو خُصومَةٍ   أرَاكَ لها بالبَصْرةِ العامَ ثَاوِيا

وقال آخر :

فَبكَى بناتى شَجْوَهُنَّ وزَوْجَتِى   والطامِعُونَ إلىّ، ثم تصدَّعُوا[1]

والأولى فى الاستعمال ، والأصحُّ فى الكلام ما جاء به القرآن الكريم ، فلفظ [الزوج] أفْصحُ من لفظ [الزوجة] .

* * *

وقد وقع فى القرآن الكريم الإخبارُ عن أهل الإيمان بلفظ [الزوج] مفردا وجمعا . فالمفرد : كقوله تعالى لآدم – عليه السلام – : ﴿ اسْكُن أنْتَ وزَوْجُك الجنَّة ﴾ ، وقوله تعالى فى حق زكريا – عليه السلام : ﴿ وأصْلَحْنَا له زَوْجَه ﴾ ، وقوله فى شأن زيد : ﴿ أمسِك عَلَيْكَ زَوْجَك ﴾ .

---

(١) الخصائص جـ ٢٩٥/٣ والمعنى : إن خاصته واحباءه يبكون عليه مدة إذا مات ثم ينسونه .

والجمع : كقوله تعالى فى جزاء المؤمنين : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾

[يس ٥٥ ، ٥٦] .

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف ٧٠] . ، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة ٢٥] .

وكقوله تعالى فى خطاب النبى – صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ .. ﴾ [الأحزاب ٢٨] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ [الأحزاب ٥٠] ، ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ ﴾ [الأحزاب ٦] .

كما وقع فى القرآن الكريم الإخبارُ عن أهل الشرك بلفظ [المرأة] – دون لفظ [الزوج] ، كقوله تعالى فى شأن أبى لهب : ﴿ وامْرأتُه حَمَّالَةَ الحَطَب ﴾ [المسد ٤] .

وقوله تعالى فى امرأة نوح ولوط : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ ﴾ [التحريم ١٠] . فلما كانتا مشركتين أوقع عليهما اسم المرأة .

وقال فى امرأة فرعون : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم ١١] ، فلما كان هو مشرك وهى مؤمنة لم يسمها زَوْجاً له .

فلماذا جاء الإخبارُ فى القرآن الكريم عن أهل الإيمان بلفظ [الزوج] مفردا وجمعا ، وجاء الإخبار عن أهل الشرك بلفظ [المرأة] - دون لفظ [الزوج] - مع أنهما بمعنى واحد ؟

نقل ابن القيم عن السُّهَيْلى قوله[1] : « لم يَقُل فى حق هؤلاء [الأزواجَ] لأنهن لَسْنَ بأزواج لرجالهن فى الآخرة ، ولأن التزويج حِلْيَةٌ شرعية ، وهو من أمر الدين ، فجرَّد الكافرةَ منه ، كما جرد منه امرأة نوحٍ وامرأة لوط .

وأما ذِكْرُ لفظ [المرأة] فى قول زكريا - عليه السلام - ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ [مريم ٥٥] ، وفى قول إبراهيم - عليه السلام - ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات ٢٩] . فلفظ [المرأة] فى هذا لموضع أليق ، لأنه فى سياق ذِكْر الحَمْلِ والولادة ، فذكر لفظ المرأة أولى به ، لأن صفة الأنوثَة هى المقتضيةُ للحمل والوضع ، لا من حيث كانت زَوْجاً .

لكن ابن القيم لم يرتض هذا من السهيلى ، وقال[1] :

« إن السر فى ذكر المؤمنين ونسائهم بلفظ [الأزواج] ، أن هذا اللفظ مشعرٌ بالمشاكلة والمجانسة والاقتران ، كما هو المفهوم من لَفْظِه ، فإن [الزوجين] هما الشيئان المتشابهان المتشاكلان ، والمتساويان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات ٢٢] قال عمرُ ابنُ الخطاب - رضى الله عنه - أزواجُهم : أشباهُهم ونظراؤهم ، وقاله الإمام أحمدُ أيضا .

---

(١) جلاء الأفهام ١٥٠ - ١٥٤ ، التفسير القيم ١٣٢ ، ١٣٣ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير ٧] أى قُرِن بين كلِّ شكلٍ وشكله فى النعيم والعذاب ، قال عمرُ بنُ الخطاب – رضى الله عنه – فى هذه الآية : « الصالح مع الصالح فى الجنة ، والفاجرُ مع الفاجر فى النار ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ ثم فسرها بقوله : ﴿ من الضَّأْنِ اثْنَيْن ، ومن المَعزِ اثْنَين ، ومن الإبلِ اثْنَين ، ومن البقر اثنين » ، فجعل الزوجين هما الفردان من نوع واحد .

ولا ريب أن الله سبحانه قطع المشابهة والمشاكلة بين الكفار والمؤمنين ، قال تعالى ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الحشر ٢٠] .

وقال تعالى فى حق مؤمنى أهل الكتاب وكافرهم : ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾
[آل عمران ١١٣] .

وقطع الله – سبحانه – المقارنة بين المؤمنين والكفار فى أحكام الدنيا ، فلا يتوارثان ، ولا يتناكحان ، ولا يتولى أحدهما صاحبه ، فكما انقطعت الصلة بينهما فى هذا المعنى انقطعت فى الاسم ، فلم يجىء التعبير بلفظ [الزوج] الذى يدل على المشاكلة والمشابهة .

ولهذا وقع على المسلمة امرأة الكافر كامرأة فرعون ، وعلى الكافرة امرأةِ المؤمن كامرأة نوح ولوط ، لفظ [المرأة] دون لفظِ [الزوج] تحقيقا لهذا المعنى .

ونجد هذا المعنى واضحا فى آية المواريث ، فقد علَّق سبحانه التوارثَ فيها بلفظ [الزوج] دون لفظ [المرأة] ، فقال تعالى :

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ [النساء ١٢]

وذلك إيذانٌ بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضيةِ للتشاكل والتناسب ، والمؤمنُ والكافرُ لا تشاكل بينهما ولا تناسب ، فلا يقعُ بينهما التوارثُ » .

وهكذا نجد أن لفظ [الزوج] حينما جاء فى التعبير القرآنى جاء لمعنى تكون فيه المشابهةُ واضحة ، والمشاكلةُ ظاهرة ، والتساوى بين الطرفين موجودا ، والتناسبُ بين الجانبين مشاهَدًا .

أما لفظ [المرأة] فجاء فى التعبير القرآنى حينما كانت المشابهة بين الجهتين غير ممكنة ، والتناسبُ غيرَ واقع ، والتساوى مستحيلاً ، والمشاكلةُ غيرَ واردة .

فروق بين الألفاظ مع إفادة التهكم[1] :

فقد بينا فى الصفحات السابقة أن القرآن الكريم قد يستعمل لفظا معينا دون مرادفه .

لأن للفظ القرآنيِّ الذى أتى عليه خاصةً فى دلالته على المراد ، ومْيزَة فى إشارته إلى المعنى المقصود ، لا تكون لمرادفه .

وقد يكون التعبيرُ بهذا اللفظ بعينه أكثر تصويرا للسخرية ، وأدلَّ على التهكم والاستهزاء المقصودان من الآية الكريمة .

(١) انظر فى هذا : أسلوب السخرية فى القرآن الكريم .

[الخزنة والملائكة] :

فالله تعالى يصف مشهدا من مشاهد يوم القيامة فيقول :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر ٤٩ ، ٥٠]

فالمراد من [الخزنة] فى الآية هم [الملائكة] ، ولو جاء التعبير القرآنى : [وقال الذين فى النار لملائكة جهنم] بدلا من [خزنة جهنم] لكان المعنى صحيحا .

لكنَّ القرآن الكريم اختار كلمة [خَزَنةِ] دون [ملائكة] لما توحى به كلمةُ [خزنة] من صورة حراسٍ يقومون على حراسةِ جهنم وحفظِها ، وفى هذا ما يوحى بالسخرية بهؤلاء القوم ، والاستهزاءِ بحالهم .

كذلك يُوحى – هذا اللفظ – بأن الذين يُدفعون إلى جهنم ، قد يحاولون الهرب والفرار ، فيحتاجون إلى حَفظةٍ يمنعونهم من الهرب .

كما يُوحى – هذا اللفظ – بأن فى جهنم من المتعة والجمال والرغبةِ فيها بحيث يَتنَافسُ الناس عليها ، ويتسابقون إلى دخولها ، فهى لذلك تحتاج إلى حراس تمنعُ الناسَ عنها ، وتحْجِزُهم عن التسلل إليها ، أو تعوقُ اليَد أن تمتد إلى شىء مما فيها .

وهذه الخواطرُ كلُّها يرسُمها فى الذهن لفظُ [خزنة] ، وذلك لأن الحقيقة التى يؤيدها العقل ولا يرتاب فيها هى أن النار لا يُناسبها شىء من

ذلك ، فليس فيها شيء يُطمع فيه ، فيحتاج إلى حراسة ، وليست النارُ مغريةً حتى يفكرَ أحدٌ فى التسلل إليها راغبا فيها ، حتى تحتاج إلى حارس يحميها ، أو حاجبٍ يمنع من دخولها .

ومادلت عليه الآية من الاستهزاء والسخرية هو ما فهمه الجاحظ منها .

حيث قال[١] :

« الخزنة : الحفظة ، وجهنم لا يَضيع منها شيء فيُحفظ ، ولا يَختارُ دخولها إنسانٌ فيُمتنعُ منها ، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظِ الخازن سميت به » .

ومما يدل على أن لفظَ [خزنة] يشير إلى الاستهزاء ، ويوحى بالسخرية من هؤلاء القوم ، هو أن سياق الآية كلها يبدو فيه التوبيخُ والتهكُّم ، فنجد الملائكة يقولون لأهل النار استخفافا بهم : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُم رسُلكم بالبَيِّنَاتِ ؟ ، قَالُوا : بَلَى ، قالُوا : فَادْعُوا ﴾ ، فالملائكة تسخرُ من أهل جهنم بقولهم لهم : [فادعوا] ، وهم يعلمون أن دعاءهم غيرُ مقبول ، ثم إن كلامَهم ذُيل بقول الله تعالى : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

* * *

---

(١) البيان والتبيين جـ ١٥٣/١ .

[أرْكسَهُم ، ورَدَّهُم] :

ويعاتب الله تعالى المسلمين على اختلافهم فى شأن طائفة من المنافقين كانوا يُظهرون أولا إسلامَهم ، ثم لَحِقوا بالمشركين حينما وجدوا الفرصة ، فيقول تعالى فى ذلك : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ [النساء ٨٨] .

فالقرآن ينكر على المسلمين أن يختلفوا فى أمر قوم ردهم الله إلى الكفر ، فلا ينبغى أن يحزنوا على فراقِ هذه الفئات الضالة .

فالمراد من لفظة [أركسهم] [ردهم] ، ولو جاء التعبير القرآنى : [فما لكم فى المنافقين فئتين والله ردهم بما كسبوا] بدلا من [أركسهم بما كسبوا] لكانَ المعنى صحيحا .

لكنَّ القرآن الكريم اختار كلمة [أركسهم] دون [ردهم] ، لأن [الإركاس] يوحى بمعانٍ ، ويُشير إلى إيحاءات ، تفتقدها كلمةُ [رَدَّهم] .

فاستعمالات هذه المادةِ فى اللغة(١) تدور حول أمور :

« تقول : أركسه وركَسَه : قلبه على رأسه ، وشدَّ دابته إلى [الرِّكاسة] وهى [الآخيَّة] ، وهذا ركس رجس ، وبناء ركسٌ : « رُمَّ بعد انهدام » .

---

(١) انظر المنجد فى اللغة والأدب ، أساس البلاغة ، القاموس المحيط [مادة ركس] ، معانى لقرآن جـ ٢٨١/١ .

فحينما يسمع السامع كلمة [أركسهم] تتوارد على ذهنه هذه المعانى كلُّها ، ومنها : قلْب الشىء على رأسه ، وشدُّ الدابةِ إلى ما تُربط إليه ، والشىءُ الرِّجسُ ، وصورةُ البناءِ المتهدم الذى لا يمُسكه إلا الترميم — وحينئذٍ يتصورهم السامِعُ فى كل هذه الصور ، أو فى صورة منها مناسبةٍ للسياق .

فالآية بهذا التعبير [أركسهم] تُبرز هؤلاء المنافقين فى صورة مهينةٍ ساخرةٍ،ولا يَنهض بهذا الوصف الكلمة المرادفة [رَدَّهم] .

* * *

[تُصَعِّر ، وتُعرض]

ويحكى القرآن الكريم وصية لقمان لابنه ، فيقول : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [لقمان ١٨]

والمراد من [تصعير الخد] التعالى وإعراضُ الوجه عن الناس ، ولو كان التعبير : [لا تتعالى عن الناس ، أو لا تعرضْ بوجهك عنهم] بدلا من [ولا تصعر خدك] لكان المعنى صحيحا .

لكن القرآن الكريم آثر كلمةَ [تُصَعِّر] دون [تتعالى أو تُعْرضْ بوجهك] ، لأن لفظة [التصعير] فى الآية توحى بمعانٍ ودلالاتٍ لا توجد فى كلمة [تُعْرِض أو تتعالى] . فـ [التصعير] فى اللغة[1] : « مَيْلٌ فى الوجه أو فى أحد الشِّقين ، أو داء فى البعير يَلوِى عنقه ، وصعر

(١) القاموس المحيط مادة [صعر] .

خده : أماله عن النظر إلى الناس تهاونا من كبر ، وربما يكون من خِلْقَةٍ ،
والصيعرية : سمة فى عنق البعير» .

فـ [الصعر] إذن يوحى بأكثر من صورة ، ويُرادُ به أزيدُ من دِلالة ، وتدور كلُّها حول التشوُّهِ الخِلْقِيِّ فى الوجه ، أو داءٍ فى الجسم ، ويغلبُ أن يكون فى الإبل .

فحينما تقع على أذن السامع كلمة [تصُعِّر] يتوارد على ذهنه كلُّ هذه الدلالات ، أو بعضُ صورٍ منها يتناسب مع المقام ، ومن هذه الصور تشبيهُ صورةِ المتعالى المتكبر عن الناس بصورة جملٍ مريضٍ أصابه داءُ الصَّعَر ، وهو المرض الخاص بالإبل يُصيب الواحدَ منها فيَلْوى عنقَهُ ، فيمشى معوجَّ العُنُق ، رافعَ الرأس ، متجها بوجههِ وأنفِهِ إلى أعلى ، وفى هذا تصويرٌ للمتكبر المتعالى عن الناس تصويرا يوحى بالسخرية والاستهزاء من الذين يتعالون على الناس بِلَيِّ أعناقهم ، وشموخِ أنوفهم ، والإعراضِ بأشداقهم ، فَحَوَّلَتْ سخريةُ القرآن مظهرهم هذا من دليلٍ على التعاظم والتعالى إلى مرض معروف لديهم – وهو صَعَرُ الإبل .

والتعبير القرآنى أفاد زيادة على هذا خبرتهم القوية فى أمراض الإبل ، إذْ تُعَدُّ من خصائصهم بحكم البيئة ، فهم يعتمدون عليها فى شئون حياتهم فى السفر والتنقل وحمل المتاع ، وهم بحكم هذا التعود يعرفون حياتها ولوازِمها وخصائصها ، كما يعرفون أمراضها وطبيعَة كلِّ مرض وطريقة علاجه .

* * *

[نُزُل ، وعَذاب] :

فالله تعالى يخاطب الكفار فى مشهدٍ من مشاهد القيامة ، فيقول لهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة ٥١ - ٥٦] .

فالمراد من [النُّزل] فى الآية [العذاب] ، ولو جاء التعبير فيها : [هذا عذابهم يومَ الدين] ، بدلا من [هَذا نُزُلُهم يَوْمَ الدِّين] لكان المعنى صحيحا .

لكنَّ القرآن الكريم اختار لفظ [نُزُل] دون لفظ [عذاب] ، لأن فى لفظ [نُزُل] من السخرية بهؤلاء القوم الكافرين الذين أنكروا الرسالة فى الدنيا ، ومن الاستهزاء بهم ما ليس فى كلمة [عذاب] .

فـ [النُّزُل] فى لغة العرب[1] وعرفِهم : ما يُعَدُّ لإكرام الضيف النازل ، وما يُهَيَّأُ له من تقديرٍ واحترام ، يقول تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف ١٠٧ : ١٠٨]

فهل يُعِدُّ اللهُ تعالى للكافرين يوم القيامة حُسْنَ الضيافة وعظيمَ التكريم ؟ هذا ما تُنكره النفس ، ولا يُقِرّه العقل ، إلا أن التعبير القرآنى يجعلُ العذابَ الأليم الذى يقاسيه هؤلاء الكفارُ فى الآخرة فى المأكل

---

(١) القاموس المحيط مادة [نزل] .

والمشرب ، يجعلهُ [نزلا] ويسميه تكريما وضيافة سخريةً موجعة لهم ، واستهزاءً مؤلما بهم .

فالهدف من لفظ [نُزُل] هو الانتقال من صورة جهنَّم الحارِقة المتوهجة،وما فيها من مأكل الزقوم وشراب الحميم،إلى صورة أخرى فيها السعادةُ والاطمئنان،فيها الضيافةُ والتكريم سخريةٌ من الكافرين وتهكمٌ بهم ، لتستريح النفس المؤمنة وتطمئنَّ إلى أنها راجعةٌ إلى ربها راضية مرضية .

ثم إن لفظ [هذا] فى الآية [هذا نزلهم يومَ الدين] وما يتضمنه من إشارة إلى شيء يرونه بأعينهم ، وتتلظى به أجسامُهم ونفوسُهم فى حين أنهم كانوا يُكَذِّبون به من قبل ، وهذا مما يزيد التصويرَ وضوحا ، وقربا من النفس ، وكأنه شيء مشاهدٌ أمام العين يشار إليه .

وقد أدرك هذا المعنى الجاحظ فى تلك الآية الكريمة ، حيث قال(١) « و[العذاب] لا يكون [نزلا] ، لكنْ لما قام العذابُ لهم فى موضع النعيم لغيرهم سُمِّى باسمه » .

* * *

[مِهَاد ، وعَذاب]

ويخبرنا اللهُ تعالى بالعذاب الشديد الذى يلحقُ المكذِّبين فى الآخرة ، فيقول ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾

(١) البيان والتبيين جـ ١٥٣/١ .

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

[الأعراف ٤٠ ، ٤١] .

فالمراد من [المهاد] فى الآية [العذاب] ، ولو جاء التعبير القرآنى : [لهم من جهنم عذاب] ، بدلا من [لَهُم مِنْ جَهَنَّم مِهَاد] لكان المعنى صحيحا .

لكنَّ التعبير القرآنى آثر كلمة [مهاد] دون كلمة [عذاب] ، لأن فى لفظ [مهاد] من السخرية بالقوم ، والاستهزاءِ بالمكذبين ما لا نجُده فى كلمةِ [عذاب] .

فـ [المهاد] فى لغة العرب يطلق على الفراش ، أو الأرضِ المنخفضةِ التى يسهل المَشى عليها ، واشتقاقاتُ المادة كلُّها تدور حول التمهيد والتليين والتوطئة والتيسير ، فـ [مَهَد الفراشَ : بَسَطه ووطَّأه ، ومهَّد الفراش - بالتشديد فى الهاء - بَسَطه ، ومهّدَ الأمرَ سوّاه وسهّله وأصلحه ، والمَهْدُ : الموضعُ الذى يُهيَّأ ويوطَّأ للصبى ، والمِهاد : الفراشُ ، والأرضُ المنخفضة][1] .

وأقرب ما يُتبادر إلى الذهن من لفظة [المهاد] الفراشُ اللين . فهل يُعِدُّ اللهُ سبحانه لهؤلاء المكذبين هذا الفِراشَ الوثير الذى يَبْعثُ فى النفس الراحة ، ويُشعُرها بالاستقرار والسعادة ؟

هذا ما تأباه النفس ، ولا تقره العقول ، لكنّ التعبيرَ القرآنى يجعلُ العذابَ الأليم الذى يقاسيه الكفارُ فى جهنم ، والنار الشديدة التى تتلظى

---

(١) المنجد فى اللغة والأدب والعلوم مادة [مهد] .

وتتوهج ، وتملأُ النفسَ ألما ، والجسمَ شَقاء وسُقْما ، يجعل القرآنُ ذلك مهادا وثيرا،وفِراشا لينا على طريقة التهكم بهم ، والاستهزاءِ من أحوالهم .

فالهدف من التعبير بلفظ [المهاد] هو الانتقال من صورة جهنم الحارقَة المتوهجة إلى الصورة المألوفة عندما نحسُّ بَرْدَ الراحة حينما نستلقِى على الفراش الوثير والمهادِ اللين ، وفى هذا سخريةٌ من الكافرين وتهكمٌ بهم ، وبالتالى فى هذه الصورة راحةٌ لنفس المؤمن الصادق واطمئنانٌ إلى وعَدْ الله لهم :

﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف ٤٣] .

* * *

[الصِّيَاصِى ، والحُصُون]

فالقرآن الكريمُ يتحدث عن الحصون التى تَحَصَّنَ بها بعض أعداء الإسلام ليحتموا بها من المسلمين – وهم يظنون أن حصونَهم ما نعتُهم من الله ، لكن القرآن الكريم يبين لهم أن هذه الحصون لن تحَميهم من قضاء الله الذى نزل بهم على يد المسلمين ، وأنها كانت من الضعف لدرجة أن العقاب نزل بهم ، ولم تقدر هذه الحصونُ على حمايتهم .

يقول تعالى فى غزوة الأحزاب التى كانت بين المسلمين من جهة ، والكفارِ ومَنْ نَصروهم من اليهود من جهة أخرى :﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾

[الأحزاب ٢٥] .

فهذه الآية فى شأن الكفار الذين رَدَّهم الله على أعقابهم ، وكفى الله المسلمين قتالَهم . ثم يَتبع هذه الآية بقوله : ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب ٢٦] .

فهذه الآية فى شأن يهود بنى قريظة الذين ظاهروا الأحزاب من المشركين ، وناصروهم على المسلمين فلما فشِل الأحزاب فى غزوتهم ، ورجعوا إلى بلادهم ، تحصن بنو قريظة فى حصونهم بالمدينة ، متَحدِّين المسلمينَ بقوةِ هذه الحصون ، ولكن الله تعالى بيَّن لهم أن هذه الحصونَ المنيعة فى نظرهم واهنةٌ ضعيفةٌ لا تحميهم من قوة الله ، ولا تقيهم من عذابه .

فالمراد من [الصياصى] هو [الحصون] ، ولو جاء التعبير القرآنى [والذين ظاهروهم من أهل الكتاب من حصونهم] . لكان المعنى صحيحا .

لكنَّ القرآن الكريم اختار كلمة [صَياصى] دون [حصون] لأن كلمة [صياصى] توحى بمعان وتشيرُ إلى إيحاءات تُهَوِّن من شأن هذه الحصون المنيعة ، وهذه المعانِى تفتقدها كلمةُ [حصون] .

فـ [الصيصة] فى لغة العرب[1] ، تستعمل فى عدة معان : فَقَرْنُ البقر والظباء ، يقال له : [صيصة] ، والشَّوْكُ الناتىءُ حول أرجل الدِّيكة كأنه القرونُ الصغار يقال لكل منها : [صيصة] ، وشَوكُ

---

(١) انظر القاموس المحيط ، معجم متن اللغة المجلد الثالث مادة [صيص] .

النساجين يقال له : [صيصة] ، ويقال : جَذَّ الله صيصته : أى أصلَه .

فلو جاء التعبير بـ [الحصون] لا نحصر ذهنُ السامع فى الحصون الحربية المعروفة ذاتِ الأشكال والأوصاف المعيَّنة ، ولكنه حين يَسمع كلمةَ [صياصيهم] تتواردُ على ذهنه كلُّ هذه الاستعمالات التى يعرفها العرب لِـ [الصياصى] ، فهى إما أرجلُ دِيَكةٍ ونتوءٌ فيها ، أو شوكٌ للنساجين ، أو قرونٌ للحيوان ، وغيرُ ذلك مما يُضَيِّع معه أى تصور لقوة هذه الحصونِ ومناعتها .

وهذا هو المقصود من كلمة [صياصيهم] حيث إن المرادَ التهوينُ من شأنهم ومن شأن حصونهم التى ظنوها ما نعتهم من الله ، فكانت كلمةُ [الصياصى] أعونَ على السخرية بهم والاستهزاء بحصونهم من مرادفها .

* * *

وهكذا نرى أن الكلمة الواحدة فى التعبير القرآنى ، وفى الجملة منه ، تبدو فى نظر القارىء ، أو السامع ، كأنها كلمةٌ ذاتُ مدلولٍ واحد ، ولكنها ما إن تخرجُ من الفم ، وتأخذُ طريقها إلى السمع حتى تَتَفجَّر عن هذه الكلمة الواحدة إيحاءاتٌ عديدة ، وإشاراتٌ متلاحقة ، ومعانٍ شتى ، وكأن هذه الكلمة الواحدة شَحْنَةٌ متفجِّرةٌ ، تبدو فى العين جِرْماً واحداً ، ولكنها عندما تجرى على اللسان ، وتقعُ على السمع ، تتفجَّر منها أشتاتٌ من المعانى السامية ، وأنواعٌ من الإشارات اللطيفة ، مما يجعلُ السامع يلتقط منها ما يناسبُ المقام ، ويتلاءمُ مع الأفهام .

فالكلمة التى نزل بها القرآن فى جملتها القرآنية ، وفى تعبيرها الربانى ، مستقرةٌ فى مواضعها ، ولا يمكن أن يحُلَّ غُيرها محلَّها ، أو يُستغنى عنها بمرادفها .

ولو أننا تناولنا أىَّ قطعةٍ أدبية - أيًّا كان كاتبُها - وعُرضت كلماتها للتبديل ، وألفاظُها للتغيير والتحسين ، فإنك واجدٌ إلى ذلك سبيلا ، إذْ كلٌّ قطعة أدبية بلاغية مهما كانت فى غاية الجودة ، قابلة للبحث ، خاضعةٌ للنقد .

أما ألفاظُ القرآن الكريم ، فليس من شأنها ذلك ، إذ هى من وضع الحكيم الخبير الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ففى كلماته نرى الدقةَ الواضحةَ فى التعبير القرآنى ، والتحديدَ الكامَل لمعنى اللفظ ، والإتيانَ به فى خاص معناه ، ولو كان أحد اللفظين فى مكان الآخر ، لأوقع السامعُ صاحبُ الفطرة السليمة ، والطبع الصحيح ، والذوَق اللغوىّ فى حيرة وارتباك ، وأدخل عليه اللبْس والخلط ، وصدق الله العظيم ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة ١٣٨] .

* * *

اختيار اللفظ المفرد دون جمعه

أو الجمع دون مفرده

كلما أمعنا الفكر فى أسرار الألفاظ عند استعمالها فى أساليب القرآن الكريم ، ودققنا النظر فيها حينما ترد فى آيات الذكر الحكيم ، واستوفينا الكشف عنها فى التعبير القرآنى ، وجدنا أسرارا عظيمة ، ولطائف عجيبة ، ورأينا أنه يُذْكَر فى كل موضع ما يلائمُه منها ، ويُوضَعُ كلُّ لفظ فى محله الذى يليق به ، فنشاهد فى تعبيرات القرآن الكريم أنه تارة يستعمل المفردَ دون جمعه ، وتارةً أخرى يستعمل الجمع دون مفرده ، ولو حاولنا التغيير والتبديل ، أو إحلالَ أحدِهما محلَّ الآخر ، فسد التعبير ، وذهبت حلاوته ، وفاتته طُلاوته .

[السماء والأرض ، والسماوات والأرض][1] :

فمثلا لفظُ [السماء والأرض] نلاحظ أنه حيث ورد فى القرآن ذِكْرُ [الأرض] فإننا نجدُها مفردةً دائما ، فيقال : [أرضٌ] ، ولم تأت جمعا ، فلم يأت فى القرآن [أرضُون] مطلقا ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق ١٢] . وهذا بخلاف [السماء] ، فقد ذُكرت فى القرآن تارة بصيغة الجمع ، وأخرى بصيغة الإفراد .

---

(١) انظر فى هذا بدائع الفوائد جـ ١/١١٤ - ١١٧ ، المعترك جـ ٣/٥٩٥ ، البرهان جـ ٤/٩٠٦ ، الطراز جـ ٣/٤٥ ، الإتقان جـ ١/١٩٤ .-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٦٤ .

فلماذا جُمع فى القرانُ الكريم لفظ [السماء] على [السموات] ، ولم يُجْمع مقابِلُها لفظ [الأرض] على [أرَضين] ؟

السبب يكمن فى طريقة اختيار الكلمةِ المناسبة للمقام ، والأليقِ فى التعبير ، والأخفِّ على اللسان ، والأوقع فى السمع ، وازن بين كلمةِ [السموات] وكلمةِ [أرضَون] فأيهما أخف على اللسان ، وأوقعُ فى السمع ؟

ولهذا قال العلماء إن هناك فارقا لفظيا ، وفارقا معنويا .

فأما الفارق اللفظى : فإنَه لو جُمع [أرضٌ] على قياس جموعِ التكسير ، لقالوا : [آرُض] ، على قياس [فَلْسٌ وأَفْلُس] ، أو [آراض] على قياس [جَمَل وأجمال] ، أو [أُروض] على قياس [فَلْسٌ وفُلوس] ، فاستثقلوا هذه الجموعَ كلَّها ، إذ ليس فيها من الفصاحة . والحسن والعذوبة ما فى لفظ [السموات] .

ولهذا الثقل المشاهد فى جمع [أرْض] ، تفادى القرآنُ جمعه – إذا أراده – بثلاثة ألفاظ تدل على العدد ، قال تعالى : ﴿ اللهُ الذى خلَق سبْع سموات ٍ ومِنَ الأرِض مِثْلَهُنّ ﴾ ، كل هذا تفاديا من أن يقال : [آرُض أو آراض أو أُروض] .

وأما المعنوى : فالأرض هى دار الدنيا التى هى بالإضافة إلى الآخرة شى قليل ، كما يُدْخلِ الإنسانُ أُصبعَه فى اليم ، والله سبحانه لم يَذْكر الدنيا إلا مقلِّلا لها ومحقِّرا لشأنها ، ولذلك لم تجمع [أرض] ، إذ الجمع فيه معنى التعظيم .

وأما [السموات] فهى مقرُّ الملائكة ، ومَحَلّ دارِ جزائه ، ومَهبطُ ملائكته ووحيه .

ولكن متى يُفْرَدُ لفظ [السماء]ومتى [يُجمع] فى أساليب القرآن ؟

من يتتبع أساليب القرآن الكريم والتعبيرات فيه يَجدُ أنه إذا أُريد الوصفُ المطلقُ للسموات بالعلو والارتفاع ، أو قُصد منه الجهةُ أُفرِد لفظ [السماء] بحسَب ما يتصل به من الكلام السابق .

وإذا كان المقصودُ ذواتِ السموات بأعدادها الكثيرة أُتى بصيغة الجمع ، إذ المقصودُ ذواتُها ، لا مجردَ العلوِّ والفَوْق .

تأمل قوله تعالى للمشركين : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ [الملك ١٦ ، ١٧] - فأُفرد لفظُ [السماء] هنا لما كان المرادُ الوصفَ الشاملَ والفوقَ المطلق ، وليس المرادُ سماءً معينةً مخصوصة .

ومثله قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات ٢٣] ، فلما كان المرادُ مطلق هذيْن الجِنْسَيْن ، أى ربُّ كلِّ ما علا ،وكلِّ ما سَفُل .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات ٢٢] ، ف [الرزق] هو [المطر] ، وما وُعدنا به هو [الجنة] وكلاهما فى جهة السماء ، لا أنهما فى كل واحدة من السموات ، لذلك كان لفظُ الإفراد أليق بها ،ولم يجىء فى سياق الإخبار بنزول الماء منها إلا مفردة ، لأن المراد جهة نزول المطر .

وجاءت [السماءُ] مجموعةً فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [الأنعام ٣] ، فقد أتت [السمواتُ] مجموعة لحكمة ظاهرة – وهو تعلّق الظرفِ – وهو السموات – بما فى اسم الله تعالى من معنى الألوهية ، فالمعنى : هو الإله المعبـــود فى كل واحدة من السموات ، فذِكْرُ الجمع هنا أحسنُ وأبلغُ من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد .

كذلك جاءت مجموعة فى قوله تعالى فى فاتحة سُوَرِ [الحديدِ والحشرِ والصف والجمعةِ والتغابن] ﴿ سَبَّح لِلَّه مَا فى السموات والأرض ﴾ ﴿ سبَّح لِلَّه ما فى السموات ومَا فى الأرض ﴾ ، ﴿ يُسَبِّحُ لِلّه ما فى السموات ومَا فى الأرض ﴾ ، ففى جميع هذه السور لما كان المرادُ الإخبارَ عن تسبيح سكانها على كثرتهم ، وتباين مراتبهم لم يكن بدٌّ من جمع مَحَلِّهم .

كذلك جاءت [السمواتُ] مجموعةً فى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل ٦٥] . فلما كان المرادُ نفى علم الغيب عن كلِّ من هو فى كلِّ واحدةٍ من الســـموات أتى بهـا مجموعة .

والحاصل : أنه حيثُ أُريد العدد ، جاء التعبير بصيغة الجمعِ الدالِّ على سَعَة العظمة ، وحيثُ أريد الجهة كان التعبير بصيغة الإفراد .

ويلاحظ القارىء اختلاف التعبير فى هاتين الآيتين حيث جاءت آيةٌ بإفراد [السماء] ، وآيةٌ أخرى بجمعها ، فيقول تعالى فى سورة يونُس :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾

[يونس ٣١] . ويقول فى سورة سبأ :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ [سبأ ٢٤] .

فما السر فى اختلافِ التعبير فى الآيتين ؟

السياق فى كل آيةٍ يُرشد إلى الاختلاف والفرق بين الآيتين ، فالآيةُ التى فى سورة [يونس] سِيقت للاحتجاج على الكفار بما أقروا به من كونه تعالى هو رازقهم ومالكُ أسماعِهم وأبصارِهم ، ومُدبِّر أمورِهم ، ومُخْرِجُ الحيِّ من الميت ، والميتِ من الحى ، فلما كانوا مقرين بهذا كلِّه حَسُنَ الاحتجاجُ به عليهم ، ولذلك قال بعد ذكر ذلك : ﴿ فسيقولون الله ﴾ ، أى مقرون به ولا يجحدونه .

والمخاطَبون المحتَجُّ عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقِّرين بنزول الرزق من قِبَل هذه السماء التى يشاهدونها ، ولم يكونوا مقرين ولا عالِمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى ينتهى إليهم ، فجاءت الآية بما يقرون به وما يشاهدونه ، ولذلك أفردتْ [السماءُ] هنا .

أما آيةُ [سبأ] فإنهم لم يُقروا بما يُنَزِّل من السماء ، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب ، ولم يَذكر عنهم أنهم هم المجيبون المقرون ، فقال : ﴿ قلْ مَنْ يَرْزُقكم من السَّموات والأرض قل اللّه ﴾ ولم يقل : « فسيقولون الله » - كما فى آية يونس - فأمر الله تعالى نبيه أن يجيبَ بأن

ذلك هو الله الذى يُنزِّل رزقَه على اختلافِ أنواعه من السموات السبع .
ولهذا جاءت [السمواتُ] مجموعةً هنا ، دون هناك .

* * *

[المشرق والمغرب ، والمشرقين والمغربين ، والمشارق والمغارب][1] :

فمثلا – يجىء لفظُ [المشرق والمغربِ] فى القرآن الكريم تارة مفردين ، وتارة مثنيين ، وثالثة مجموعين .

فالمفردين ، كقوله تعالى : ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل ٩] .

والمثنيين ، كقوله تعالى : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن ١٧] .

والمجموعين ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [المعارج ٤٠ ، ٤١] .

فما المرادُ بكل منها فى التعبير القرآنى ، وما المعنى المقصودُ من ذلك ؟

إذا أفرد [المشرقُ والمغرب] كان المرادُ هذه الجهَة ، وهذا هو المراد من الآية : ﴿ ربُّ المشرق والمغرب ﴾ ، أى رب هذه الجهة ، وتلك الجهة .

وحيث ثُنِّيا : كان المرادُ مشرِقَ صعودِها وارتفاعها – وهو فصل الصيف ، ومشرقَ هبوطها – وهو فصل الشتاء – فجعلَ مشرق صعودِها

---

(١) انظر فى هذا البرهان جـ ١٥/٤ ، بدائع الفوائد جـ ١٢١/١ ، المعترك جـ ٥٩٨/٣ ، الإتقان جـ ١٩٤/١ ، البيان فى أقسام القرآن ١٢١ . معجزة القرآن ٣٥ .

بجملته مشرقا واحدا ، ومشرقَ هبوطِها بجملته مشرقا واحدا ، ويُقابلُهما [مغرباها] ، فهذا سبب اختلاف هذه فى الإفراد والتثنية . وحيث جمعا : كان المرادُ بهما مشارقَ الشمس ومغاربَها فى أيام السنة كلها ، وهى متعددة ، فالشمسُ تُرى من الأرض تَشْرُق كلَّ يوم من مشرقٍ غيرَ الذى أشرقَتْ منه بالأمس ، وكذلك الغروب .

فالأرضُ فى دَوَرانها حول الشمس تتوالى عليها المشارقُ والمغارب ، فكلما جاء قطاعٌ منها أمام الشمس كان هناك مشرقٌ على هذا القطاع ، وكان هناك مغرب على القطاع المقابل وإذا تحركت الأرض كان هناك مشرقٌ آخر على القطاع التالى ، ومغربٌ آخر على القطاع المقابل له ، وهكذا .

ولكن ما وجه اختصاصِ كلِّ موضعٍ من [الإفراد والتثنية والجمع] بما وقع فيه فى أساليب القرآن ؟ .

فقد أُفرد فى سورة المزمل لفظُ [المشرق والمغرب] لأنه لما تقدم ذِكْرُ [الليلِ] ، وما أمر الرسول به فيه فى قوله [قم الليل] وذِكْرُ [النهارِ] وما يكون من الرسول فيه ، فى قوله : ﴿ إنّ لَكَ فى النهارِ سَبْحاً طَويلاً ﴾ ، عقّب ذلك بذكر [المشرق والمغرب] اللذين هما مظهرُ الليل والنهار، فكان ورُودهما مفردين فى هذا السياق أفضلَ من التثنية والجمع ، لأن النهارَ أبدا يظهر من المشرق ، والليلَ أبدا يظهر من المغرب .

وما ورد مثنًّى فى سورة الرحمن ، فلأن سياقَ السورةِ سياقُ

المزْدَوَجَيْن ، فقد ذكر - سبحانه - أولا نوعَى الإيجاد وهما [الخلقُ والتعليم] ، فقال : [خَلَق الإنسانَ ، علَّمه البيان] .

ثم ذكَر سِرَاجَى العالَم ، ومظهَر نورِه ، وهما [الشمسُ والقمر] ، فقال : [الشَّمسُ والقمرُ بحُسْبَان] . ثم ذكر نوعى النباتِ ، فإن منه ما هو على ساق ، ومنه ما انبسط على وجه الأرض ، وهما : [النّجُم والشجر] ، فقال : [والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدان] .

ثم ذكر السماءَ والأرضَ ، فقال [والسَّماءَ رَفَعَها . . . والأرضَ وَضَعَها] ، فأخبر أنه رفع هذه ، ووضع هذه ، وَوسَّط بينهما ذكرُ الميزان .

ثم ذكَر العَدْلَ والظلم فى الميزان ، فأمر بالعدل ، ونهى عن الظلم ، فقال : [وأَقيمُوا الوزْنَ بالقِسْط ، ولا تُخْسروا الميزَان] .

ثم ذكر نوعَى الخارجِ من الأرض ، وهما : [الحبوبُ والثمار] ، فقال : [فيها فَاكِهَةٌ والنَّخْلُ ذاتُ الأكْمام ، والحَبُّ ذُو العَصْفِ والرَّيْحَان] .

ثم ذكر نَوْعَى المكلَّفِين ، وهما : [نوعُ الإنسان ، ونوعُ الجان] ، فقال : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ من صَلْصَالٍ كالفَخَّار ، وخَلَق الجَانَّ مِنْ مَارجٍ مِنْ نَارٍ ﴾

ثم ذكر نوعَى المشرقَيْن والمغربين ، فقال : ﴿ ربُّ المَشْرِقَيْن وربُّ المَغْرِبَيْن ﴾

ثم ذكر بعد ذلك نوعَى البحرِ [المِلْحَ والعذبَ] ، فقال :
﴿ مَرَجَ البَحْرَين يَلْتَقِيَان ﴾

ثم ذكر الجنةَ والنارَ ، فقال : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التى يُكَذِّبُ بها المُجرِمون . . . . ولمن خافَ مَقَامَ ربِّه جَنَّتَان]

ثم جعل الجنتين ، جنَّتين عاليتين وجنتَين دونهما ، فقال : ﴿ ذَوَاتا أفْنَان . . . مُدْهَامَّتان] .

وأخبر أن فى كل جنة عينَيْن ، فقال : [فيهما عَيْنَان تَجْرِيَان . . . فيهما عَيْنَانِ نَضَّاخَتَان] .

لذلك ناسب ذكرُ [المشرقين والمغربين] على هيئة التثنية ، حتى يتم التناسقُ ويكتملَ التجانسُ بين الآيات .

ولنتأمل حُسْنَ تثنيةِ المشرِق والمغرب فى هذه السورة ، قدِّر موضِعَهُما فى الآية ، مفردا ، أو مجموعا ، تجد السمعَ ينبو عنه ، ويشهدُ العقل بمنافرته للنظم ، ومخالفتِه للسياق .

وجُمِع [المشرق والمغربُ] فى سورة المعارج فى قوله تعالى :
﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارق والمغَارِبِ إنَّا لَقَادِرُون على أنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا منهم ومَا نَحنُ بمسْبُوقين ﴾

لأنه لما كان هذا القَسَم فى سياق سَعة ربوبيته ، وإحاطة قدرته ، والمقسم عليه : إذهابُ هؤلاء المشركين والإتيانُ بخير منهم ، ذَكر المشارقِ والمغارب ، لتضمنها انتقالَ الشمس التى هى أحدُ آياته العظيمة ، ونقْلَهُ - سبحانه - لها ، وتصريفَها كلَّ يوم فى مشرقٍ

ومغرب ، فمن فعل هذا كيف يَعجِزه أن يُبَدِّل هؤلاء ، ويَنْقُلَ إلى أمكنتهم خيرا منهم .

فالله تعالى يُقسم بعموم قدرته وكمالها وصحة تعلقها بإعادته بعد العدم ، وقد ذُكر المشارقَ والمغارب بلفظ الجمع ، إذ هو أدلُّ على المقسَم عليه ، سواء أريد مشارقُ النجومِ ومغاربُها ، أو مشارقُ الشمس ومغاربُها ، أو كلُّ جزء من جهتى المشرق والمغرب ، فكلُّ ذلك آيةٌ ودلالة على قدرته تعالى على أن يُبدِّل أمثالَ هؤلاء المكذبين ، فيأتى بهم فى نشأة أخرى ، ولن يعجزه ذلك ، كما لم يُعْجِزْه أن يأتى بالشمس كلّ يومٍ من مطلع ، ويذهبَ بها فى مغرِب .

وأيضا فإن تأثير مشارِق الشمس ومغاربِها فى اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور ، وقد جعل اللهُ بحكمته المشارقَ والمغاربَ سبباً لِتبدُّلِ أجسامِ النبات ، وأحوالِ الحيوان ، وانتقالِها من حال إلى حال ، واختلافِ الجو من بَرد إلى حَرّ ، ومن صيفٍ إلى شتاء ، وإلى تبديل الرياح والأمطار والثلوج ، وغير ذلك ، مما سببه اختلافُ مشارقِ الأرِض ومغاربها .

فكيف لا يقدر – مع ما يشهدونه من ذلك – على تبديل مَنْ هو خيرٌ منهم ، وأكد هذا المعنى بقوله : ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ ، ولهذا كان جَمْعُ [المشارق والمغارب] مناسبا لهذا الحال .

وفى القَسَم بـ [المشارق والمغارب] تعظيمٌ لله سبحانه ، إذ أن كلَّ بلد له مشرِقٌ ومغربٌ ، فمثلا – الشمسُ تشرُق هنا الآن ، وبعد دقائق تشرُق فى بلد ثان ، وبعد دقائق تشرق فى بلد ثالث ، وهكذا – وهى

كذلك تغرب هنا الآن ، وبعد دقائق تغرب فى بلد ثان ، وبعد دقائق تغرب فى بلد ثالث ، وهكذا .

فالشمس لها مشارقُ ومغارب .

وعلى هذا فالصلاة مستمرةٌ فى الأرض ليلا ونهارا ، فتوقيت الظهر – مثلا – هنا الآن ، وبعد دقائق فى بلد ثان ، وبعد دقائق فى بلد ثالث ، وهكذا .

ونصف الأرض نائم ، والنصف الآخر يُسبِّح الله تعالى .

وبعض الناس الآن يصلون الظهر ، وفى اللحظة نفسها بعضها يصلى العصر ، وفى اللحظة نفسها بعضهم يصلى المغرب ، وهكذا لا ينقطع عن العالم أجمع دقيقةٌ واحدة ليس ذكر الله تعالى فيها .

أما جَمْعُ [المشارقِ] فى قوله تعالى : ﴿ ربُّ السَّموات والأَرضِ وما بَيْنَهما ورَبُّ المَشَارق ﴾ الصافات ٥] فلما جاءت [المشارقُ] من جملة المربوبات وهى [السمواتُ والأرضُ وما بينهما] ، كان الأحسنُ مجيئهَا مجموعة ، لتنتظم مع ما تقدم من الجمع والتعدد .

وفى هذه الآية اقتصر التعبير على ذكر [المشارق] دون [المغارب] لاقتضاء الحال ذلك ، حيث إن [المشارق] مظهرُ الأنوار ، وأسبابٌ لانتشار الحيوان وحياته ، وتصرفِه فى معاشِه وانبساطه ، فهو إنشاءٌ مشهود ، وحياةٌ معاينَة ، قدَّم ذلك بين يَدَى الرَّدِّ على منكرى البعث ، فكان الاقتصار على ذكر [المشارق] هنا فى غاية المناسبة للغرض المطلوب .

وقد يكون فى ذكر [المشارق] دلالةٌ على [المغارب] ، إذ أن المتضايفين كل منهما يستلزمُ الآخر .

وقد يكون فى ذكر [المشارقِ] توطئةٌ لما يذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب ، وجعلِها حفظا من كل شيطان مارد ، فذِكرُ [المشارِق] – بالجمع – لهذا المعنى أليق .

* * *

[آية وآيات] (١)

فمثلا – يقول تَعالى فى قصة قوم لوطٍ عليه السلام :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر ٧٣ – ٧٧]

فلأى معنى جُمع لفظُ [الآية] فى هذه القصة ، فقال : [إنَّ فى ذلك لآياتٍ للمتوسمين] ، ثم وحَّدها فى القصةِ نفسِها ، فقال بعد ذلك : [إنَّ فى ذلك لآيةً للمؤمنين] ؟ .

ولو وحِّدتْ فى الموضعين إفرادا أو جمعا ، فقيل : [لآيةً أو لآياتٍ] ، فهل فى هذا من مانع ؟ .

التعبير القرآنيُّ فى قوله تعالى : ﴿ إنَّ فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ جاء على هذا الوضع فى جَمْع [آيات] إشارةً إلى ما قصَّ الله تعالى من

(١) انظر درة التنزيل ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ . البرهان جـ ٤/١٤ .

حديث لوط ، وضيف إبراهيم ، وتعَرضِ قومِ لوطٍ لهم طمعا فيهم ، وما كان من أمرهم آخِراً من إهلاك الكفار ، وقلبِ المدينةِ على من فيها ، وإمطارِ الحجارةِ على من غاب عنها ، وهذه أشياءُ كثيرة كلٌّ منها آية ، وفى جميعها آياتٌ لمن يتوسم – أىْ لمن يتدبر السِّمة ، وهى ما وَسَم الله تعالى به العاصين من عباده ، ليستدِلوا بها على مَنْ بَعُد من عباد الله عن عبادته فيتجنب ذلك ، فكان ذكرُ [الآيات] هنا أولى ، وأَشبهُ بالمعنى .

وأما قوله فى الموضع الثانى : ﴿ وإنَّها لَبِسَبيلٍ مُقيم ، إنَّ فى ذلك لآيةً للمؤمنين ﴾ أىْ أنَّ تلك المدينةَ المقلوبة ثابتة الآثار ، مقيمةٌ للنظار ، فهى بمرأى العيون ، لبقاء آثارِها ، وهذه واحدةٌ من تلك الآيات ، فلذلك جاء عقبها ﴿ إنَّ فى ذلك لآيةً للمؤمنين ﴾ .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ⑩ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⑪ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ⑫ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ⑬ ﴾ [النحل ١٠ : ١٣]

فلماذا وحَّد لفظَ [آية] أولا وآخرا ، وجمعها فى المتوسطة ؟ ، ولِمَ كان ذلك الاختيارُ ، وفى كل ذلك آياتٌ كثيرة ؟

جاء التعبير فى الآية الأولى ﴿ إنَّ فى ذلك لآية ﴾ ، لأن جميع ما أَخبر الله عنه أنه خَلَقه إنما هو من جنس صُنْعِه ، ونوعٍ من خَلْقه ، وهو كلُّ ما نجم من الأرض مما فيه قوتُ الخلق ، وهذا كله مما يَخرُج من الأرض بالماء ، فهو على جمعه كأنه شىء واحد ، فَوُحِّدَتْ لفظةُ [آية] لتوحيد المدلول عليها .

وجاء التعبير فى الآية الثانية : ﴿ إن فى ذلك لآيات ﴾ لأنه ذكر آياتٍ كثيرة ، فذكرَ [الليل] وهو إظلام الجو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر ، وذكر [النهارَ] ، وهو بُدُوُّ الضياء من طلوع الشمس إلى غروبها ، و[الشمسَ والقمرَ] اللذان فى كل منهما آياتٌ كثيرة ، ثم فى [النجوم] السيارة وغيرها ، زيادة على ذلك ما جعل الله تعالى لكل واحد منها من مَسيرٍ فى فلك ، ثم ما أجرى العادة به من إحداث ريح أو مطر ، فكان فى ذكر [الآيات] هنا أولى .

كما أن فى مجىء لفظ [آيات] فى هذه الآية ، موافَقَةٌ لقوله فى الآية [مسخرات] ، لتَقعَ المطابقةُ فى اللفظ والمعنى - كما جاء ذلك فى نظيرها فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل ٧٩] . فجُمعت لفظةُ [آية] موافَقَةً لقوله [مسخراتٍ] لتقَع المطابقةُ فى اللفظ والمعنى .

وأما الآية الثالثة : ﴿ وماذَرَأ لكم فى الأرض مختلفًا ألوانهُ ، إنَّ فى ذلك لآية ﴾ ، فالمعنى أن جميع جواهرِ الأرض كالذهب ، والفضة ، والحديد ، وغيرها مما جعل فيها من المنافع للخلائق ، هى كلُّها كأنها عروق

جاريةٌ مختلفةٌ فى شئٍ واحدٍ ، هو أمُّها ، وهى الأرض ، ولذلك كان ذكر [الآية] هنا أحق .

* * *

ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

[النحل ٦٥ ، ٦٩]

فلماذا وُحِّد لفظُ [آية] فى جميع الآيات ، ومنها ما فيه آيات كثيرة ؟ .

جاء التعبير القــــرآنى فى كل هذه الآيات بلفظ [آية] ، لأن المذكور فى كل آيةٍ صِنْفاً واحدا ، فَجَعَل ما دَلَّ منه على الصانع آيةً واحدة .

وأما ما يقال فى الآية الثانية : من أن [الأنعام ، وثمراتِ النخيل ، والأعنابَ] قد جُمعت ، وليس جميعها صِنْفا واحدا ، فكان يجب فى

(١) انظر درة التنزيل ٢٥٧ .

الاختيارِ والأحسنِ أن يقال : [إن فى ذلك لآيات] ، فليس صحيحا ، لأن الإشارة فى قوله : ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ إشارةٌ إلى [ثمراتِ النخيل والأعنابِ] دون [الأنعامِ] ، وذلك صِنْفٌ واحد ، فلذلك جاء التعبيرُ بـ [آية] دون [آيات] .

وأما [الأنعام] فقد قال الله تعالى بخصوصها فى ابتداء الآية : ﴿ وإنّ لكم فى الأنعام لعبرة] ، فكأنه قال : لكم فيها آية ، فَخلُصَت [إن فى ذلك لآية] للصِّنف الواحد من ثمر الشجر .

وأما الآية الثالثة ، فمقصود بها النَّحْلُ خاصة ، فلذلك قال : [إن فى ذلك لآية] .

وهكذا نجد أن كلمة [آية] ، حينما استعملها القرآن الكريم مفردة كانت فى موضعٍ يليق فيه الإفراد ، وحينما جاء بها فى التعبير جمعا كانت فى محل يطلبه لفظُ الجمع . فهذا النظم الأنيق ، والنَسقُ العجيب ، لا يعلمه إلا اللهُ تعالى – سبحانه – خالقُ الإنسان ، ومعلمهُ البيان .

* * *

[السمع والأبصار][1]

فنلاحظ فى التعبيرِ القرآنى أن الله سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن [السمع والبصر] يخالف بينهما فى الإفراد والجمع يقول تعالى :

---

(١) انظر فى هذا القضاء والقدر ص ١١ ، فن الأسجاع جـ ١٩٤/٢ ، ألحان الأصيل ٣٤١ ، المعانى فى ضوء أساليب القرآن ١٥٠ الصناعتين ٣٣٧ ، على مائدة الفكر الإسلامى ٣٣٤ – ٣٤٠ .

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل ٧٨]

فالسمع مفردٌ دائما ، والأبصارُ مجموعةٌ دائما ، والمعهودُ فى تصورنا البشرىّ ، ومفهومِنَا التعبيرىّ ، أن يكون الكلامُ : [وجعل لكم [السمع والبصر] ، أو [الأسماع والأبصار] ، فلماذا جاء هذا مفردا ، وذلك جمعا ؟

يقال فى أسباب ذلك : إن استقبال الأذنِ للمسموع لاخيار للإنسان فيه ، فلا يمكنُ أن يمنعَ أذنَه أن تسمع شيئا وصل إليها ، أووقع عليها ، أما العين : فلها الخيار فى ذلك ، لها أن ترى المنظرَ الذى أمامَها فتحملقُ فيه ، ولها أن تغمض فلا ترى مما أمَامَها شيئا ، بخلاف الأذن فما صدر من صوت ووقع على الأذن ، فلابد أن تسمعَه ، فإذا جاء إنسان وصرخ فى جمع من الناس سمعه الناس جميعا .

فلا خيار للإنسان فى قبول المسموع إذا كان المسموعُ فى الجماعة واحداً ، إذا فالسمع واحد ، لكنَّ الأبصارَ قد تتعددُ مرائيها ، هذا يُبْصر ذلك ، وذلك لا يُبصر ، لأن هناك تحكم فى العضو نفسه ، بحيث يرى أولا يرى ، أما السمعُ فلا خيار لأحدٍ فيه ، لذلك جاء [السمع] مفردا دائما ، و [الأبصارُ] مجموعةً دائما .

و[الأبصار] لم تأت مفردة إلا فى آية واحدة من القرآن ، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء ٣٦]

والسبب فى ذلك : أن الكلام هنا عن المسئولية الذاتية ، وهى مسئوليةٌ فردية ، فكل إنسان مسئول عن بصر نفسه ، وليس مسئولاً عن أبصار غيره ، ولهذا أفرد لفظ [البصر] هنا .

وخَص [السمعَ والبصر ، والفؤاد] فى الآية لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها .

وقدم منافعَ [السمعِ والبصرِ] حيث إننا نُعْمِلُ السمعَ والبصرَ أولا فى آيات اللهِ وأفعالِه ، ثم ننظرُ ونستدلُّ بالأفئدة والقلوب .

ومن لم يُعْمِل [السمَع والبصرَ والأفئدةَ] فيما خُلقت له ، فهو بمنزلةِ عادمها ، يقول تعالى : ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأحقاف ٢٦] .

وفى قوله تعالى : ﴿ واللهُ أخرجكُم من بُطون أمَّهاتِكم لا تعلمون شيئاً وجَعَل لكم السمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تشكرون ﴾ يقرر أن الإنسان خرج من بطن أمه لا يعلم شيئا ، لكن خلق معه وسائل العلم والإدراك ، وسائلَ تربطُه بالعالَم الخارجىّ ، وأخرى تربطه بعالَمه الداخلىّ .

فوسائلُ الإدراك التى تربطه بعالمه الداخلى : هو ما يجُده الإنسان بغير آلة من آلات حسه الظاهرةِ المعروفة ، كأن يعرفَ متى يجوعُ ؟ ومتى يظمأ ؟ — مثلا —

أما الوسائل التى تربُطه بالعالم الخارجىّ فهى أولا : السمع ثم البصر ، نسمعُ ثم نرى ، ثم ينشأ من هذه المحسات أمورٌ عقلية ، وأمورٌ وجدانية ، وأمورٌ قلبية .

والقرآنُ الكريم حينما تحدث عن منافذ المعرفة فى الإنسان ، جعلها بهذا الترتيب :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ [النحل ٧٨] .

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ ﴾ [الإسراء ٣٦] .

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ ﴾ [فصلت ٢٢]

فأولُ ما يولد الإنسان تكون أولُ حاسةٍ من حواسه تؤدى مهمتَها هى حاسة الأذن ، ثم إن العينَ تؤدِّى مهمتها فى خلال أيام ، فأنت إذا جئتَ إلى المولود ومددتَ أُصبعَكَ أمام عينه تجده لا يَطْرِف ، وذلك لأن عينَه لم تؤدِّ مهمتَها بعد ، فهو لا يرى شيئا أمامه ، ولكن إذا جئتَ وأطلقت صوتا فى أذنه ، فإنه يَحدُثُ عنده انفعالٌ ، يدل على أنه استقبل شيئا ، فالأُذُن إذن هى أول عضو يؤدى مهمته .

فإذا تحدث الحّق تبارك وتعالى عن [السمع والبصر] جعل [السمع] أولا ، و[البصر] تاليا ، وذلك لأن [السمع] يؤدى مهمته أولا ، و[البصرَ] ثانيا ، وبعد ذلك تتكون المعلوماتُ العقلية والقلبية التى يَبنى عليها حركة حياته .

و[السمع] هو الحاسة الوحيدة التى تؤدى مهمتَها من وقت ولادة الإنسان ، وتظل تؤدى مهمتها حتى عند النوم ، فالعين تُغْمِضُ ، لكنَّ الأذنَ تظلُّ مستقبلة دائما ، لهذا لما أراد الله تعالى أن ينيم أصحاب الكهف مدة طويلة ، وهذا على غير المألوف من قانون البشر ، فهُمْ قَومٌ فى كهف ، والكهف فى جبل ، والجبل فى صحراء ، وهناك برق

ورعد ، وأصوات ، وحيوان ، فلما أراد الحقُّ سبحانه أن يمنع عنهم هذه المنبهات التى تخرجهم عن النوم ، قال : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف ١١] .

وبعد هذا نفهم السرَّ فى إفراد [السمع] وجمع [البصر] ، وتقديم [السمع] على [البصر] فى قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل ٧٨] .

والحق - سبحانه - لم يقدمْ [البصرَ] على [السمع] فى القرآن الكريم إلا فى آية واحدة يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ [السجدة ١٢] .

فالنظام المتبع فى جميع آيات القرآن الكريم كان [السمع] أولا ، ويليه [البصر] ثانيا ، فلماذا تغير النظامُ فى هذه الآية ؟

السبب فى ذلك وفى هذه الآية فقط ، أن هذه الآية فى وصف مشهد من مشاهد يوم القيامة ، وأولُ ما يفجأ الإنسان يوم القيامة هو مرئى مشاهد ، لا مسموعٌ ، فجاءت الآيةُ منطقيةً مع وقتها ومع واقعها ، فَقدَّمت [البصر] على [السمع] .

* * *

[الريح والرياح][1]

عندما نستقرىء أساليبَ القرآنِ الكريم نرى أن لفظة [الريح] مفردا أو جمعا ، كلٌّ منهما تُستخدم فى موضعها اللائِقِ بها ، ولكل كلمةٍ منها مقام ، فحيث ذكرت « الريح » فى سياق الرحمة جاءت مجموعة ، كقوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [الروم ٤٨] .

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر ٢٢] .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم ٤٦] .

وحيثُ ذكرت فى سياق العذاب أتت مفردة ، كقوله تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت ١٦] .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب ٩] .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة ٦] .

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم ١٨] .

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات ٤١] .

---

(١) راجع البرهان حـ ٩/٤ ، الإتقان حـ ١٩٤/١ ، ما اتفق لفظه واختلف معناه ١٦ ، المعترك حـ ٥٩٦/٣ ، فقه اللغة ٥٧٣ ، بدائع الفوائد حـ ١١٨/١ .

فنرى أنه حيث جاء ذكر [الريح] فى سياق الرحمة جاءت مجموعة ، وحيث كان الذكر فى سياق العذاب أتت مفردة .

ولهذا قال -صلى الله عليه وسلم- فيما رواه ابن عباس ، يقول : هاجت ريحٌ أشفق منها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاستقبلها ، وجثا على ركبتيْه ، ومدَّ يديه إلى السماء ، ثم قال : « اللهم اجعلها رياحا ، ولا تجعلها ريحا ، اللهم اجعلها رحمة ، ولا تجعلها عذابا » .

وسرُّ هذا الاختلافِ فى التعبير : أن رياحَ الرحمةِ مختلفةُ الصفات والماهيات والمنافع ، وإذا هاجت منها ريحٌ أُثير لها من مُقَابِلها ما يكسِر سَوْرتَها ، فينشأ من بينهما ريح لطيفة ، تنفع الحيوان والنبات ، فكل ريح منها فى مقابِلها ما يُعدِّلُها ، ويُرد سَوْرتها ، فكانت فى الرحمة رياحا .

أما رياح العذاب فإنها تأتى من وجه واحد ، لا يقوم لها شىء ، ولا يعارضها غَيْرُها ، حتى تنتهى إلى حيث أمرت ، لا يُرُدُّ سَوْرتَها ، ولا يكسرُ شِرَّتَها شىء ، فتَمتثل ما أُمِرتْ به ، وتُصِيب ما أُرْسلتْ إليه ، ولهذا وصفها الله بـ [العقيم] فقال ؟ ﴿ وفى عادٍ إذْ أرسَلْنَا عليهم الرِّيحَ العَقِيم ﴾ ، وهى التى لا تُلقِّحْ ولا خير فيها ، والتى تُعْقِم ما مرت عليه .

وقد اطَّردت هذه القاعدة إلا فى قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ [يونس ٢٢] .

فقد ذُكر فى الآية ريحُ الرحمة بالإفراد - على عكس القاعدة - فقال : « بريحٍ طيبةٍ » ، فلماذا هذا الاختلاف ؟ .

جاء التعبير - بإفراد « الريحْ » فى الآية - لوجهين :

أحدهما : لفظى - وهو المقابلة ، فقد ذكر ما يُقابلها من ريح العذاب فى قوله : « جاءتها ريح عاصفْ » وهى لا تكون إلا مفردة ، ورب شىء يجوز فى المقابلة ، ولا يجوز استقلالا ، نحو : ﴿ ومَكَرُوا ومَكَرَ اللهُ ﴾ [آل عمران ٥٤] ، فإنما سُوِّغ تسميةُ ما يفعله اللهُ بهم مكرا مقابلةً لمكرهم . والثانى : معنوىٌّ - وهو أن تمام الرحمة فى الآية إنما تحصل بوَحدة الريح لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد ، فإن اختلفت عليها الرياح ، وتصادمت ، كان ذلك سبب الهلاك والغرق ، فالمطلوب هناك ريحٌ واحدةٌ .

ولهذا أكَّد هذا المعنى فوصفها بـ [الطيبة] ، فقال : « بريحٍ طيبةْ » دفعا لتوهم أن تكون عاصفةً ، بل هى ريح يُفْرِحُ بطيبها .

النور والظلمات[1] :

كذلك جمع الله فى القرآن لفظَ [الظلمات] وأفرد لفظ [النور] ، فقال تعالى :

« الحَمد لِلّه الذى خَلَق السموات والأرضَ وجَعَل **الظلماتِ والنَور** ، ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلُونْ » [الأنعام ١]

والسبب فى ذلك : أن طريقَ النور واحدٌ - وهو طريقُ الجنة -

(١) راجع البرهان جـ ١٢/٤ ، ما اتفق لفظه واختلف معناه ١٩ ، الإتقان جـ ١٩٤/١ ، المعترك جـ ٥٩٧/٣

أما طرقُ الظلماتِ فهى شتَّى ومختلفــة ، لذلك جُمعت [الظلمات] وأفرِد لفظُ [النور] .

وعلى هذا جاء قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة ٢٧٥] .

فجاء التعبير بتوحيد [ولىُّ الذين آمنوا] وهو الله الواحدُ الأحد ، وجَمْعِ [أولياءِ الطاغوت] ، لتعددهم وكثرتهم .

كذلك جَمَع لفظَ [الظلمات] ، إذْ هى طُرُقُ الباطل والغى ، فَجُمِعَتْ لكثرتها واختلافِها ، ووحَّد لفظ [النور] ، إذْ هو دينُه الحق وطريقُه المستقيم الذى لا طريق له سواه .

[اليمين والشمائل](١)

كذلك وحَّد الله فى القرآن جِهة [اليمين] وجمع جِهَة [الشِّمال] ، فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ ﴾ [النحل ٤٨] .

جاء التعبير القرآنىُّ هكذا ، لأن جهة [اليمين] هى جهة الخير والفلاح ، وأهلها هم الناجون ، ولهذا أُفردت ، ولما كانت جهةُ [الشِّمال] هى جهة الباطل ، والباطل منافذة شتى، وطرقُه مختلفة ، جُمعت ، فقال تعالى : ﴿ عن اليمين والشَّمائل ﴾ .

---

(١) المراجع السابقة نفسها .

وأما إفرادُها فى قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ [الواقعة ٤١] ، لأن المرادَ أهلُ هذه الجهة ، ومصيرُهم ومآلُهم إلى جهة واحدة ، وهى جهةُ أهِلِ الشِّمال مستَقَرُّ أهلِ النار، فأفرت لفظة[الشِّمال] ، لأن الطرقَ الباطلةِ وإن تعددت فغايتها المَرَدُّ إلى طريق جهنم ، وهى جهة الشِّمال .

كذلك جاء التعبير بالإفراد فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [ق ١٧] ، فلما كان لكل عبد قعيدان ، قعيدٌ عن يمينه ، وقعيدٌ عن شماله ، يُحصيان عليه الخير والشر ، فلا معنى للجمع بينهما .

وهذا بخلاف قولهِ تعالى حكايةً عن إبليس :

﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ [الأعراف ٧٧]

فإن إبليس أقسم أن يأتى الإنسانَ من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، فكان الجمع هنا فى مقابلة كثرة من يريدُ إغواءَهم ، مقابلة الجملة بالجملة ، ولذلك كان لفظ [الجمع] فى الآية أولى وأجدر .

* * *

[اللب والألباب][1] :

فقد وردت لفظةُ [اللب] فى القرآن الكريم مجموعةً فى كثير من الآيات ، كقوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص ٢٩]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر ٢١]

وقوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف ١١١]

ولم ترد لفظةُ [اللب] مفردة فى القرآن الكريم ، ولما احتاج القرآن إلى استعمالها مفردة ، جاء فى مكانها [القلب] ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق ٣٧] ، وذلك لأن حرفَ [الباء] فى لفظ [اللب] شديدٌ مجتمِع ، ولا يُفْضِى إلى هذه الشدة إلا من اللام المسترخية ، فلما لم يكن ثَم فصلٌ بين الحرفين يتهيأ معه الانتقالُ على نسبةٍ بين الرخاوة والشدة ، لم تَحسُنْ اللفظةُ مهما كانت حركة الإعراب فيها [نصبا أو رفعا أو جرا] ، فأسقطها القرآن من نظمه بَتَّةً .

على أن فى نظم القرآن لفظةَ [الجُبّ] ، وهى فى وزنها ونطقها ، وذلك لما فيها من حسن الائتلاف بين [الجيم والباء] ، فالانتقال من هذه [الجيم] المضمومة الشديدة إلى [الباء] ، أيسرَ من الانتقال فى [اللب] من اللام المسترخية إلى الباء الشديدة .

---

(١) راجع المثل السائر جـ ٣٨٤/١ ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٦٤ ، الطراز جـ ٤٧/٣ .

وقد استُعملت لفظةُ [اللب] فى غير القرآن الكريم وكانت مضافة أو مضافا إليها ، فوقوعها مضافةً فى قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى ذكر النساء : « ما رأيت ناقصات عقل ودينٍ أذهب لِلُبِّ الحازِم من إحداكن يا معشر النساء » .

ووقوعها مضافا إليها ، كقول جرير :

إنّ العيون التى فى طرفها حَوَرٌ قتلْننا ثم لم يحيين قتلانا
يصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حَراك به وهن أضعفُ خلق الله إنسانا

ولم يستخدم القرآن الكريم لفظ المفرد [لب] ، لأن لفظ الجمع أرقُّ ، والمقامَ يستدعيه ، كما استدعى جمعَ [الأشرار] فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ [ص ٦٢] ، ولم يستخدم القرآنُ لفظةَ (شِرِّير) .

[الجنة والنار][1] :

كذلك وردت لفظة [الجنة] فى القرآن الكريم مفردة ومجموعة ، أما لفظ [النار] فلم ترد فيه إلا مفردة ، وذلك يرجعُ إلى سببين :

أحدهما : لما كانتِ [الجناتُ] مختلفةً ، حَسُن جمعُها وإفرادُها ، ولما كانت [النارُ] مادةً واحدةً أُفرِدَتْ باعتبار الجنس .

الثانى : لما كانت [النارُ] تعذيباً ، و [الجنةُ] رحمةً ، ناسب جمعُ الرحمة ، وإفرادُ العذابِ ، كما التزم التعبيرُ القرآنىُّ جَمْعَ لفظِ [الريحِ] فى الرحمة ، وإفرادَها فى العذاب .

---

(١) البرهان جـ ١٨/٤ ، المعترك جـ ٥٩٧/٣ .

[**الصديق والشافعون**][1] :

كذلك ورد فى التعبير القرآنى جمعُ لفظِ [الشافع] ، وإفرادُ لفظِ [الصَّديق] ، فقال تعالى فى وصف مشهد من مشاهد يوم القيامة على لسان الكافرين : ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء ٩٩ - ١٠١] .

فلماذا جَمع [الشافعين] ، وأفرَد [الصَّديق] فى الآية الكريمة ؟

السبب فى ذلك كثرة الشفعاء فى العادة ، وقلة الصديق ، يقول الزمخشرى : « ألا ترى أن الرجل إذا امتُحن بإرهاق ظالم ، نهضت جماعةٌ وافرةٌ من أهل بلده بشفاعته رحمة له ، وإن لم يَسْبق له بأكثرهم معرفة ، وأما الصديق فأعزُّ من بيض الأَنُوق[2]

وعن بعض الحكماء : أنه سئل عن الصديق ، فقال : اسم لا معنى له .

[**الصوف والأصواف**][3] :

كذلك استخدم القرآن الكريم لفظةَ [أصواف] جمعا دون مفردها ، وورد التعبيرُ بذلك فقال الله تعالى ممتنا على العباد :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾

[النحل ٨٠] .

---

(١) البرهان جـ ٢٠/٤ ، المعترك جـ ٥٩٨/٣ ، الكشاف جـ ٣٢٢/٣ .

(٢) الأنوق : العقاب وهو طائر يحرز بيضه فى قلل الجبال فلا يكاد يظفر به أحد (قاموس) .

(٣) المثل السائر جـ ٣٨٧/١ ، إعجاز القرآن للرافعى ٢٦٤ ، الطراز جـ ٤٨/٣ .

فاستعمل القرآنُ لفظَ الجمع [أصواف] ، لأن المقام له ، فالمراد : أصوافٌ وأوبارٌ عِدّة ومتنوعة ، ولم يستعمل القرآنُ لفظَ المفرِد ، ولما احتاج القرآنُ إلى استعمال مفرد [الأصواف] جاء بما يخالف المفردَ فى لفظه ، فقال تعالى فى وصف يوم القيامة : ﴿ وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ الْمنْفُوش ﴾ [القارعة ٥] ، و [العهن] هو [الصوف] .

[رجا وأرجاء] [1]

كذلك وردت كلمة [رجا] بالقصر ، بمعنى [الجانب] ، فلم تُستعمل فى القرآن هذه الكلمةُ موحَّدة ، وإنما استعمِلت مجموعةً ، كقوله تعالى فى مشهد من مشاهد القيامة : ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة ١٦ ، ١٧] .

وعلى هذا فموقعها فى الجموع أحسنُ من موقعها فى الإفراد .

وقد تستعمل موحدة بشرط الإضافة كقولهم : « رجا البئر » .

[حبر وأحبار] [2] :

كذلك استعمل القرآنُ لفظةَ [حَبر] – بفتح الحاء وكسرها – مجموعةً ، دون مفردها ، وبذلك ورد التنزيل ، فقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [التوبة ٣٤]

---

(١) المثل السائر جـ ٣٨٦/١ .

(٢) الطراز جـ ٣/ ٤٥ .

وقال : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة ٣١]

ولم ترد فى القرآنِ الكريم مُفْردةً مما يدل على أن موقعَها فى الجموعَ أحسنُ من موقعِها فى الإفراد .

[بقعة وبقاع](١)

كذلك ورد التعبيرُ القرآنىُّ بإفرادِ لفظةِ [بقعة] دون جمعها ، وورد التنزيل بها ، فقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص ٣٠] .

ولم يستعمل القرآنُ الكريمُ لفظَ الجمع ، مما يدل على أن استعمالها مفردة أفضلُ من استعمالها مجموعة .

وإن استعملت مجموعة فالأفضلُ أن تكون مضافة ، كقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا تاب ابنُ آدم أنسى الله حافظَيْه وبقاعَ أرضه خطاياه » ، ولم يرد استعمالُها جمعا وتعريفا باللام فى كلام فصيح .

[سبيل الحق وسبل الباطل](٢)

ومن دقائق القرآن الكريم فى اختيار الكلمات إيثارُه إفرادُ لفظ [السبيل] مع الحق ، وجمعُه مع الباطل ، وورد التنزيل بهذا ، فقال تعالى :

---

(١) المثل السائر جـ ٤٦/٣ .

(٢) الإتقان جـ ١٩٤/١ ، البرهان جـ ١٢/٤ .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ [الأنعام ١٥٣] .

وذلك لأن طريقَ الحقِّ واحدٌ، أما طرق الباطلِ فمتشعبةٌ ومتعددة .

وهكذا نجد أن القرآن الكريم حينما يَستعمل اللفظَ [مفردا أو جمعا] يكون ذلك فى موضعه اللائق ، وفى محلِّه المناسبِ ، ولو حاولنا التغييرَ أو التبديل ، أو إحلالَ أحدِهما محلَّ الآخر ، فسد التعبير ، واختل النظم .

* * *

اختيار لفظ معين فى غرض
وفى الغرض نفسه يختار لفظاً آخر

القرآن الكريم فى اختياره لألفاظه قد يختار لفظا فى بعض الآيات ليؤدى معنى معينا ، وفى الغرض نفسه يختار لفظا آخر ، فيتوهمُ السامعُ أن اللفظين سواءٌ فى الدلالة ، ومثلان فى المضمون ، فيقعُ تحت وطأة الشك ، ويتساءل : لماذا عبر بهذا اللفظ هنا ، وعبر بهذا اللفظ هناك ؟

وعند البحث والوقوف على أسرار التنزيل نجد أن التعبير القرآنى فى كلا الموضعين أو المواضع ، كلٌّ فى محله ، قد أصاب المحز ، وطبق المفصل ، ووقع كلُّ لفظٍ على شاكلته .

[انفجرت وانبجست] :

يقول تعالى فى قصة موسى – عليه السلام :

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ ﴾

[البقرة ٦٠] .

وفى القصة نفسها يقول سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾

[الأعراف ١٦٠] .

فلماذا اختلف التعبير القرآنىُّ فى الآيتين ، ولأى معنى عَبر القرآن فى الآية الأولى بلفظ [انفجرت] ، وفى الثانية بلفظ [انْبَجست] ، والقصة واحدة ؟

كان هذا الاختلاف فى اللفظين لأن البلاغَة والبيان يقتضى أن يؤتى باللفظ الأول [انفجرت] ليدلَّ على المعنى المقصود ، والأنسبِ للغرض المراد ، فإنه تعالى لما حكى عن موسى – عليه السلام – قال : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ فلما كان الطلب من موسى – عليه السلام – فى هذه الآية لربه ، ناسب التعبيرُ عن ذلك بكلمة [انفجرت] إذ [الانفجار] انصباب الماء بكثرة ، وكان فى هذه الآية [كلوا واشربوا] ، فكان من المناسب مع طلب موسى – عليه السلام – ذكرُ اللفظ الأبلغ ، لهذا جاء التعبير بلفظ [الانفجار] دون لفظ [الانبجاسِ] .

ولما كان طلب السقى فى الآية الثانية من بنى إسرائيل – لا من موسى – فى قوله : ﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه﴾ ناسب ذلك كلمةَ [انبجست] ، لأن [الانبجاس] ظهورُ الماء بدرجة أقل من [الانفجار] ، وكان فى هذه الآية [كلوا] ، وليس فيها [اشربوا] فلم يبالغ فيه ، لهذا جاء التعبير بلفظ [الانبجاس] ، دون لفظ [الانفجار] .[1] ليتناسب مع طلب قوم موسى ، وليكون هناك فارقٌ بين طلب موسى وطلب قومه .

* * *

(١) انظر المعترك جـ ١٠/٣ ، تمييز ذوى البصائر جـ ١٤٤/١

[وإن تحسنوا ، وإن تصلحوا] :

ويرشد الله تعالى لإصلاح ذات البين بين الرجل وزوجه ، فيقول :

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء ١٢٨] .

ثم يقول بعد ذلك فى الآية التالية :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء ١٢٩]

ففى الآية الأولى جاء التعبير [وإن تحسنوا وتتقوا] ، وفى الثانية [وإن تصلحوا وتتقوا] ، فما السبب فى اختصاص كلٍّ بموضعه ، مع أن الموضوع واحد ؟

هذه الآيات تشير إلى بعض الأحكام التى أنصفت المرأة ؟ حيث كان لها فى المجتمع الإسلامى منزلةٌ رفيعة ، بعد أن كانت قبل الإسلام فى الطفولة موءودة ، وبعد الطفولة محقورة .

فالآية الأولى توضح أن المرأة إذا خافت من زوجها ترفعا ونبوا لملل ، أو إعراضاً لموجدة أو بذل ، فلا إثم فى أن يتصالحا على أن تترك له بعض مهرها ، والصلحُ خير من أن يقيما على التباعد . . . . وهذا يقتضى مخاطبة الأزواج بمجانبة القبح ، وإيثار الحسنى فى معاملتهن ، فاقتضى

التعبير فى هذا المكان اختيار لفظ [الإحسان] ، فقال : [وإن تحسنوا] .

أما الآية الثانية فإن قوله [وإن تصلحوا وتتقوا] جاء بعد قوله : [ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء] فى محبتهن ، لأن ذلك ليس إليكم ، وإن حَرَصتم على التسوية بينهن فلا تميلوا كل الميل ، بأن تجعلوا كلَّ مبيتكم ، وخَلوتكم ، وجميل عشرتكم ، وسَعَةِ نفقتكم ، عند التى تشتهونها دون الأخرى ، فتبقى تلك معلقةً ، لا هى ذاتُ زوج ، ولا هى مطلقة ، فاقتضى هذا الموضع أن يحث الأزواج على إصلاح ما كان بينهم من الانصباب إلى الواحدة دون ضَراتها بالتوبة مما سلف ، واستئنافِ ما يَقدرون عليه من التسوية ، ويملكونه من الخلوة ، وسَعَةِ النفقة ، وحُسْنِ العشرة ، ولذلك جاء التعبير [وإن تصلحوا] دون [وإن تحسنوا] .[1]

* * *

[أو فارقوهن ، أو سرحوهن] :

ويقول تعالى فى أحكام الطلاق :

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾

[الطلاق ٢]

و(بلوغ الأجل) : قُرْبُ انقضاء العدة ، و(الإمساكُ بمعروف) : هو تحسين العشرة ، وتوفيةُ النفقة ، و (الفراقُ بالمعروف) : يعنى أداءَ الصداق ، وعدَم إضرارها بالمراجعة .

---

(١) المعترك جـ ١٤٠/٣ .

ويقرر هذه الأحكام بعينها فى آية أخرى ، فيقول :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة ٢٣١]

ويُعيد هذه الأحكام مرة ثالثة ، فيقول :

﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة ٢٢٩] .

فما الحكمة فى تعبيره فى آيتى البقرة بلفظ [السراح والتسريح] وفى آية الطَّلاق بلفظ [الفراق] ؟

لقد اكتنفت آيتا البقرة النهى عن مُضَارَّة النساء ، وتحريم أخْذ أى شىء منهن ما لم يكن منهن ما يسوغ ذلك:من ألاَّ يقيما حدود الله ، فلما اكتنفها ما ذكر ، وأتبع ذلك بالمنع عن عضلهن ومنعهن من أن ينكحن أزواجهن ، وتكرر فى أثناء ذلك ما يفهم منه الأمرُ بمجاملتهن والإحسانِ إليهن حالَىْ الاتصال والوفاق ، والانفصالِ والفراق ، فلم يكن ليناسبَها أن يعبِّر بلفظ [أو فارقوهن] ، حيث إن لفظ [الفراق] أقربُ إلى الإساءة منه إلى الإحسان ، فقُصِد إلى ما يَحصُل منه المقصود مع تحسين العبارة ، فعبر بلفظ [السراح والتسريح] ، وقد روعى فى آيات البقرة عموما مقصد التلطف ، وتحسينُ الحال فى الصحبة والافتراق .

ولما لم يكن فى آية الطلاق تعرض لمنعهن ولا ذكر مضَارٍّ لهن ، جاء التعبير بلفظ [أوفارقوهن] فى حالة الانفصال ، واكتفى فيما يراد من المجاملة فى الحالين بقوله : [بمعروف] .(١)

(١) انظر درة التنزيل ٨١ .

فاتضح بهذا سببُ اختلافِ العبارة فى السورتين ، وظهر ورودُ كلٍّ من العبارتين على ما ينبغى ، أو يحسنُ أن يكون .

[من إملاق ، خشية إملاق] :

فهذه قضية شاعت فى الجاهلية ، فقد كانوا يقتلون أولادهم :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل ٥٨ ، ٥٩]

وينهاهم الله تعالى عن هذه الفعلة الأثيمة ، فيقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

[الأنعام ١٥١] .

ويقول فى الموضوع نفسه فى آية أخرى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾

[الإسراء ٣١]

فلماذا اختلف التعبير فى الآيتين ، مع أن المعنى فى جملته واحد ؟

نعم : المعنى فى جملته واحد فهو نهى عن قتل الأولاد ، ومَقْتٌ لهذه الفَعلة الأثيمة ، لكنّ المخاطَب بالآيتين مختلف ، ففى الآية الأولى الخطاب موجه إلى الفقراءِ المملقين بالفعل ، وذلك الفقيرُ المملق يهتم برزقه قبل أن يهتم برزق غيره ، ولذلك يطمئنه الحقُّ على رزقه أولا ، ثم على رزق أولاده فيقول : [نحن نرزقكم] أى يا أصحاب الإملاق ، [وإياهم] أى ونأتى برزق الأولاد أيضا .

أما الآية الثانية : فالخطاب فيها للأغنياء ، والمعنى : لا تقتلوا أولادكم خشية فقر يحصلُ لكم بسببه، فالفقر هنا غير موجود ، بل هو مترقب ، ولهذا حسُن [نحن نرزقهم وإياكم] ، أى نأتى برزقهم معهم ، ونرزقكُم أيضا ، فالله يُطمِئن هذا الغنىَّ على رزق أولاده أولا ، ثم على رزقه .[1]

فالأسلوبُ القرآنى،والبيانُ الربانى،نجده حينما يعرض قَضية من القضايا يعرضها عرض الخبير بحقائق الذات ، والقادرِ على إيراد الخصائص الكلامية التى تعبر عن حقائقِ النفس ، فنجدُه يُفرِّق فى أسلوبه حين يعالج موضوعا واحدا ويتوهم الناس أن القرآن يتفنن فى التعبير ، فالمعنى يأتى مرة بلفظ ، وفى المعنى نفسه يأتى بلفظ آخر .

والحقيقة أن الله تعالى يتناول المعنى من كل زواياه حتى إننا نجدُ أن هذه الآية لا يصلح لها إلا ذلك اللفظ ، وتلك الآيةُ التى فى مثل معناها ، لا يصلح لها إلا ذلك اللفظ .

* * *

[الطامة ، والصاخة] :

وذكر الله تعالى فى سورة النازعات اسما من أسماء يوم القيامة ، التى بلغت فى القرآن الكريم ثلاثين اسما ، فقال :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴾ [النازعات ٣٤] ، وذكر فى السورة التى تليها اسما آخر ، فقال : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ [عبس ٣٣] .

---

(١) انظر المعترك جـ ٩٣/١ .

فلماذا اختَصَّت سورةُ النازعات باسم [الطاقة] ، واختصت سورةُ عبس باسم [الصاخة] ، مع أنهما وصف لشيء واحد ؟ .

هذا الاختلاف لسر بلاغي في التعبير ، ذلك لأن اسمَ [الطامة] أرهبُ وأنبأُ بأهوال يَوْمِ القيامة – لأنهما من قولهم : طمّ السيلُ ، إذا علا وغَلب ، فقد طمت على كلِّ شيء ، وغطت كلَّ موجود ، على المتاع الموقوت ، وعلى الكون المنظَّم ، من سماء مرفوعة ، وأرض مبسوطة ، وجبال مرساة ، فهي تأتي على ذلك كله .

أما [الصاخة] : فهي الصيحة الشديدة – من قولهم : صَخَّ الصوتُ الأذن ، فاستعير لأسماء يوم القيامة مجازا ، لأن الناس يصوخون لها ، فالصاخة : لفظ ذُو جرسٍ عنيف يكاد يخرقُ صِماخَ الأذن ، فهو يشُق الهواءَ شقًّا ، حتى يصلَ الأذنَ صاخا ملحا .

فَلَمَّا كانت [الطامةُ] أبلغَ في الإشارة إلى أهوالها ، خُصَّ بها أبلغُ الصورتين في التخويف والإنذار ، وذلك لأن سورة النازعات بُنيتْ على التخويف والترهيب ، فابتداؤها وختامها ، وما بينهما تخويف وترهيب ، فناسبَها أشدُّ العبارتين موقعا في الرهبة .

أما سورةُ عبس ، فلم تُبْنَ على ذلك الغرض ، وإنما بنيت على قصة عبدِ الله بن أم مكتوم (الأعمى) ، ثم ورد قوله [فإذا جاءت الصاخة] .

فسورةُ النازعات على الجملة أقوى في التخويف ، وأشدُّ في الترهيب ، فناسَبَها أبلغُ العبارتين وأقوى اللفظين من أسماء يوم القيامة .(١)

* * *

(١) انظر المعترك جـ ٣/١٥٠ .

[من تراب ، ومن طين]

ويقول تعالى فى بيان أصْل خلقَةِ آدم – عليه السلام – ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران ٥٩] ، فيجعلُ خلقه – هنا – من تراب .

وفى الموضوع نفسه يقول فى موضع آخر : ﴿ إذْ قال ربُّك للملائكة إنِّى خالقٌ بشراً من طين ﴾ [ص ٧١] ، فيجعلُ خلَقه – هنا – من طين .

فلماذا عدل القرآن الكريم عن التعبير بلفظ [الطين] إلى لفظ [التراب] فى الآية الأولى ، مع أن [الطين] هو مجموع الماء والتراب ؟ .

عدل عن [الطين] الذى هو مجموع الماء والتراب ، إلى ذكر مجرد [التراب] ، لمعنى لطيف ، وذلك أنه أدنى العنصرين ، وأكثفُهما ، فلما كان المقصودُ الردَّ على من ادعى فى المسيح الألوهية ، أتى فى التعبير بما يصغِّر أمْرَ خَلْقه عند من ادعى ذلك ، لهذا كان التعبير بلفظ [التراب] أنسبَ من غيره من العناصر ، وأوفى بالمعنى المراد .

ولذلك حينما كان السياق القرآنيُّ دعوة الناس ألاّ ينفُخَهم الغُرورُ ، وتمايُزَ الأحسابِ والأنسابِ بينهم ، يأتى التركيز على جانب [التراب] الرخيص ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم ٢٠] .

ولما أراد المولى – سبحانه – أن يمتَنّ على بنى إسرائيل ، أخبرهم أنه يخلق لهم من الطين كهيئة الطير تعظيما لأمر ما يخلقُه بإذنه ، فقال تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾

[المائدة ١١٠]

فلما كان المطلوبُ الاعتدادَ والامتنان عليهم بخلقه ليُعظمُوا قدره ، عبر بلفظ [الطين] دون لفظ [التراب] .[١] .

ومن هذا نتبينُ بوضوح أن السامع أو القارىء قد يتوهمُ أن القرآن حينما يختار لفظا معينا فى بعض الآيات ، وفى الغرض نفسه يختار لفظا آخر ، أن اللفظين معناهما واحد ، وسواءٌ فى الدلالة ، ومثلان فى المضمون ، فَيَلِحُّ عليه الشك ويذهبُ به التساؤلُ مذاهبَ شتّى .

لكنْ عند معرِفة المقتضي والبحث عن السبب ، والوقوفِ على أسرار التعبير فى التنزيل ، والحكمةِ فى التغيير ، تأنسُ النفس ، ويثلُجُ الصدر ، ويطمئن الفؤاد ، فيعودُ للقلب هدوءُه ، وللفؤاد ثباتُه ، وذلك كما مر فى الآيات السابقة .

[لا يعقلون ، ولا يعلمون] :

يقول الله تعالى حاكيا مقالة المشركين حينما كانت تُعْرضُ عليهم الدعوة ، ويُدْعَوْن إلى كتاب الله ، والسماع لرسوله :

---

(١) انظر البرهان جـ ٢/٣٧٨ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة ١٧٠] .

ويقول فى الموضوع نفسه فى آية أخرى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة ١٠٤] .

فلماذا اختلف التعبير فى الآيتين ، فنفى عنهم العقل فى الآية الأولى ، فقال [أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا] ، ونفى عنهم العلم فى الآية الثانية ، فقال [أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا] ؟ وهل فى التعبير فى الآيتين من فرق فى المعنى ، مع أن الموضوع واحد ؟

هناك فرق كبير يحتم استخدام لفظِ [لا يعقلون] فى الآية الأولى ، و[لا يعلمون] فى الآية الثانية – فالله سبحانه وتعالى عندما يقول [لا يعقلون] فالمراد : أن هؤلاء الآباء لا يفقهون شيئا ، فليس لهم عقول تفكر ، وتتدبر فى أمر هذا الكون ، فهم لا يستخدمون عقولهم ، ولَو استخدموها وفكروا وتأملوا قليلا لوصلوا إلى أن الله سبحانه هو الخالق البارىء ، وأن هذا الكونَ فى صنعته ودقة إبداعه ، لا يمكنُ أن يكون إلا من خلْق الله تعالى ، ففى كلمة [لا يعقلون] نَفَى عنهم التدبرَ والتعقلَ فى أمور الكون ، وأنهم لم يصلوا إلى ما يجبُ أن يصلوا إليه من الإيمان عن طريق التدبر والتعقل .

ولكن عندما يقول الحق تبارك وتعالى [لا يعلمون] ، فيكون قد نفى

عنهم التعقَل والعلمَ معا ، فهو يريد أن يقول : إنهم بجانب عدمِ تدبرهم فى صنعة هذا الكون ، وانصرافِهم عن تعقلهم الآيات الموجودة فيه ، فهم أيضا لا يعلمون ما عَلمه غُيرهُم من العلم ، وحصَّله غيرهم من المعرفة .

فالذى [لا يعقل] لا يتدبر ولا يتفكرُ فى آيات الله وبدائع الكون .

أما الذى [لا يعلم] فهو لا يفكرُ بعقله ، ولا يعلم ما عَقَلَه غيرُه .

فـ [العلم] أوسع دائرة من [العقل] ، وذلك لأن [العلم] قد يكون علما لغيرنا دوّنه وكتبه أو سجله ، فحينما نقرأ هذا العلم ونأخذُ عنه ، فكأننا علمنا ما عقله غيرُنا ، فحينما نقرأ كتابا لإنسان فيه فكرٌ جديد نعلم ما عقله هذا الإنسان ، كذلك عندما نذهب إلى الجامعةِ ندرس نَعلم ما عقله الأستاتذة وكبارُ المفكرين ، فقوانين الفضاء - مثلا - نعلمها عن طريق عالم الفضاء الذى وصل إليها بعقله هو .

فالله سبحانه وتعالى حينما يحكم على آباءِ هؤلاء القوم بأنهم [لا يعقلون] فى الآية الأولى ، فالمعنى : أنهم لا يتدبرون فى الكون ، ولا يستخدمون عقولهم فى تفهم الآيات البينات أمامهم فالأبناء يقولون : [بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا] ، والله سبحانه يَردُّ عليهم بقوله : ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ ، فسلب الله عنهم العقل ، ثم وصفهم فى الآية التالية بقوله : ﴿ صمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لا يعقلون ﴾ فهم محرومون من كل وسائل الإدراك ، ومنافذ التعقل .

وحينما يحكم الله تعالى على آباء هؤلاء القوم بأنهم [لا يعلمون] فى الآية الثانية ، فإنما كان ذلك لأن الله تعالى رد على الأبناء حينما قالوا :

[حسْبُنا ما وجَدْنَا عليه آباءَنَا] ، أى يكفينا علمُ الآباء فلا نريد شيئا فوق علمهم ، رد عليهم بقوله : [أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون] أى هم يتبعون آباءهم ولو كان هؤلاء الآباء لا يعلمون شيئا عن طريق التعقل والتدبر ، ويرفضون العلم الذى وصل إليه غيرهم .

ومن هنا نرى الفرق بين وصف الله تعالى لآبائهم بأنهم [لايعقلون] مرة ، و[لا يعلمون] مرة أخرى ، فالله تعالى لا يستخدم اللفظين لأداء المعنى الواحد ، لكن لكل لفظ معنى يراد منه ، ولا يفيده غيره ، [1]

[ولما بلغ أشده واستوى ، ولما بلغ أشده] :

ويقول تعالى فى قصة موسى – عليه السلام – ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص ١٤] .

ويقول فى قصة يوسف – عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف ٢٢] .

فلماذا جاء التعبير القرآنى فى قصة موسى – عليه السلام – بلفظ [واستوى] ، وتركه فى قصة يوسفَ – عليه السلام – مع أن المعنى فى جملته واحد ؟ وما الذى أوجب اختصاصُ كلٍّ من الجملتين باللفظ الذى اخْتَصَّ به ؟ .

بلُوغ الأشد : قيل : أن يبلغَ الرجلُ خمسا وعشرين سنة ، وقيل : ثلاثا وثلاثين ، وقيل : غيرُ ذلك ، حتى قيل : إنه الاحتلامُ ، لأن الغلام إذا بلغ حُسِبَتْ أعماله ، وكُتبت حَسناته وسيئاته .

(١) انظر معجزة القرآن ٥٤ .

والاستواء : أن يبلغ الرجلُ أربعين سنة .

وقد أخبر الله تعالى أنه أوحى إلى يوسف - عليه السلام - حين طرحته إخوتهُ فى الجب ، قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف ١٥]

وأراهُ الله تعالى الرؤية التى قصها على أبيه فى قوله :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف ٤]

وقد كان هذا وذاك فى سن مبكرة .

فلما كان يوسفُ - عليه السلام - أُوتى ما أوتيه من الحُكْم والعِلم قبل وصوله إلى الأربعين الذى هو وقتُ الاستواء جاء التعبيرُ فى قصة يوسف خاليا من لفظ [استوى] .

وأما موسى - عليه السلام - فإنه لم يَعلم ما أُرِيد به من النبوة إلا بعد أن استأجره شعيب - عليه السلام - ومضت سِنُو إجارته ، وسار بأهله ، وآتاه الله ما آتاه من الكرامة ، وذلك بعد الأربعين .

ولهذا أسقط التعبير القرآنى لفظ [الاستواء] فى قصة يوسف ، وذكرها فى قصة موسى عليهما السلام .

* * *

[وبالوالدين إحسانا ، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه كرها][1] – :

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يرى أن الوصية بالوالدين جاءت فى القرآن الكريم فى سبعة مواضع .

١ – جاء ذلك فى سورة البقرة تذكيراً بالميثاق الذى أخذه الله على بنى إسرائيل ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾
[البقرة ٨٣] .

٢ – وجاءت فى سورة النساء ، فقال تعالى :

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء ٣٦] .

٣ – وجاءت فى سورة الأنعام ضمن الوصايا العشر التى وردت فى كل دين ، فقال تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ ﴾ [الأنعام ١٥١] .

٤ – وجاءت فى سورة الإسراء ضمن ما قضى به الله وشرعه من الوصايا العامة ، فقال تعالى :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾
[الإسراء ٢٣] .

---

(١) تفسير القرآن الكريم ٤٠٤ ، المنتخب من تفسير القرآن ٢٠٣ .

فلفظ « الإحسان » يتعدى بحرفَىْ [الباء وإلى] ، فيقال : أحْسَنَ به ، وأحسنَ إليه ، وبينهما فرق واضح ، فـ [الباء] تدل على الإلصاق ، و[إلى] تدل على الغاية ، والإلصاق : يفيدُ اتصالَ الفعلِ بمدخول [الباء] ، دون انفصالٍ ، ولا مسافة بينهما - أما الغاية : فتفيدُ وصول الفعلِ إلى مدخول [إلى] ، ولو كان منه على بعد ، أو كان بينهما واسطة .

ولا ريب أن الإلصاق فى هذا المقام أبلغُ فى تأكيد شأن العناية والإحسان بالوالدين . ومن هنا لم يُعَدَّ لفظ الإحسان بـ (الباء) فى القرآن الكريم إلا حيث أُريد ذلك التأكيد ، فنراه فى قوله تعالى حكاية عن يوسف - عليه السلامُ - لأبيه وإخوته : ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ [يوسف ١٠٠] .

وبالتأمل فى تلك الآيات الأربع نرى لفظ الإحسانِ فيها عُدِّىَ بـ(الباء) التى تدل على الإلصاق ، وتفيدُ أنَّ البِّر والإحسانَ للوالدين يكون دون انفصال ، لا مسافة بينهما ، وفى هذا من الدلالة على تأكيد طلب الإحسان بالوالدين والعنايةِ بهما ، ماليس فى التعدية بـ [إلى] .

وزاد الله تعالى العناية ببر الوالدين فى تلك الآيات الأربع بأن جعل ذلك تاليا للأمر بعبادته تعالى ، أ و النهِى عن الإشراك به ، وفى هذا رفعٌ أيُّما رفعٌ لمقام الأبوة والأمومة .

ولم تَقِفْ الوصيةُ بهما عند هذا الحد ، وبهذا الأسلوب ، بل جاءت فى ثلاثِ آيات أخرى .

بأسلوب الإيصاء – وهو أن يُعْهَد إلى الغير بعملٍ ذِى بالٍ ، وهذا يدلُّ على العناية التامة ، والاهتمام البالغ من الموصِى بهذا العمل ، كما يدل على سموِّ مكانة العمل ، وعلى أن الموصَى له يعود عليه حظ كبيرٌ من ذلك العمل .

وأسلوب الإيصاء أقوى فى البعث على الامتثال من أسلوب الأمر والتكليف ، تأمَّل قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [النساء ١١] ، ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ [مريم ٣١]

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة ١٣٢]

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا ﴾ [الشورى ١٣] ، ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ ﴾ [الأنعام ١٥٣] .

٥ – وجاءت الوصية فى سورة العنكبوت :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ [العنكبوت ٨] .

٦ – وفى سورة لقمان : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [لقمان ١٤] .

٧ – وفى سورة الأحقاف :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾ [الأحقاف ١٥] .

وبالتأمل فى هذه الآيات السبع ، نجد أن الآيتين من سورتى [لقمان والأحقاف] تَذْكُرُ الوالدين فى أولها ، وفى آخرهما ، ويتوسطهما ذكرٌ للأم خاصة ، (انظر الآيتين السابقتين) .

فلماذا أوصى الله تعالى بالوالدين فى الآيات كلها بالتساوى بينهما ، وخص هاتين الآيتين **فقط** بذكر الوالدين فى أولها وآخرهما ، وتُذْكَر [الأمُّ] بصورةٍ خاصةٍ بينهما ؟

ثم مَنْ الموصَى ؟ هل هو الطفل وهو رضيع ، وهل يفقه هذا الطفل شيئا عن هذه المرحلة ؟ ، إذا كان يخاطب الطفل – وهو رضيع – فهو يخاطب إنسانا لا يعقل ، فما الفائدة ؟ ، وإذا كان يخاطبه بعد أن يَكْبُر فهو يخاطب إنسانا عن فترة لا يذْكُرُها ولا يعرفُها ، فما الحكمة فى ذلك ؟

خص الله تعالى الأمَّ بالوصية لأنها تقوم بالجزء غيرِ المنْظُور فى حياة الابن ، وغيرِ المدَرك عقلا ، فالطفل فى حال الحمل والولادة والإرضاع ، وحتى يعقل ، الأم هى التى تقدم له كل شىء ، فهى التى

تحملُه ، وتلدُه ، وتُرضعُه ، وتسهرُ عليه ، وتعتنى به ، فإذا كبِر الطفلُ يجد أمامه أباه ، فهو الذى يحققُ له كلَّ رغباته من مشتريات أو مال ، فَفَضْلُ الأب ذاهرٌ أمامه الآن بعد أن أدرك وعقل .

أمَّا فضلُ الأم فمستتر ، فتحمُّلُ المشقَّة فى سبيلِ تربيته ، قد مضى ، والعناءُ من أجل راحته ، قد انقضى .

فالطفل حينما يحقِّقُ له أبواه كلَّ رغباته يُحِسُّ بفضل أبيه عليه ، ولكنه نادرا ما يُقَدِّرُ التعبَ الذى تَعِبتْه أمه ، وهو يزيد أضعافا مضاعفة على ما يُقَدِّمُه أبوه .

لهذا جاءت الوصيةُ بالأم والتذكيرُ بها فى الآيتين زيادة عن الأب ، ومن هنا جاءت الوصية بالأم فى قول الرسول – عليه السلام – لمن قال له : من أحقُّ الناسِ بحُسْنِ صحابتى ؟ قال له : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك .

ولكن ما هدف من هذا التذكير المتكرر ، والوصايا المتعددة إذا كان الموصَى لا يعقل ، وبالتالى لا يَقْدر على رَدِّ الجميل ؟

الهدف أن يرى ذلك على غير أمه ، فبعد أن يكبُرَ ينظرُ إلى الأمهات ، ليرى كيف يتْعَبْن ، وكيف يعانِين ، ويقاسِين ، وكيف يسهرْنَ على أطفالهن ، ومقدارَ ما يتحملْن من مشقة ، فعند ما يرى ذلك على غير أمه ، يُدركُ أن هذا قد حصل له ، وحدث مثله له فى حال صغره ، فيبعثُه ذلك على رد الجميل عند كبرهما :

﴿ إمَّا يَبْلُغَنَّ عندكَ الكِبَرَ أحدُهما أو كلاهما فَلاَ تَقُلْ لهما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهما وقُلْ لَهُما قولاً كريمًا ، واخفضْ لهما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرحمة ، وقلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كما ربَّيَانى صَغيًرا ﴾

* * *

ألفاظ حسنت فى القرآن ولم تحسن فى غيره

فى اللغة العربية ألفاظ مشتركة بين معنيين : أحدهما يحسنُ استعماله ، والآخرُ يُكره ذكره واستخدامه .

فإذا ورد مثلُ هذه الألفاظِ فى تعبيرٍ فلابد أن يكون مع كل لفظة من هذه الألفاظ قرينةٌ بينةٌ ، توضح أن المراد منها هذا المعنى الحسن[1].

فإذا وردت فى كلام وليس معها قرينةٌ تبين هذا المعنى الحسن ، قَبُحتِ الكلمة ، وكانت فى مكانها معيبةً ، وغَيْرَ لائقةٍ فى الاستعمال .

ولقد وردت فى اللغة ألفاظٌ من هذا القبيل ، استعملها العربُ فى مواطنَ ، فلم يُوفَّقوا فى استخدامها ، فجاءت كريهةً على النفس ، ثقيلةً على السمع ، ينفرُ منها الذوق ، إذْ لم يُتَحْ لهم من الذوقِ الصافى ، والفطرةِ النقية ، والملكةِ الأصيلة ما يُنَقِّيها ، ويُصَفِّيها ، مما عَلِق بها من ثقل وكراهية .

لكنَّ القرآنَ الكريم حين استخدم مثلَ هذه الألفاظِ فى التعبير ، أوردها فى مواطِنِها فى الآيات الكريمة ، وجرَّدها من كل ما يَعلَقُ بها من ثقل أو كراهية ، وأحاطها بالقرائنِ الدالَّة ، والعلامات الهادية ، حتى

(١) انظر المثل السائر جـ ٢٦١/١ ، الجامع الكبير ٥٣ .

وصلت إلى السامع دون أن تنحرف عن هدفها وكانت طيبة المجرى على اللسان ، خفيفة على الأسماع .

[**عزَّرُوه**] :

يقول تعالى فيمن وسعته رحمته : ﴿ ورحْمَتِي وسِعَتْ كلَّ شئ ، فسأكتُبها لِلَّذين يتَّقون ويُؤْتُون الزكاةَ والذينِ هُمْ بآياتنا يؤمنون . . ﴾ إلى أن يقول :

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف ١٥٧] .

فلفظة [التعزير] مشتركةٌ بين معنيين : تُطلَق على التعظيم والإكرام ، وعلى الضرب الذى هو دون الحد ، وذلك نوع من الهوان – وهما معنيان ضِدَّان ، فلو قال قائل : لقيت فلانا فعزرته – يقصُد إكرامه – تكون هذه الكلمةُ قبيحة ، لأنه قد يَسبقُ إلى الفهم أنه قد ضربه وأهانه ، أمَّا لو قال : لقيت فلانا فأكرمته وعزَّرته ، لزال اللبس ، وصارت الكلمةُ حسنةً ، وخلت من القبح ، لوجود القرينة التى تعيِّن المعنى المرادَ منها .

لهذا جاءت هذه الكلمة فى الآية وجاء معها من القرائن مِن قَبْلها ومن بَعْدها فخصَّصت معناها بالحسن ، وميزته عن القبح ، ولو وردت مهملة بغير قرينة وأريد بها معنى الحُسن لسبق إلى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح .

* * *

[**مقاعد**] :

كذلك وردت كلمة [مقاعد] ، فهى كلمة تحتمل ما يَحسُن وما يقبحُ ، ويكون ذلك بحسب القرائِن المحيطةِ بالكلمة ، أو ما توصف به الكلمة من أمور ، أو يُضاف إليها من أشياء ، فقولنا : [مقاعدُ للجهاد ، أو مقاعدُ للسمع ، أو مقاعدُ للزيارة] تحسنُ فيها الكلمةُ وتجمل ، أما فى قولنا : [مقاعد العوَّاد] تقبح فيها الكلمة وتثقل ، إذ هى أضيفت إلى [العواد] ، وهم الزوار فى حال المرض والعلة .

ومن هنا حسنت الكلمةُ فى التعبير القرآنى وكانت فى نهاية الجمال فى قوله تعالى على لسان الجن : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن ٨ ، ٩] .

وقوله تعالى يذَكِّر النبىَّ – صلى الله عليه وسلم – بما كان يوم أحد :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ ﴾ [آل عمران ١٢١] .

فقد وردت كلمة [مقاعد] فى الآيتين غيرَ مضافة إلى ما يقبحْ أو يُكْره ، لذلك جاءت على ما نرى من الحسن والجودة .

ولقد استعمل هذه الكلمةَ الشريفُ الرضى فى شعره ، فجاءت كريهة على السمع ، بعيدةً عن الذوق البلاغى ، فقال فى صديق له مريض :

أعزِزْ علىَّ بأن أراك وقد خلاَ   عن جانبيك مقاعِدُ العُوَّادِ

فإيراد هذه اللفظة فى هذا الموضع صحيح ، لكنه موافق لما يُكرهُ ذكره ، فقد أضيفت كلمة [مقاعد] إلى لفظ [العواد] وهم الزوار فى حال المرض ، فَقبحَت اللفظة .

ولو لم يُضِف الشاعر الكلمةَ ، لسهُل الأمر ، ولو قال عوضا عن [مقاعِد العواد] [مقاعِدَ الزيارة] أو ما يجرى هذا المجرى ، لذهب ذلك القبح ، وزالت تلك الهجنةُ والكراهية .

ولهذا جاءت هذه اللفظةُ فى بيت الشريف الرضى على ما نرى من القبح والرداءة ، وجاءت فى الآية القرآنية على ما نشاهد من الحسن والجودة .[1]

[**الكنيف**] :

وما وقع فيه الشريف الرضى وعابه عليه النقاد ، وقع فيه عروةُ بنُ الورد ، حينما نصح قومه أن يلجأ إلى حظيرة من الشجر عند قرية تسمى (ماوان) ، فقال بيتا من الشعر ضمنه كلمة [الكنيف] :

قلتُ لقومٍ فى الكنيف تَرَوَّحوا عشِّيَةَ بتْنَا عند ماوَانِ زُرَّحِ [2]

فلفظة [الكنيف] أصلها الساتر ، ومنه قيل للتُّرس : كنيف ، غيرَ أنه استُعْمل فى الآبار التى تستُر الحدث ، وشُهِر بها ، ولهذا قَبُحت فى البيت .

---

(١) المثل السائر جـ ٢٦١/١ ، الجامع الكبير ٥٣ ، سر الفصاحة ٧٥ .

(٢) ماوان : قرية من أرض اليمامة ، الكنيف : الحظيرة من الشجر ، قوم زرَّح : مهازيل : ساقطون ، زرَّح : صفة لقوم ، والمعنى : قلت لقوم زُرّح عشية بتنافى الكنيف عند قرية ماوان تروحوا .

فالكلمة وردت موردا صحيحا ، وقد وردت وهى غيرُ مقصود بها هذا المعنى القبيح ، ولكن ليس فى البيت قرينةٌ تدفع هذا القبح ، ولهذا قبحت[1] فيه .

[يؤذى] :

والكلمة قد تروق وتجمل فى موضع ، وتُكره وتُنكَر فى موضع آخر ، وذلك راجع إلى حسن التصرف فى التعبير ، والتوفيق فى اختيار الموضع ، ومراعاة المقامات لكل الأحوال ، يَعرف ذلك من يَدِقُّ فهمه ، ويَتَذَوَّق طعم الفصاحة ، ويعرف أسرار الألفاظ فى إفرادها وتركيبها .

جاء ذلك فى لفظة واحدة فى آية من القرآن الكريم ، وبيت من الشعر ، فجاءت فى القرآن جزلة متينة ، وفى بيت الشعر ركيكةً ضعيفة ، فأثَّر التركيبُ فيها هذيْن الوصفين الضِّدَّيْن .

أما الآية ، فيقول تعالى مبينا آدابَ الزيارة لبيت النبي – صلى الله عليه وسلم - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ [الأحزاب ٥٣] .

فلفظة [يؤذى] فى قوله تعالى : ﴿ إن ذلكم كان يؤذى النبى ﴾ جاءت جزلة متينة .

---

(١) سر الفصاحة ٧٥ .

ولكنّ المتنبي حينما استعملها فى شعره كان غيرَ موفق فى استعمالها ، فقد قال يمدح أحدَ الأشخاص :[1]

تَلَذُّ له المروءةُ وهى تُؤْذِي ومنْ يَعْشَق يلَذُّ له الغَرامُ

فهذا البيت مع أنه من المعانى الشريفة إلا أن لفظة [تؤذى] فيه ، حطت من قدره ، وأنزلته من عليائه ، لركاكتها فيه ، وضعف تركيبها .

والسبب فى أن موقعَها فى الآية الكريمة مرضيٌّ ، وفى البيت غيرُ لائق ، أن هذه اللفظة [تؤذى] جاءت مندرجة مع ما يأتى بعدها ، متعلقةً به كما فى الآية الكريمة : ﴿ إنَّ ذلك كان يُؤْذِى النبى ﴾ ، ولكنها جاءت فى قول المتنبى منقطعة ، حيث إنه قال : ﴿ تلذ له المروءةُ وهى تؤذى ﴾ ، ثم قال : « ﴿ ومن يعشَق يلَذ له الغرامُ ﴾ ، فجاء بكلام مستأنف .

وقد جاءت هذه اللفظة فى الحديث النبوى ، وأضيف إليها [كافُ الخطاب] ، فأزال ما بها من الضعف والركة ، فقد اشتكى النبى – صلى الله عليه وسلم – فجاءه جبريل – عليه السلامُ – ورقاه ، فقال : ﴿ باسم الله أَرْقيكَ من كل داء يؤذيك ﴾ ، فقد زيد على هذه اللفظةِ حرفٌ واحد ، أصلحها وحَسَّنَها .

* * *

(١) ديوان المتنبى جـ ٧٥/٤ .

[شىء] :

ومن ذلك كلمة [شىء] ، فحيثما استخدمها القرآن الكريم ، نرى الجمال فيها ، ونجدها ممكنة فى مكانها أفضل تمكن وأقواه ، يقول تعالى :

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف ٤٥] .

﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾
[النساء ١٩] .

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ [الطور ٣٥] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾
[يونس ٤٤] .

إلى غير ذلك من الآيات التى وردت فيها تلك اللفظة ، فتراها متمكنة فى موضعها أفضل تمكن ، وجاءت فى الكلام رقيقة ، توحى إلى الذهن بالفكرة الواضحة التى تستقر النفس عندها وتطمئن .

لكن المتنبى استعملها فى مدح كافور ، فجاءت قلقة فى مكانها ، نابية فى محلها ، فقال :

لَوْ الفلك الدَّوَّارُ أبغَضْتَ سَعْيَهُ   لعَّوقُه شَىْء عن الدَّورانِ

فنحن نرى أنها لم توح إلى الذهن بالفكرة واضحة ، ولم نحسّ أن النفس عند نطقها استقرت واطمأنت ، إذ المرء لا يزال بعد سماع البيت يسائل نفسه عن هذا (الشىء) الذى يعوق الفلك عن الدوران ، فكانت هذه الكلمة قاصرة عن أداء المعنى .

[القُمَّل] :

فى قصة موسى – عليه السلام – مع قوم فرعون يخبرنا الله تعالى بالعذاب الذى أنزله بهم ، فيقول :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ [الأعراف ١٧٣] .

فقد استعمل القرآنُ هذه الألفاظَ الخمسة [الطوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضفادع والدّم] ، فجاءت رائعة حسنة .

بينما حين استعمل الفرزدقُ فى شعره كلمة واحدة منها جاءت – على ما نرى – ساقطة نازلة .

فقال يمدح شخصا بالمنعة ، وأن أقوى القبائل عنده ضعيفٌ كالجراد :

من عِزِّهِ احْتَجَرتْ كُلَيبٌ عنده زَرْباً ، كأنهم لَديْهِ القُمَّلُ[1]

وإنما حَسُنتْ هذه اللفظةُ فى الآية ، دون البيت من الشعر ، لأنها جاءت فى الآية مندرجةً ضمن كلام ، ولم ينقطع الكلامُ عندها ، وجاءت فى الشعر قافية ، آخِرا ، فانقطع الكلام عندها .

وقد حَسُن جمعُ هذه الألفاظ الخمسة فى الآية الواحدة ، لأن التعبيرَ الإلهىَّ ، والتنسيقَ القرآنىَّ فى الكلمات راعى التناسبَ والتجانسَ فى الآية .

---

(١) حجرت : دخلت حجرها ، واحتجر به : لجأ إليه ، احتجر الأرض : ضرب عليها سورا ، الزرب : موضع الغنم ، القمَّل : الدبى وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها ، أو البراغيث ، أو كبار القردان .

فأحسنُ هذه الألفاظِ الخمسةُ وأحَقُّها [الطوفانُ والجرادُ والدمُ] ، وأثقلُها [القمَّلُ والضفادع] ، فقدَّم [الطوفانَ] لمكان المدَّيْن فيها ، حتى يأنسَ اللسانُ بخفتها ، ثم [الجرادَ] ، وفيها كذلك مَدٌّ ، ثم جاء باللفظين الشديدين وهما – القملُ والضفادع – مبتدئا بأخفهما على اللسان ، وأبعدهما فى الصوت ، لمكانِ تلك الغُنَّة فيه وهى « القُمَّل » ، ثم جىء بلفظة [الدم] آخرا ، وهى أخفُّ الخمسةَ ، وأقلُّها حروفاً ، ليسرعَ اللسان فيها ، ويَستقِيم لها ذوق النظم ، ويَتمَّ بها هذا الإعجازُ فى الترتيب والتركيب .(١)

* * *

[وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدو . .] :

وقد ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبعُ بعضُها بعضاً ، فحينئذ تقبحُ الألفاظ ، ويثقلُ النطق ، وتدخل الكلمة فى باب المعاظلة ، وقد تكونُ على نهجٍ واحدٍ من الصيغة الفعلية ، كقول أبى الطيب المتنبى يمدح سيف الدولة ويعتذر :

يأيها المُحْسنُ المشكورُ من جهتى   والشّكْرُ من قِبل الإحسانِ لا قِبَلى

أقِلْ ، أنِلْ ، أقطِعْ ، احمِل ، عَلِّ ، سَلِّ ، أعِدْ
زِدْ ، هَشَّ ، بَشَّ ، تفضَّل ، أَدْنِ ، سرِّ ، صلِ (٢)

(١) المثل السائر جـ ٢١٨/١ ، بلاغة القرآن للرافعى ٢٣٥ .

(٢) فى البيت أربعة عشر أمرا : أقل : من الإقالة من العثرة ، أنل : من الإنالة ، أقطع : من الإقطاع ، احمل : من قولهم : حملته على فرس ، عل : من العلو والرفعة ، سل : من السلو ، أعد : من الإعادة ، زد : من الزيادة . هش : من قولهم : هششت إلى كذا ، تفضل : من الإفضال ، أدن : من الدنو ، سر : من التسرية ، صل : من الصلة والعطية (ديوان المتنبى جـ ٨٥/٣] . =

ففى البيت أَربعة عَشر لفظا جاءت على صيغة واحدة ، وهى صيغةُ الأمْر ، فثقلت ، إذ هو تكرير للصيغة ، وهو وإن لم يكن تكرِيرا للحروف إلا أنه أخوه .

وهذه الألفاظ متراكبةٌ متداخلةٌ ، ولو عَطَفها الشاعر بالواو لكانت أقَرب حالا ، كما قال عبد السلام بن رغْبان المعروف بديك الجن :

فسَد الناسُ فاطْلب الرزقَ بالسَّيـ ـف وإلا فَمُتْ شديدَ الهُزالِ
احْلُ وامْرُرْ ، وضُرَّ وانفَعْ ، ولِنْ واخْـ شُنْ ، وأبرِر ، ثم انتدب للمعالى

فهذه ثمانيةُ ألفاظ جاءت على صيغة واحدة ، إلا أنه لما عَطف الشاعر بالواو – ها هنا – لم تتراكب الألفاظ ، ولم تتداخل ، كتراكُبِها وتداخُلِها فى بيت أبى الطيب المتقدم ، ولذلك فهو أقلُّ ثِقْلا مما لم يُفْصَلْ بالواو .

وقد ورد مثلُ هذه الأفعال المتتابعة فى القرآن الكريم ، ولكنْ فرقٌ بين الثَّرى والثُّريا ، قال تعالى :

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة ٥] .

= ويحكى ابن جنى فيقول : لما نظر سيف الدولة فى القصيدة ، ووصل إلى هذا البيت ، وقع تحت (أقل) : أقلناك ، وتحت (أنل) : يحمل إليه من الدراهم كذا ، وتحت (أقطع) : قد أقطعناك الضيعة الفلانية (ضيعة بباب حلب) ، وتحت (احمل) : يقاد إليه الفرس الفلانى ، وتحت (عل) : قد فعلنا ، وتحت (سل) : قد فعلنا ما سأل ، وتحت (أعد) : قد أعدناك إلى حسن رأينا فيك ، وتحت (زد) : يزداد كذا ، وتحت (تفضل) : قد فعلنا ، وتحت (أدن) : قد أدنيناك ، وتحت (سر) : أمرنا له بجارية ، وتحت (صل) : قد فعلنا . (انظر إحكام صنعة الكلام ١٦٤) .

فقد وردت ألفاظُها والأمر فيها على صيغة واحدة [فاقتلوا المشركين ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد] ، لكنْ فَرَّقَ بينها بالواو ، وكان يكفى هذا فى التخفيف من أثر هذا التتابع

لكن التعبيرَ القرآنىَّ مع التفريق بالعطف لم يَرِد التكريرُ فيه إلا بين فعلين اثنين ، وهما : [خذوهم واحصروهم] – أما الصيغة الأولى [فاقتلوا] : فإنها أضيف إليها كلام آخر ، فقيل : ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ، ولم يقل ﴿ اقتلوا المشركين وخذوهم » ، ثم لما جاءت الصيغة الرابعة [واقعدوا] أُضيف إليها كلام آخر أيضا ، فقيل : ﴿ واقعدوا لهم كل مرصد ﴾

ولهذا جاءت الآيةُ غيرَ ثقيلة على النطق ، مع توارد صيغة الأمر فيها أربع مرات .

* * *

[**الملك القدوس . .**] :

كذلك وردت ألفاظٌ على صيغة الأسماءِ والصفات ، يتبع بعضُها بعضاً ، فقَبُحت الكلماتُ ، وثقلت فى النطق ، ودخلت الألفاظُ فى باب المعاظلة ، جاء ذلك فى شعر أبى الطيب المتنى فى قوله يمدح عبيد الله بنَ خراسان الطرابلسى :

دانٍ بعيدٍ مُحبٍ مُبغِضٍ بَهِجٍ أغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ
نـدٍ أبِىٍّ غَـرٍ وافٍ أخى ثِقَةٍ
جَعْدٍ سَرِى نَهٍ نَدْبٍ رِضًى نُدُسِ(1)

---

(1) بهج : فرح ، شرس : صعب ، ند : جواد ، أبى : يأبى الدنايا ، غر : مغرى بفعل الجميل ، جعد ، ماض فى الأمر ، سرى : من السرو وهو الشرف ، نه : ذو نهيه وهو العقل ، ندب : =

فهذه كلُّها صفات مدح زادت عن العشرين صفة ، ولكنها فى تراكُبِها وتداخُلِها جاءت على غاية الصعوبة ، ونهاية الثقل ، إذْ هو تكريرٌ للصفة ، وهو وإن لم يكن تكريرا للحروف إلا أنه أخوه .

وقد رَدَّ صاحبُ الطراز الصعوبَة التى اكتنفت البيتين إلى سوء تأليف ألفاظها ، التى تشبه قطعَ الفضةِ أو الذهب التى سُبكت سبكا فاسدا .

لكنْ عندما تكررت هذه الأسماء فى كلام رب العزة جاءت على أحسن وجه من السهولة ، والخفة ، لحسن التأليف وجودة السبك ، كما فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر ٢٣ ، ٢٤][1] .

وهكذا نجد أن هذه الألفاظ استعملها العرب فى مواطن ، فجاءت فيها كريهة على النفس ، ثقيلة على السمع ، ينفر منها الذوق ، إذْ لم يتح لهم الذوقُ الصافى ، والفطرة النقية ، والملكةُ الأصيلة ، حتى تُخَلِّىَ ما بينها وبين ما يَعْلَقُ بها من ثقلٍ أو كراهية .

= سريع فى الأمر إذا ندب إليه ، رضى : مرضى القول ، ندس : العارف البحاث . والمعنى : هو قريب ممن يقصده ، بعيد ممن ينازعه ، محب للفضل وأهله ، مبغض للنقص وأهله ، يبهج بالقصاد ، حلو لأوليائه ، مر على أعدائه ، لين حسن الخلق على الأولياء ، شرس صعب على الأعداء – وهو ندى الكف ، يأبى الدنايا ، مغرى بفعل الخير ، واف بالعهد ، موثوق به ، ماض فى أمره لا يقف عند قول لائم ، شريف ، ذو عقل ، سريع فى الأمر ، مرضى القول والفعل ، بحاث فى الأمور ، عارف بها . (ديوان المتنبى جـ ١/١٨٩) .

(١) الطراز جـ ٣/٥٦ ، ٥٧ .

لكنَّ القرآن الكريم حينما استعملها ، وأجراها فى آياته ، جردها من كل ما يعلق بها من ثقل ، فوقعت على الأسماع موقعا حسنا ، وكانت طيبة المجرى على اللسان ، لم يتصل بسامعها ما يؤذيه . فسبحان الرحمن ، الذى علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان .

* * *

تخير اللفظ المؤدى إلى المعنى دون قصد إلى الحسن اللفظى

القرآن الكريم قد يعبر عن المعنى المراد بلفظ معين ، ويحرِصُ على أن يكون هذا اللفظُ بذاتهِ هو المقصود دون غيره من الألفاظ التى يُتوهَّم أن تقومَ مقامَه فى أداء المعنى ، أو تَسُدَّ مسدَّه فى الوصول إلى الغرض .

وقد يتأتَّى مع غير اللفظ القرآنى الحليةُ اللفظيةُ – كالجناس أو المقابلة – وهى من المحسنات البديعة التى يحن إليها الذوق العربى ، ويميل إليها السمع ، وتقعُ على الأذن موقعا جميلا ، فتُعجِبُ وتطرب .

لكن التعبير القرآنى ، يعرض عن هذا اللفظ الذى تأتى معه الحليةُ اللفظية ، ويُغْفِل هذه الكلمة التى يتهيأ معها المحسن البديعى من أجل الغرض الأسمى ، والمقصود الأول ، وهو حسنُ المعنى ، وقوةُ المضمون .

* * *

[ذهب الله بنورهم – دون – ضوئهم] :

تأمل قوله تعالى فى تشبيه حال المنافقين ، واضطرابهم فى أمر الدِّين :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة ١٧] .

فلماذا آثر القرآن التعبيرَ [بنورهم] فى قوله [ذهب الله بنورهم] ، ولم يقل : [ذهب الله بضوئهم] ، حتى يكون الكلام متجانسا ومتشاكلا مع قوله [أضاءت] فى قوله : [فلما أضاءت ما حوله] ؟

السبب فى ذلك : أن لفظَ [بنورهم] فى الآية ، أبلغُ من لفظ [بضوئهم] فى نَفْى النور عنهم ، من حيثُ إن [الضوء] فيه الدلالة على النور وزيادة ، فلو قال : [ذهب الله بضوئهم] ، لكان المعنى يعطى ذهابَ تلك الزيادة ، وبقاءَ ما يسمى نورا ، لأن [الإضاءة] : هى فرطُ الإنارة ، لقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾[يونس ٥] ، فقد جعل الله تعالى للشمس التى هى أكبر [الضياءَ] ، وجعل للقمرِ [نورا] ، فكلُّ ضوء نورٌ ، وليس كلُّ نورٍ ضوء .

وهذا كقوله تعالى فى وصية للوالدين : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾[الإسراء ٢٣] ، فإن هذا يدل على النهىِ عن الضرب أيضا ، إذ المقصودُ من مَنْع التأفيف : هو الإكرامُ ، وعدمُ الإهانة ، والإهانة بالضرب أكثرُ من الإهانة بالتأفيف ، فالمنع فيه أولى وأوجب .

وكأن المعنى : ذهب الله بنورهم وما فوق ذلك من النور – وهو الضوء .

فالغرض من قوله [ذهب الله بنورهم] : إنما هو إزالة النور عنهم أصلا ، ولذلك قال الله تعالى بعد ذلك : ﴿ وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾ ، فهو إذَا أزال النُّورَ فقدَ أزال الضوء ، فَنَفْىُ [النور] فيه إذهابٌ للقليل وهو [النُّور] ، والكثير وهو [الضَّوْء] – بخلاف

[الضوء] ، فإنما يطلق على الكثير فقط ، ففى نَفْيِه إذهابٌ للكثير ، دون القليل .

وقال : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ ، ولم يقل : « أذهب الله نورهم » لأن كل من ذهب بشيء فقد أذهبه ، وليس كل من أذهب شيئا ذهب به ، لأن الذِّهاب بالشيء : هو استصحاب له ، ومُضِيٌّ به ، وفى ذلك نوع احتجارٍ بالمذهوب به ، وإمساكٌ عن الرجوع إلى حالته والعَوْدِ إلى مكانه ، وعلى ذلك جاء التعبير فى قصة يوسف - عليه السلام - لما كان ذهابه مع إخوته بلا عودة : ﴿فلما ذَهَبُوا بِهْ﴾ [يوسف ١٥] ، وكذلك قولهُ تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ ﴾ [المؤمنون ٩١] ، والمعنى على ذلك : أخذ الله نورهم وأمسكه ، ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر ٢]

وليس كذلك الإذهاب بالشيء ، لزوال معنى الاحتجار منه[1] .

* * *

[يستحيون نساءكم - دون - بناتكم] :

ويمتن الله تعالى على بنى إسرائيل إذ نجاهم من آل فرعون ، فيقول :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾
[البقرة ٤٩]

---

(١) المثل السائر جـ ٢/ ٢١٠ ، الجامع الكبير ١٧٠ ، المعترك جـ ٤٢٩/١ ، جـ ٣٣٦/٢ ، الكشاف جـ ٧٤/١ .

وفى القصة نفسها ، يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

[إبراهيم ٦]

فلماذا قال فى الآيتين [أبناءَكم] و [نساءَكم] فى قوله [يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم] ، ولم يقل : [ويستحيون بناتِكم] بدلا من [ويستحيون نساءَكم] ، ليقابلَ لفظُ [الأبناءِ] لفظَ [البناتِ] ، فتحسنُ المقابلةُ فى الآيتين ، وهى حليةٌ لفظية بديعة مرغوبٌ فيها ؟

فى اختيار كلمةِ [نساءَكم] فى الآيتين بدلا من [بناتِكم] سرٌّ بلاغىٌّ عظيم ، إذ فى لفظ [النساء] إشارةٌ إلى الوصفِ الذى من أجله استحيي فرعونُ البناتِ ، وهو بقاؤهن حتى يَكْبَرن ، ويتطلَّعْنَ لطلب الرجال ، فلا يجْدن ، فيحتقروهنّ ، ويَذِلُّوهنّ ، لبقائهنّ بغير رجال ، فيصرن مفترَشَاتٍ لأعدائهنّ ، ويتعلقُ العارُ بهنّ .

كما أن البناتِ فى حال صغرهن ، لا مَئونة منهن ، ولا مشقة ، وإنما تلحق المئونةُ والمشقةُ آباءَهم إذا كبرْنَ ، وصِرْنَ نساءً .[1]

فلهذا السرِّ العظيم وذلك المعنى الجليل ، عبرِّ بـ [النساء] بدلا من [البنات] ، وفوَّتَ التعبيرُ جمالَ المقابلة ، لما هو أجملُ منه وأوقع ، وهو جمالُ المعنى ، وسُمُوُّا الغرض .

* * *

(١) المعترك حـ ٣٨١/١ .

[وما أنت – بمومن – دون – مصدق] :

ويقول تعالى حكاية عن إخوة يوسفَ – عليه السلامُ -- حينما أحبوا أن يعتذروا لأبيهم عن فَعلتهم به :

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف ١٧]

فما الحكمة فى عدول التعبير القرآنى عن [وما أنت بمصدق] ، إلى [وما أنت بمؤْمِن] ، مع أن فى التعبير بـ [وما أنت بمصدق] ما يؤدى معناه مع زيادة رعاية التجنيس مع لفظ [صادقين] فى الآية ؟ .

اختار القرآنُ هذا التعبير [وما أنت بمؤمنٍ] ، دون [وما أنت بمصدِّقٍ] ، لأن فى كلمةِ [مؤمن] ماليس فى كلمة [مصدِّق] ، لأن معنى قولك : فلان مصدِّقٌ لى – أى قال لى : صدقت ، – وأما [مؤمن] معناه : مع [التصديق] إعطاءُ الأمن ، ومقصودُ إخوةِ يوسفَ : التصديقُ وزيادة ، وهو طلبُ الأمن ، فلذلك عَبَّر به .[1]

فالجناسُ والمقابلَة وغيرهُما من المحسنات البديعية ، تحلو عند العرب ، وتجملُ فى الكلام ، وتقع على السمع موقعا حسنا ، وتمرُّ على الألسنةِ مرا طيبا ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد يتجاوزُهُ التعبيرُ القرآنى ، ويغفلُ ملاحظته فى النظم البيانى من أجل ما هو أجملُ منهُ وأحسن ، وهو إصابةُ المعنى ، وبلوغُ الهدف .

---

(١) المعترك جـ ٤٠٢/٢ .

فالحِلَى البديعية ليست من المقاصد الأولى فى التعبير القرآنى ، وإنما تكون فيه بقدر ما يُعْطَى الطعامُ من الملح ، إذ المقصودُ الأول ، والهدفُ الأسمى هو توفيةُ المعنى ، وإتمامُ الغرض ، والوصولُ إلى المراد .

[أساءوا بما عملوا – دون – بالسيئة] :

يقول تعالى مبينا عاقبة المشركين وجزاءَ المحسنين :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم ٣١]

فقد كان من مقتضى الصناعة البيانية ، والبلاغةِ العربية ، أن يؤتى بالتجنيس للازدواج فى صَدْر الآية ، كما أتى به فى عَجزِها ، فيقول : [لَيجزى الذين أساءوا بالسيئة ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى] ، فلماذا عدل عن هذا التعبير – مع ما فيه من التجانس – إلى ما جاء عليه التعبيرُ القرآنى ؟

التعبير القرآنى الذى عليه الآية لاحظ غاية التهذيب ، وراعى نهاية اللطف عند نظم الكلام ، فلو حققنا فضيلة السجع فى صدر الآية ، كما هو موجود فى عَجُزها ، وجرينا على مقتضى الصناعةِ البيانية ، فقلنا : [ليجزى الذين أساءوا بالإساءة – أو بالسيئة – ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى] ، لفات المطلوب حيث إن الضمير فى [يجزى] عائدٌ على الله سبحانه وتعالى ، فيكونُ فى ذلك إيهامُ نسبة الإساءة –أو السيئة- إلى المولى عز وجل وفى ذلك تجاوزٌ للأدب مع الذات العلية ، وإساءةُ التصرف فى التعبير فى جانبها .

ولتفادى هذا الإيهام ، والبعدِ عن تجاوز الأدب مع الذات العلية ، والتحسين فى العبارة ، وجب أن يُعدل عن لفظ المعنى الخاص وهو - [ليجزى الذين أساءوا بالسيئة] إلى ما يرادفه وهو [ليجزى الذين أساءوا بما عملوا] ، حتى لا تُنْسَبَ السيئة إلى الله تعالى ، وعُوِّض عن هذا التجنيسِ المزدوَجِ فى الآية بالإرادف، والإتيان بـ [بما عملوا] بدلا من [بالسيئة] لأن فى ذلك تَجنُّبَ الإساءة مع الله تعالى ، وتَوخِّى التهذيبَ فى العبارة فى نظم الكلام .

وهذا بخلاف قوله تعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى ٤٠]. ، فليس هذا محذور ، لذلك جرى الكلام على مقتضى الصناعة ، وجاء الجناس سهلا مستساغا[1] .

* * *

[لباس الجوع - دون - طعم الجوع] :

ويضرب الله تعالى المثل بمكة فى سعادة أهلها ، وأمنها ، وأمانها ، ولكنها لما كفرت بأنعم الله عليها ، وأعرضت عن دعوته ، بدل الله حالها ، فيقول : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل ١١٢] .

---

(١) البرهان جـ٣/٣٨٠ ، بديع القرآن ١٦٢ .

ففى كلمة [لباسَ الجوع والخوف] تصويرٌ بديع ، حيث شبه ما أصاب الناس من الجوع والخوف بما يلبَسُون من ملابس ، فالجوعُ والخوفُ يعم الناسَ ويشملُهم ، كما تَعُمُّ الملابُس الجَسَد ، وقد قَرَن هذا التصويرَ بما يلائم [الجوع] فأتى بلفظ [فأذاقها] ، حيث إن المراد بالإذاقة إصابةُ القوم وابتلاؤهم بآلام الجوع ابتلاءً بلغ حدَّ الإحساس به ، كالشيء الذى يذاق .

والسؤال الذى يرد على الذهن هو : لِمَ لمْ يكن التعبيرُ [فأذاقها الله طعم الجوع] بدلا من [لباس الجوع] ، ليلائم قوله [فأذاقها] ، إذ [طَعْمُ الجوع] ، و[الإذاقةُ] من وادٍ واحد ؟

السبب فى ذلك : أن لفَظَ [الطعم] وإن كان ملائما للفظ [الْإذاقة] ، لكنه لو قال فى التعبير : [فأذاقها الله طعم الجوع] بدل [لباس الجوع] لما كان هذا التعبيرُ مقوياً لبيان اشتمالِ الجوع والخوف لهم ، ولما استفيدَ منه عمومُ أثرِهما على جميع البدن ، كما تعمُّ الملابسُ الجسمَ وتغطى جميعَ الجَسَد .

لهذا جاء التعبيرُ [لباسَ الجوع] إذ يحصلُ من لفظ [لباسَ] فى الآية المبالغةُ فى عموم الجوع والخوف ، واشتمالهما على كل جزء فى الجسم ، وهذا المعنى يَفُوت لو جاء التعبير [طعم الجوع] .

ولو غيَّر القرآنُ وقال بدلا من لفظ [فأذاقها] : [فكساها الله لباس الجوع والخوف] ، لكان فى الكلام ترشيحا وتقويةً لهذا التصوير ، إذ [الكسوةُ] مما يلائم المشبه به ، وهو الملبوس ، فهما من واد واحد ، وذلك مما يقوى التصوير .[1]

(١) الطراز جـ ٢٣٦/١ .

لكنَّ التعبيرَ القرآنيَّ آثر اختيار [فأذاقها] دون [فكساها] ، إذ [الإذاقة] أبلغُ فى تصوير ما أصاب هؤلاء الناس من الجوع والخوف ، حيث إن [الذوق] أبلغ فى الإحساس ، وأدخل فى الإيلام من قوله [فكساها] ، فالتعبير بـ [الإذاقة] إشعارٌ بشدة الإصابة ، بخلاف التعبير بالكسوة ، فليس فيها ما يفيد ذلك .

* * *

[وتذرون أحسن الخالقين – دون – وتدعون] :

ولأن الحلية اللفظية والألوانَ البديعية ليست من المقاصد الأولى فى التعبير القرآنىّ ، بل المعنى هو الهدفُ الأسمى ، والغرضُ الأول – أخطأ بعض الأدباء حينما رأى فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ [الصافات ١٢٣ – ١٢٥]

فقد رأى أن التعبير فى الآية لو كان [وتَدعُون] بدلا من [وتَذَرُون] ، لكان فيه مجانسة ، ويكونُ التعبيرُ على رأيه هكذا : [أَتَدْعُون بَعْلاً ، وتَدعُون أحْسَنَ الخالقين] ؟ .

وقد أجاب الإمامُ فخر الدين عن هذا : بأن فصاحة القرآن ليست لأجل رعايةِ هذه التكليفات ، بل لأجل قوةِ المعانى ، وجزالة الألفاظ .

وأجاب غيره : بأن مراعاةَ المعانى أولى من مراعاة الألفاظ ولو قيل : « أتَدْعُون بَعْلاً ، وتَدعُون أحْسَن الخالقين » ، لوقع الالتباس على القارىء ، فيجعلُها بمعنى واحد تصحيفا .

وأجاب بعض العلماء (الخوِّيى) : بأن [يَدَعُ] أخصُّ من [يَذَر] ، لأن [يدَع] بمعنى [تَركَ الشيءَ مع اعتنائه به] ، وذلك بشهادة الاشتقاق ، نحوُ [الإيداع] ، فإنه عبارة عن ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها ، ولهذا يُختار لها من هو مؤتمنٌ عليها ، ومن ذلك [الدَّعةُ] ، بمعنى الراحة ، وأما [تَذَر] ، بمعناه [التركُ مطلقا] ، أو الترك مع الإعراضِ والرفض الكلى .

قال الراغب : يقال : (فلان يَذَرُ الشيء) أى يقذفُه لقلة الاعتداد به ، ومنه قيل : (الوزرة) وهى قطعة من اللحم ، لقلة الاعتداد بها .[1]

ولاشك أن السياق إنما يناسب ما جاء عليه التعبيرُ القرآنى ، حيثُ إنه قد أُريد هنا تشنيعُ حالِ قومِ إلياس – عليه السلام – فى الإعراض عن ربهم ، وأنهم قد بلغوا الغاية فى الإعراض عن دعوة الله تعالى ، مع اعتنائهم بمعبوداتهم ، وحبِّهم لآلتهم ، وهذا ما يفيده التعبير بـ [تذرون] فى اللغة .

وفى هذه الشواهد العديدة ما يبرهن على أن التعبير فى القرآن يهمه فى الدرجة الأولى أداءُ المعنى تاما ، والوصولُ إلى المراد من الآية ، وقد يتخطى المحسنَ اللفظىّ ، ويتغافلُ عنه ما دام يتعارض مع المقصود الأصلىّ ، والغرض الأساسىّ .

* * *

---

(١) المعترك جـ ٤٠٢/١ ، المفردات للأصفهانى ٣٠٨ .

التقديم والتأخير

لكل كلمة فى الجملة العربية ترتيبٌ خاص بحسب وضعها اللغوى ، فثلا : الفعل يتقدمُ على الفاعل ، والفاعلُ يتقدم على المفعول ، ثم تأتى بعد ذلك المتممات ُ للجملة ، كالظرف ، والجار والمجرور ، والحالِ ، وغيرِها ، كذلك المبتدأ يتقدم على الخبر .

هذا هو الأصل فى ترتيب الجمل ، وينبغى ألا ننقلَ كلمةً عن موضعها احتراما لهذا الأصل .

غير أنه قد يعرضُ من المزايا والمقتضيات ما يدعو إلى نقل بعض الكلمات فى الجمل من موضعها ، فنقدمُ كلمةً أو نؤخرها ، وهذا ما يُدْعى بالتقديم والتأخير ، ويحتلُّ هذا الموضوعُ فى البلاغة العربية مكانا ساميا .

والتقديم والتأخير لغرض بلاغى ، ولسر من أسرار التعبير ، يُكْسِبُ الكلامَ جمالا وتأثيرا ، لأنه سبيلٌ إلى نقل المعانى فى ألفاظها إلى المخاطبين ، كما هى مرتبةٌ فى ذهن المتكلم حَسَبِ أهمِّيتها عنده ، فيكون الأسلوبُ صورةً صادقة لإحساس المتكلم ، وصدقِ مشاعره .

– التقديم للاختصاص :

فقد تتقدم الكلمةُ فى الذِّكر لاختصاصها بأمر مَّا ، كقولنا : « تاجرٌ علىٌّ » فتقديم الخبرِ [تاجرٌ] على المبتدأ [علىٌّ] ، يفيد تخصيصَه بالتجارة من بين بقية الأعمال ، فهو لا يعملُ عملاً آخرَ سِوى التجارة –

أمّا لو جعلتَ المبتدأ – على ترتيبه – فقلت : عليٌّ تاجرٌ ، فهذا التعبيرُ يفيد الإخبارَ بأنه تاجر من غير تعرض لمعنى من المعانى البليغة ، وهذا لا يمنع أن يكون له عملٌ آخرَ كالتدريس ، أو الزراعة ، مثلا .

فتقديم الخبر على المبتدأ ، أفاد قصرَهُ على التجارة فقط ، دون غيرها من الأعمال .

وعلى هذا ورد قولهُ تعالى فى شأن يهود بنى النضير عندما تحصنوا بحصونهم بالمدينة ، وَوَثِقُوا بمنعها إياهم ، فقال تعالى يصور حالهم هذا :

﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾

[الحشر ٢] فإنما قُدِّم الخبر[1] [مانعتُهم] على المبتدأ [حصونُهم] ، ولم يقل : « وظنوا أن حصونَهم مانعتُهم ، أو تمنعهُم » ، لأن فى تقديم الخبر وهو [ما نعتُهم] على المبتدأ [حصونهُم] دليلا على فرط اعتقادهم فى حصانتها ، ومبالغةً فى شدة وثوقهم بمنعها إياهم ، وأنهم لا يُبَالون معها بأحد ، ولا يُنَال منهم نَيْل .

وفى تصيير ضمير [هم] اسما لـ [أن] ، وإسنادِ المنع والحصون إليهم ، دلالة بالغة على تقريرهم فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنَعَة ، لا تُرمْى حوزتُهم ، ولا يُغْزَوْن فى عُقْر دارِهم ، ولو أخر الخبر لم يعطنا شىء من هذه الفوائد ، [2] والأسرار .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة إبراهيم – عليه السلام – حينما نصح

---

(١) هذا أحد الوجهين ، والوجه الآخر : أن [ما نعتهم] خبر أن ، و[حصونهم] فاعل به ، والخبر [من الله] .

(٢) الطراز جـ ٦٨/٣ ، الجامع الكبير ١١٠ .

أباه بترك عِبادة الأصنام ، فقال له أبوه فيما يحكيه رب العزة : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [مريم ٤٦] . فقُدِّم خبرُ المبتدأِ [أراغب] ، ولم يقل : [أنت راغب] ، ليدل بذلك على إفراط تعجبه فى الميل عنها ، ومبالغةً فى الاهتمام بأمرها ، وواضعا فى نفسه أن مثل آلهته لا ينبغى الرغبةُ عنها ، ولا يصحُّ الإعراضُ عن عبادتها .[1]

ومن ذلك أيضا قوله تعالى فى وصف مشهد من مشاهد يوم القيامة :

﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء ٩٧] .

فقد قُدم الخبر [شاخصةٌ] على المبتدأ [أبصارُ] ، ولم يقل : [أبصارُ الذين كفروا شاخصة] ، لأمرين :

أولا : قُدِّم الضمير [هى] ، ليدل به على أنهم مُخْتصُّون بالشخوص دون غيرهم من بقية أهل الحشر .

ثانيا : تقديم الخبر [شاخصة] أفاد أن الأَبصار مُختصَّةٌ بالشخوص من بين بقية صفاتها من كونها حائرة ، أو مطموسة ، أو مُزْوَرَّة ، إلى غير ذلك من صفات العذاب .

ولو قال : « واقترب الوعد الحق فشخَصَتْ أبصارُهم » ، لم يُعْطِ من هذه الأسرار معنى واحدا[1] .

* * *

---

(١) الطراز حـ ٦٨/٣ ، الجامع الكبير ١١٠ .

وقد يتقدم المفعول على الفعل ، فيفيد أيضا معنى الاختصاص ، فقولنا : سعيداً علَّمتُ – بتقديم المفعول – يفيد أنك خَصَصْتَ سعيدا بهذا التعليم ، ولم تعُلِّم غيره هذا العلم .

أمَّا لو قدمتَ الفعل وأخرت المفعول – على الأصل – فقلت – علّمتُ سعيداً، فهذا التعبير يفيد أنك علَّمت سعيدا ، من غير تعرض لمعنى من المعانى البليغة ، وهذا لا يمنعُ أن يكون هناك من شَمِلتهم عملية التعليمُ غيرَ سعيد ، كعلى ، ومحمد ، وسعاد – مثلا – فتقديم المفعول أفاد اختصاصُ سعيدٍ بالتعليم دون غيره من الأشخاص .

وعلى هذا المعنى ورد قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة ٥] . والمعنى : نخصك بالعبادة ، ونخصك بالاستعانة ، فلا نعبد غيرك ، ولا نستعين بسواك .

ولو كان التعبير : [نعبدك ونستعينك] ، لم يُفد هذا المعنى ، وإنما يَحتمل أن يُشرِك الإنسانُ أحدا مع الله تعالى فى العبادة والاستعانة ، لهذا كان التعبير القرآنيُّ أبلغ ، وأقوى فى قصر العبادة والاستعانةِ بالله تعالى .

وعلى هذا جاء قوله تعالى : ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر ٦٦] .

كذلك تقَدَّم ما يقومُ مَقامَ المفعول فى قوله تعالى يصف المؤمنين :

﴿هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة ٢ ، ٣] .

فقدَّمَ المفعولَ [مما رزقناهم] على الفعل [ينفقون] لسر لطيف ، وغَرض مقصود ، وهو أن الإنسان قد يُنفق ما ليس له ، فلو قُدِّم الفعلُ على المفعول ، فقيل : [ينفقون مما ررقناهم] ، لسبق إلى الوهم قبلَ ذكر المنفَق جوازُ كونِه مما ليس له ، ومَعَ تأخير المفعول يزول هذا الوهم ، ويرتفع ذلك اللبس[1] .

* * *

وقد يتقدم الظرفُ – وهو الجار والمجرور – فى الجملة ، فإذا جاء فى مقام الإثبات ، يكون تقديمُ الظرفِ أبلغَ من تأخيره ، ويكونُ الغَرض إفادة الاختصاص وإسناد الكلام الواقع بعده إلى صاحب الظرف ، دون غيره ، كقوله تعالى يتوعدُ المشركين ويهددهم :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية ٢٢ – ٢٦] .

فتقديم الظرف على المصدر فى قوله تعالى [إنا إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم] يفيد التشديدَ فى الوعيد ، ولا يكون ذلك عند تأخيره ، لأنه يعطى من المعنى : أنَّ إيابَهم ليس إلا إلى الله ، المقتدرِ على الانتقام ، وأنَّ حسابهم ليس إلا عليه ، وذلك بخلاف ما لو قال : [إن إيابهم إلينا ، ثم إن حسابهم علينا] ، فيحتملُ أنْ يَظنَّ المخَاطبُ عند سماعه [إن إيابهم] قبل قوله [إلينا] أن الإياب إلى غير الله ، وكذلك [إن حسابهم علينا] .

(١) الجامع الكبير ١١٢ .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن ١] .

فإن تقديم الظرفين فى قوله [له الملك وله الحمد] ، يدل على اختصاص المُلْكِ والحمدِ لله ، لا لغيره .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ [الروم ٤٤] فإن تقديم الظرف ها هنا أشدُّ موقعاً من تأخيره ، وأفخمُ شأنا ، وذلك للدلالة على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر ، وأنه لا يتعداه إلى غيره .

فإن ورد تقديمُ [الجار والمجرور] فى مقام النفى ، كقوله تعالى فى وصف شراب أهل الجنة : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات ٤٥ – ٤٧] ، أفاد الاختصاصَ مع التفضيل .

فتقديمُ الجار والمجرور [فيها] على [غولٌ] ، أفاد اختصاصَ خمورِ الجنة بأنها لا تغتالُ العقول ، ولا تصدِّعُ الرؤوس ، وتفضيلها على خمور الدنيا التى من شأنها ذلك .

ولو أخَّر الجارَّ والمجرور فقيل [لا غولٌ فيها] ما أفاد هذا التعبيرُ ما أفاده حالَ تقديم الجارِّ والمجرور ، وصار كقوله تعالى فى وصف القرآن الكريم ﴿ ذلك الكتابُ لا رَيْبَ فيه ﴾ [البقرة ٢] ، فالجار والمجرور [فيه] بتأخيره فى الجملة ، أفاد نَفْىَ الريبِ ، وإثباتَ أنه حقٌّ وصدق ، وليس باطلا وكَذِباً ، كما كان يدَّعيه المشركون ، فتأخيرُ الجار والمجرور أفاد النفىَ من غير تفضيل .

ولو قُدِّمَ فى الآية فقيل : [لا فيه ريب] لأفاد التفضيلَ ، فدلَّ على نفىِ الريب عن القرآن الكريم ، وتفضله على كتب أخرى فيها ريب - وهذا المعنى غيرُ مقصود ولا مراد .[1]

وهذا مثلُ قولنا : [لا عيبَ فى الكتاب] ، وقولِنا : [لا فيه عيب] ، فالتعبير الأول : يُفيد نَفْىَ العيب ، وخُلُوَّ الكتاب من كل ما يُنْقِص - وليس فيه التعرضُ لغيره من الكتب - أما التعبيرُ الثانى : فيفيدُ أن هذا الكتاب ليس به عيب ، ومفضّل على غيره من الكتب ، بأنْ لَيْس فيه ما فى غيره من العيوب .

* * *

التقديم للفضل والمزية :

وقد يستخدمُ القرآنَ الكريم طريقةَ التقديم لا لغرض الاختصاص - كما سبق فى الآيات القرآنية - وإنما لقصد تفضيلِ المقدَّم على غيره ، كما نشاهدُ فى التعبير القرآنىِّ حينما يُقَدِّم [السمعَ] على [البصر] حيث وقع ، مصدرا ، أو فعلا ، أو اسما ، كقوله تعالى فى تحديد المسئولية الذاتية : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء ٣٦] ، وقوله تعالى لموسى - عليه السلامُ - وأخيه : ﴿ لا تَخَافَا إِنَّنِى معكُمَا أسْمَعُ وأرَىَ ﴾ [طه ٣٦] ، وقوله : ﴿ إِنَّه هو السَّميع البَصِير ﴾ [الإسراء ١] ، ﴿ وأنَّ اللهَ سميعٌ بَصيرٌ ﴾ [الحج ٦١]

---

(١) انظر المعترك جـ ٢/١١٢ ، الجامع الكبير ١١١ ، المعانى فى ضوء أساليب القرآن ٢٣٠ ، ٢٨٧ .

وقد فهم الشافعيُّ من تقديم لفظ [السمع] على [البصر] فى هذه الآيات ، تفضيلَ السمْعِ على البصر ، حيث إن الله قدَّمه فى القرآنِ حيث وقَع .

كما أن العلومَ الحاصلة من السمع أضعافُ العلومِ الحاصلةِ من البصر ، فإن البصَر لا يُدرِك إلا بعض الموجودات القريبة المشاهَدَات بالعين ، والسمعَ يُدرِك الموجودِات والمعدومات ، والحاضرِ والغائب ، والقريبِ والبعيد ، فلا نسبة لإدراك البصر إلى إدراكه .

كما أن فَقْد السَّمْع يوجب ثَلْمَ القَلْبِ واللسان ، ولهذا كان الأطرشُ خِلْقةً لا ينطِق فى الغالب ، أما فقدُ البصر فربما كان مُعِيناً على قوة إدراك البصيرة .

وفضلُ [السمعِ] على [البصرِ] كَشَفَ عنه العلمُ الحديث ، بعد نزول القرآن بقُرون ، كما تؤيده الحقائقُ والمشاهَدة .

وأما فقدُ [البصر] ، فإنه ينعكس على البصيرة باطنا ، فيَقْوَى إدراكها ، ويَعظُمُ فهمُها ، ولهذا نجد كثيرا من العميان عندهم من الذكاء الوقاد ، والفطنةِ ، وضياءِ الحس الباطن ، ما لا نجدُه عند البصير ، ولا ريب أن سَفَر البصر فى الجهات والأقطار ، ومباشرتَه للمبصرات ، على اختلافها ، يوجب تفرقَ القلب وتشتيتَه ، ولهذا كان كثيرٌ من العلماء ، والفضلاء ، وأئمة الإسلام مَنْ هو أعمى ، ولم يُعرف فيهم من هو أطرش .

ولهذا يقول بشارُ بنُ برد :

إذا وُلِـد المولـودُ أعْـمَـى وجـدتَـه

وجَدّكِ ، أهْدَى من بصيرٍ وأجْوَلاَ

عَميتُ جنيناً ، والذكاءُ من العَمى

فجئتُ عجيبَ الظَّنِّ ، لِلْعِلم موئلا

وغاب ضياءُ العَيْنِ للقلب رَافدًا

بْقلبٍ ، إذَا مَا ضيَّع الناسُ حصَّلا

ويَرْمى الله تعالى الكفارَ بْالجهل والعَمى ، فَيقول :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾

[يونس ٤٢ ، ٤٣] فيُقْرِنُ القرآنُ الكريم بذهاب السمع ذهابَ العقل ، ولم يقرنْ بْذهابِ النظر إلاَّ ذهابُ البَصَر ، وذلك دليلٌ على أن [السمع] مقدمٌ على [البصر] .

فالصمم فى الآية مرتبط بالعقل ، والعمى مرتبط بالبصر .

وفوق ذلك فإن فى الآية ما يسمى بـ [المضاعفة] ، وهى : أن يتضمنَ الكلامُ معنيين ، معنى مصرحٌ بْه ، ومعنى كالمشار إليه ، فالمصرحُ بْه ها هنا : أن الرسول – عليه السلام – لا يقدرُ على أن َيهدىَ من عمىَ عن الآيات ، بمعنى أنه صرف قلبَه عنها ، فلم ينتفع بْسماعها ورؤيتها .

والمعنى المشار إليه : أنه فضل السمع على البصر ، لأنه جعل مع الصمم فُقدانَ العقل ، ومع العَمَى فُقدانَ النظر فقط .

وهذا من معجزات القرآن الكريم ، فربْطُه السمعَ بالعقل ، وإشارتُه إلى أفضليته على البصر، كشف عنه العلم الحديث ، وأقرته المشاهدة .[1]

وأما العمى فلم يعقد بصاحبه يوما عن بلوغ أسمى المراتب فى النبوغ والعبقرية ، بل لعله من المرشحات لها .

يقول الشاعر :

إذ حَلَّ نورُ الله فى قلبِ عبدِه
فما فَاتَه من نور عيْنَيْه محتقرُ

لقد طبَّق الدنيا [المعرى] شهرةً
وسارت مسيرَ الشَّمس ذكراهُ والقمر

فلا تحسِبُ العيَن البصيرَة مغنماً
لمن ليس ذا قلبٍ ، وإنْ زَانَها الحورُ

وعُمِّر فيها المبصرون كأنهمُ
هواناً على التاريخ ليسوا هم البشرُ

والسمع هو الحاسة الوحيدة التى تؤدى مهمتها من وقت ولادة الإنسان ، وتظلُّ تؤدى مهمتها حتى عند النوم ، فالعين تُغْمِض ، لكنَّ الأذنَ تظلُّ مستقْبِلَةً دائما ، ولهذا لما أراد الله تعالى أن ينيم أصحاب

---

(١) انظر فى تفضيل السمع على البصر : بدائع الفوائد جـ١/٧١ ؛ الإتقان جـ ٢/١٠١ ، الصناعتين ٣٣٧ ، فن الأسجاع جـ ١٩٤/٢ ألحان الأصيل ٣٤١ ديوان بشار جـ ١٣٦/٤ ، البديع فى ضوء أساليب القرآن ١٥٠ ، على مائدة الفكر الإسلامى ٣٣٤ - ٣٤٠ .

الكهف مدة طويلة ، وهذا على غير المألوف من قانون البشر ، وهم قوم فى كهف ، والكهف فى جبل ، والجبل فى صحراء ، وهناك برقٌ ورعد ، وأصواتٌ وحيوان ، فلما أراد الحق سبحانه أن يمنع عنهم هذه المنبهات التى تُخرجهم عن النوم ، قال : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف ١١] .

والحق سبحانه لم يقدم [البصَر] على [السمع] إلا فى آية واحدة فى القرآن الكريم ، يقول تعالى فى وصف مشهد من مشاهد يوم القيامة :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ [السجدة ١٢] .

فالنظام فى جميع الآيات كان تقديمَ [السمع] وتأخيرَ [البصر] ، فلماذا تغير هذا النظام ؟

تغير هذا النظامُ فى هذه الآية فقط ، لأن أول ما يفجأُ الإنسانُ يومَ القيامة هو مرئىٌّ مشاهدَ ، لا مسموعٌ ، فجاءت الآية منطقية مع وقتها ومع واقِعها فحسن حينئذٍ تقديم البصر.

* * *

تقديم «المال» على «الولد» ، وعكسه :

قدم الله تعالى المالَ على الولَد فى كثير من الآيات القرآنية ، يقول تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ [سبأ ٣٧] ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن ١٥] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون ٩] .

وجاء ذكرُ [البنين] مقدما على الأموال فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة ٢٤] .

وقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران ١٤] .

فلماذا قدم [المال] على [البنين] فى تلك الآيات الأولى ، وقدم [البنين] على [المال] فى هاتين الآيتين الأخيرتين ؟ .

تقديمُ [المال] على [الولد] لم يطرِّدْ فى القرآن الكريم ، وجاء مقدما فى هذه الآيات الثلاث ، لأنها تنتظمُ معنىً واحدا – وهو التحذيرُ من الاشتغالِ به ، والحرصِ على تحصيله ، حتى لا يفوتُه حظه من الله والدارِ الآخرة ، ومعلومٌ أن اشتغالَ الناسِ بأموالهم والتلهى بها ، أعظمُ من اشتغالهم بأولادهم ، وهذا هو الواقع حتى ليُشغلُه اشتغالُه بماله عن مصلحة أولاده ، وعن معاشرتهم وقربهم .

وأما تقديمُ [البنينِ] على [المال] فى هاتين الآيتين ، فلحكمة طريفة ، وهى : أن الآية الأولى تدل على الوعيد الشديد لمن كانت تلك الأشياءُ الثمانية [آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ، وأزواجكم . . إلخ] أحبَّ إليه من الجهاد فى سبيل الله .

ومعلوم أن تصوُّرَ المجاهدِ لفراقِ آبائه ، وأبنائه ، وإخوانه ، تمنعُه من الخروج أكثر مما يمنعهُ مفارقتهُ لماله ، فإن تَصَوَّرَ مع هذا أن يُقْتَل فيفارقَهم فراق الدهر ، نفَرت نفسُه عن الخروج أكثر ، ولا يكاد عند هذا التصور يخطرُ له مفارقتُه لماله ، فكان تقديمُ هذا الجنسِ – وهم البنين – أكثر من تقديم المال .

فبدأ أولا فى هذه الآية بذكر أصول العبد وهم – آباؤه – المتقدمون طبعا ، وشرفا ، ورتبة .

ثم الفروعُ ، وهم – الأبناء – لأنهم يتلونهم فى الرتبة ، وهم ألصق بهم من الإخوان .

ثم ذكر – الإخوانَ – وهم حواشى النسب .

ثم ذكَر – الأزواجَ – رابعا ، لأن الزوجَة أجنبيةً عنه ، ويمكنُ أنْ يتَعوَّض عنها بغيرها ، وأما الإخوانُ فلا عوض عنهم .

ثم ذكر القرابة البعيدة – وهم العشيرةُ ، وبنو العم .

ثم ذكر الأموالَ – بعد الأقارب – سادسا ، ووصفَها بكونها مُقْتَرفة – أى مكتسبة – لأن الإنسان إلى ما اكتسبه من المال أمْيَل .

ثم ذكَر التجارةَ – سابعا – لأن محبةَ العبدِ للمال أعظمُ من محبته للتجارة ، فالتجارة عنده وسيلةٌ للمال ، فتقديمُ المالِ على التجارة تقديمٌ للغايات على وسائلها ، ووصْفُ التجارة بأنها مِمَّا يُخْشَى كسَادَها ، يَدُلُّ على خطرها وشرفها ، وأنه قد بلغ قَدْرها إلى أنها مخوفةُ الفَسَاد .

ثم ذكر الأوطان – ثامنا – آخرَ المراتب ، لأن تعلُّق القلب بها دون تعلقِه بسائر ما تقدم ، فإن الأوطان تتشابه ، وقد يقوم الوطنُ الثانى مقامَ

الأول من كل وجه ، وقد يكون خيراً منه ، فمن الأوطان ما يعوض عنه ، أما الآباء والأبناء والأقارب والعشيرة ، فلا يُعوضُ عنها بغيرها ، فالقلبُ وإن كان يحِن إلى وطنه الأول ، فحنينُه إلى آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم ، لذلك جاءت محبة الوطن آخرَ المراتب - إلا لعارض -

أما الآية الثانية - آية آل عمران - ﴿زُيِّن للناس حُبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة . . .﴾ فإنها لما كانت فى سياق الإخبارِ بما زُيِّن للناس من الشهوات التى آثروها على ما عِنْدَ الله ، واستغنَوْا بها ، قدَّم ما تعلُّقُ الشهوَةِ به أقوى والنفسِ إليه أشدُّ سُعْراً - وهو النِّساء - التى فِتنتُهنَّ أعظمُ فِتن الدنيا .

ثم ذكَر [البنين] المتولِّدِين منهن ، فالإنسان يشتهى المرأة للذة الولد ، وكلاهما مقصود لذاته .

ثم ذكر شهوةَ [المال] لأنها تُقْصَد لغيرها ، فشهوتُها شهوة الوسائل ، وقُدِّمَ أشرفُ أنواعِها - وهو الذهب - ثم الفضةُ بعده .

ثم ذكر الشهوةَ المتعلقةَ بالحيوان الذى لا يعاشرُ عِشْرة النساء ، والأولاد ، فالشهوةُ المتعلِّقةُ به دون الشهوةِ المتعلقةِ بها .

وَقَدَّم أشرفَ هذه الأنواع - وهو الخيل - فإنها حصونُ القوم ومعاقلُهم ، وعزُّهم وشرفُهم ، فقدَّمها على (الأنعام) التى هى الإبل والغنم والبقر .

ثم ذكر [الأنعامَ] وَقَدَّمها على الحرث ، لأن الجَمالَ بها والانتفاع أظهر ، وأكثرَ من الحرث ، كما قال تعالى فى الأنعام :

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل ٦] .

فالانتفاعُ بها أكثرُ من الحرث ، فإنه يُنتفَع بها رُكوبا ، وأكلا ، وشربا ، ولباسا ، وقُنيةً ، وأسلحة ، إلى غير ذلك من وجوه الانتفاع ، وصاحبُها أعزُّ من صاحب الحرث وأشرف ، ولهذا جُعل الحرثُ آخر المراتب .(١)

* * *

تقديم الأليق بالسياق :

وقد يُقدِّم التعبير القرآنى ما هو الأليق بالسياق ، كقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ ﴾ [الشورى ٤٨ ، ٥٠] .

فقدَّم [الإناثَ] على [الذكورِ] فى هذه الآية ، مع تقدُّمِهم عليهن فى آيات أخرى ، فى قوله تعالى : ﴿ أَلَكُم الذَّكَرُ ولَهُ الأُنْثَى ﴾ [النجم ٢١] وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ ﴾ [النساء ١] .

فلما ذَكر فى آخر الآية السابقة البلاء ، وكُفرانَ الإنسان بنسيانه للرحمة السابقة عنده ، عقَّب ذلك بذكر مُلكه ومشيئته ، وذكَر قسْمةَ الأولاد ، فقدَّم الإناث ، لأن سياق الكلام أنه فاعلٌ مّا يشاء ، لا ما

---

(١) انظر بدائع الفوائد جـ ٧٥/١ .

يشاؤه الإنسان ، فكان ذكرُ الإناث اللاتى هنّ من جملة ما لا يشاؤه الإنسان ، ولا يختاره أهم ، والأهمُّ واجبُ التقديم ، وَلِيَلِى ذكرُ الجنسِ الذى كانت العربُ تَعُدُّه بلاء ذكرَ البلاء .

ولما قَدَّم الإناث لجبر كسْرِهن ، جَبَر الذكورَ بالتعريف ، للإشارة إلى ما فاتهم من فضيلة التقديم ، لأن التعريف تنويه بالذكور ، كأنه قال يهبُ لمن يشاء الفُرسانَ الأعلام المذكورين الذين لا يَخْفَوْنَ عليكم .

ثم أعطى بعد ذلك كلا من الجنسين حقَّه من التقديم والتأخير ، وبَيَّن أن تقديم الإناث لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتضى آخر ، فقال : ﴿ ذُكْرَاناً وإِنَاثًا ﴾[1] .

* * *

تقديم «المال» على «الأنفس» ، وعكسه :

وضحنا أن [المال] قُدِّم على [البنين] فى بعض الآيات القرآنية ، وعرفنا أسرارَ ذلك ، وأسبابه .

وكما قُدِّم [المال] على [البنين] ، كذلك قدمت [الأَمْوَالُ] على [الأنفس] فى آيات الاستشهاد ، والتحريض على الجهاد ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف ١١] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال ٧٢] .

(١) المثل السائر جـ ٢٣٣/٢ ، المعانى فى ضوء أساليب القرآن ٢١٩ .

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾
[التوبة ٤١] .

فلماذا قُدِّم [المالُ] على [النفس] فى هذه المقامات ؟

معلومٌ أن المالَ محبوبُ النفس ومعشوقُها التى تَبذُل ذاتَها فى تحصيله ، وتتعرضُ للموت فى طلبه ، فندبَ الله تعالى مُحِبِّيه المجاهدين فى سبيله إلى بذل معشوقِهم ومحبوبِهم فى مرضاته ، فإذا بذلوا محبوبَهم فى حبِّه،نقلهم إلى مرتبةٍ أخرى أكمل منها ، وهو بذلُ نفوسهم ، وهذا هو غاية الحب ، وكما يقولون : الجود بالنفس أقصى غايةُ الجود .

والإنسانُ لا شىء أحبَّ إليه من نفسه ، فإذا أحبَّ شيئا بذل له مَحْبُوبَه من نفقة أو مال ، فإذا آل الأمْرُ إلى بذل نفسه ، ضَنَّ بها ، وآثَرَها على محبوبه .

وهذا هو مقتضى الطبيعةِ الإنسانية ، ولهذا يدفعُ الرجلُ عن ماله ، وأهله ، وولده ، فإذا أحسَّ بالهزيمة ، والوصولِ إلى مهجتِه ونفسِه ، فَرَّ وتركهم .

والله تعالى لم يَرْض من مُحِبِّيه بهذا ، بل أمرهم أن يبذلوا له نفوسَهم بعد أن بذلوا له محبوبهم ، فبذْلُ النفسِ آخرُ المراتب ، فإن العبد يبذلُ مالَه أولا يقى به نفسه ، فإذا لم يبْق له مالٌ بَذلَ نفسه ، فكان تقديمُ المال على النفس فى الجهاد مطابقا للواقع .

وبملاحظة التعبير القرآنى نجد أنه دائما يقدم [المال] على [النفس] جريا على الواقع ، وعلى ما هو مركوز فى الطباع البشرية ، ولم يأت فى

القرآن الكريم تقديمُ [النفس] على [المال] . إلا فى آية واحدة ، وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [التوبة ١١١] .

وتقديم [الأنفس] على [الأموال] فى هذه الآية هو الأولى ؛ إذ [النفس] هى المشتراةُ فى الحقيقة ، وهى موردِ العقد ، وهى السلعةُ التى استامَها بالجنة ، وطلب شراءَها لنفسه ، وجَعَل فى العقدِ بهذه الصورة رضاه ، فكانت هى المقصودة بعقد الشراء ، والأموال تبع لها ، فإذا ملكها مشترِيها ملَك مالَها ، فإن العبْدَ وما يملكه لسيده ، ليس له فيها شىء ، فالمالك الحق إذا ملك النفس ملَكَ أموالها ومتعلقاتِها ، ولهذا حَسُن تقديمُ [النفسِ] على [المالِ] فى هذه الآية .[1]

تقديم الأموال والأنفس على سبيل الله ، وعكسه :

وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال ٧٢] .

فقد قدم فى هذه الآية [الأموالَ والأنفسَ] على [سبيلِ الله] .

وجاء عكسُ هذا فى قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ﴾ [التوبة ٢٠] .

---

(١) انظر بدائع الفوائد جـ ٧٧/١ .

فلماذا قُدِّم ذكرُ [الأموالِ والأنفِس] على [سبيل الله] فى الآية الأولى ، وفى الثانية قُدِّم [فى سبيل الله] على [الأموالِ والأنفِس] ، والمعنى فى جملته واحد ؟

الآية الأولى فى سورةِ الأنفال وجاءت عَقِب ما أنكره الله تعالى على الصحابة حينما أسَروا المشركين فى بدر ولم يقتلوهم طمعا فى الفداء ، فقال تعالى لهم معاتبا ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ [الأنفال ٦٧] .

ثم اشتد فى العتاب ، فقال : ﴿ لوْلاَ كتابٌ من الله سَبَق لمسَّكُم فيما أخَذْتُم عذابٌ عظيمٌ ﴾ أى فيما أخذتم من هؤلاء الأسرى من الفداء .

ولما غفر الله لهم ما كان منهم من ترك القتل وأخذ الفداء ، قال : ﴿ فكُلوا مِمَّا غَنِمْتُم حلاَلاً طيِّبا ﴾ أى استمتعوا بما نلتم من أموال المشركين ، وبما أخذتم من فدائهم .

فعقَّب ذلك بهذه الآية التى مدح فيها من أنفق أمواله فى سبيل الله ، لا منَ يجاهد طلبا للنفع العاجل ، فقال : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وهَاجَروا وجَاهَدوا بأموالهم وأنفِسهم فى سَبيل الله ﴾ فقدَّم [بأموالهم وأنفسهم] على قوله [فى سبيل الله] ليعلموا أن ذلك يجب أن يكون أهمَّ لهم وأولى بتقديمه ، صرفاً لهم عما حَرَصُوا من فائدة الفداء .

وليست كذلك آيةُ التوبة ، لأنها جاءت بعد ما يوجبُ تقديمَ قوله [فى سبيل الله] ، على ذكر [المالِ والنفسِ] ، فقال تعالى قبل ذلك يخاطب المؤمنين :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ [التوبة ١٦] .

ثم قال فى إبطال ما أتى به المشركون من عمارة المسجد الحرام ، وسقاية الحاج ، مع المقام على الكفر : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ﴾ [التوبة ١٩]

فكان المندوب إليه فى هذه الآية بعد الإيمان بالله هو الجهادُ فى سبيله ، فقال بعد ذلك مادحاً لمن تلقى بالطاعة أمره : ﴿الذّين آمَنُوا وهَاجَرُوا وجَاهَدُوا فى سَبِيل الله ﴾ ثم ثنى بعد ذلك بالأموال والأنفس ، لما قَدَّمَ ذكْرَ ما اقتضى الموضعُ تقديمَه ، وأنَ يجعله أهم إليهم من غيره .

فخالف فى هذه الآية منْ سورة التوبة ما جاء فى سورة الأنفال ، فقدم هنا ما أخر هناك ، ولكلٍّ مقامٌ وتوجيه .[1]

تقديم (القوامة بالقسط) على (القوامة لله) ، وعكسه :

ويُقَدِّمُ الله تعالى فى سورة النساء [قوامين بالقسط] على [شهداءَ لِلَّه] فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ [النساء ١٣٥] .

ويعكس ذلك فى آية المائدة ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة ٨] .

فلماذا قدم فى الآية الأولى ما أخره فى الآية الثانية ؟

الآية الأولى – آيةُ النساء – مبنيةٌ على الأمر بالعدل والقسط ، فيقول

---

(١) درة التنزيل ١٨٩ .

تعالى قبل هذه الآية : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء ١٢٣] ، وقال بعد ذلك : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء ١٢٧] ﴿ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [النساء ١٢٧] وتوالت الآى بعد ذلك فى تأكيد هذا المعنى ، فقدم [القسط] فى هذه الآية ليناسب ما ذُكِر.

أما آية المائدة فقد ذَكَر قبلَها الأمَر بالطهارة ، فقال .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ﴾ [المائدة ٦] .

وفى الآية التالية لذلك ذكَّرهم بنعمة الله تعالى ، وأمَرهم بتقواه ، فقال : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾ [المائدة ٧] .

فناسب ذلك تقديمُ [قوامين لله] على [القسط] ، وظهر بذلك وضعُ كلِّ كلمةٍ فى محلها[1] .

* * *

تقديم «السماء» على «الأرض» ، وعكسه :

قدمت [السماء] على [الأرض] فى كثير من آيات القرآن الكريم ، حيث إنهما كثيرا ما تذكران فى سياق آيات الله تعالى الدالةِ على وحدانيته ، وربوبيته ، ومعلومٌ أن الآيات فى السموات أعظمُ منها فى الأرض ، لِسعتها وعِظمها ، وما فيها من كواكبها ، وشمسها ، وقمرها ،

(١) المعترك جـ ١٧٦/٣ .

وبروجها ، واستغنائها عن عُمُدٍ تُقِلُّها ، أو عِلاَقة ترفعها ، ولهذا أمر الله تعالى أن يُرْجِعَ البصرُ فيها كرَّةً بعد كرة ، ويتأملَ استواءَها واتساقَها ، وبراءَتها من الخلل والفطور ، فالآيةُ فيها أعظمُ من الأرض .

وجاء على هذا الترتيب قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [سبأ ٣] . فقدِّمت [السمواتُ] هنا ، لأن الساعة إنما تأتى من قبَلها ، وهى غيبٌ فيها ، من جهتها تبتدئُ وتنشأ ولهذا قُدِّمَ صَعْقُ أهل السمواتَ على أهل الأرض عند وقوعها ، قال تعالى :﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الزمر ٦٨] .

وأما تقديمُ [الأرض] على [السموات] فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [يونس ٦١] .

فإنه لما كان السياق سياق تحذير وتهديدٍ للبشر ، وإعلامِهم أنه سبحانه عالِمٌ بأعمالهم دقيقِها وجليلِها ، وأنه لا يغيب عنه منها شىء ، اقتضى ذلك ذكرَ محلِّهم ، وهو الأرض ، قبل ذكرِ السماء ، فلهذا قدمت [الأرض][1] .

* * *

(١) بدائع الفوائد جـ ٧٤/١ ، المثل السائر جـ ٢٣٢/١ .

تقديم «الجن» على «الإنس» ، وعكسه :

وقُدِّم [الجن] على [الإنس] فى أكثر المواضع فى القرآن الكريم ، وذلك لتقدم الجنِّ فى الزمان عن الإنس ، يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ [الحجر ٢٦ ، ٢٧]

أو لأن [الجن] يشتمل على الملائكةِ وغيرِهم . مما اجتن عن الأبصار ، وخَفِى عن الأَنْظار .

وأما تقديم [الإنس] على [الجن] فى قوله تعالى فيما أُعِدَّ لنعيم أهلِ الجنة : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن ٥٦] .

فهذا التقديم لحكمة أخرى ، وهو أن النفى فى الآية تابعٌ لما تعقلُه القلوب من الإثبات ، فيَرِدُ النفْىُ عليه ، وعِلْمُ النفوس بطمث الإنس ، ونفرتها من طمثها الرجال هو المعروف ، فجاء النفى على مقتضى ذلك ، وكان تقديم الإنس فى هذا النفى أهم .

وأما قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الجن ٥]

فتقديم الإنس هنا يعرف سره من السياق،فإن فى هذه الآية حكاية مؤمنى الجن حين سماع القرآن :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ② وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ④ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

[الجن ١ – ٥] .

والقرانُ أولُ من خوطب به الإنس ، ونزل على نبيهم ، وهم أولُ من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن ، لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ㉙ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ㉚ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف ٢٩ ، ٣١] .

فجاء قولُ مؤمني الجن : ﴿ وأنَّا ظَنَنَّا أنْ لَنْ تقولَ الإنسُ والجنُّ على الله كَذِباً » ﴾ ، بتقديم [الإنس] لتقدُّمهم فى الخطاب بالقرآن ، وتقديمهم فى التصديق والتكذيب .

أو لأن لفظ [الجن] هنا ، لا يتناولُ الملائكة بحال ، لنزاهتهم عن العيوب ، وأنهم لا يتوهم عليهم الكذب ، ولا بقيةُ الذنوب ، فلما لم يتناولهم عمومَ لفظ [الجن] ، بدأ بلفظ [الإنس] لفضلهم وكمالهم .

وعلى هذا يحملُ قولهُ تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾[الرحمن ٣٩]فقَدم لفظ[الإنس]على لفظ [الجن] حيث إن لفظ [الجن] لا يتناولُ الملائكة بحال لنزاهتهم عن العيوب ، وأنه لا يُتوهمُ عليهم الكذب ، ولا بقية الذنوب ، فلم يتناولهم عمومُ لفظِ [الجن] فبدأ بلفظ [الإنس] لكمالهم ، وفضلهم .(١)

* * *

التقديم للترتيب :

وقد أخذ الإمام الشافعى – رضى الله عنه – وجوبَ الترتيب فى أعمال الوضوء من التقديم فى هذه الآية :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة ٦] .

أخذ الشافعى من هذه الآية وجوبَ الترتيبِ فى أعضاء الوضوء ، لعدة قرائن أحدها: أنه أدخل ممسوحا–وهو مسح الرأس–بين مغسولين–وهو الأيدى والأرجل – وقَطْعُ النظير عن نظيره ، لابد أن يكون لسبب ، ولو أريد مطلقُ الجمع لكان المناسبُ أن يَذْكُرَ المغسولاتِ منسقة فى النظم والممسوحَ بعدها ، فلما عَدَل التعبير إلى ذلك دل على وجوب ترتيبها ، على الوجه الذى ذكره الله تعالى .

الثانى : أن بداءة الرب تعالى بالوجه دون بقية الأعضاء ، خاصةٌ

---

(١) بدائع الفوائد جـ ٦٧/١ .

يجبُ مراعاتُها ، ويجب ألا تُلغى ، وألا تُهدر ، فيهدَرُ ما اعتبره الله تعالى ، وقد أشار الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى أن ما قدمه الله يجب أن يقدم ، فعندما طاف بالصفا والمروة ، بدأ بالصفا ، وقال : « نبدأ بما بدأ الله به » . (١)

* * *

تقديم «اللعب» على «اللهو» ، وعكسه :

ويُقدِّم الله تعالى [اللعِبَ] على [اللهو] ، فى أكثر آيات القرآن الكريم ، فيقول :

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الأنعام ٢٢] .

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [محمد ٢٦] .

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الحديد ٣٠] .

وقدَّم [اللهو] على [اللعب] فى آية العنكبوت ، فقال :

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾

[العنكبوت ٦٤] .

فما وجه التقديمِ والتأخير فى هذه الآيات ، وما الحكمةُ فى ذلك ؟

قُدِّم [اللعب] فى الآيات السابقة ، لأنه يكون فى زمان الصبا ، وأُخر [اللهو] ، لأنه يكون فى زمان الشباب ، وزمانُ الصِّبا مقدمٌ على زمان الشباب ، ولذلك جاء الترتيب فى قوله تعالى :

---

(١) بدائع الفوائد جـ ٦٩/١ .

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد ٢٠] .

أى لعب [كلعب الصبيان] ، ولهو [كلهو الشباب] ، وزينة [كزينة النساء] ، وتفاخر بينكم [كتفاخر الإخوان] ، وتكاثُر [كتكاثر السلطان] .

وأما تقديمُ [اللهوِ] على [اللعب] فى آية العنكبوت ، فالمراد بذكر [اللهو] ذِكْرُ زمانِ الدنيا وأنه سريع الانقضاء ، قليل البقاء ، وأن الدار الآخرة لهى الحيوان ، هى الحياة التى لا نهاية لأمدها ، فبدأ بذكر [اللهو] ، ليكون فى مقابلة الحياة الآخرة فى نهاية الآية ، ليتكامل التناسق ، ويأتلف التعبير فى الآية الكريمة ، وهو مقصد من مقاصد البلاغة فى القرآن الكريم (١) .

* * *

تقديم « الأخ » على « الابن » ، وعكسه : (٢)

يعرض الله تعالى مشهدا من مشاهد يوم القيامة حين يتدافعُ الناس بالمناكب ، وتَتَقطَّعُ علائق المودة والقرابة بينهم ، ﴿ ولا يَسأل حميمٌ حِميماً ﴾ ، ولا تعطفُه عليه عاطفة ، ﴿ لكلِّ امرئٍ منهم يومَئذٍ شأنٌ يُغْنيه ﴾ ، فيقول : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس ٣٣ – ٣٧] .

---

(١) معترك الأقران جـ ٣٣٤/٣ .
(٢) انظر إعجاز القرآن جـ ٢٨٢/٢ .

ويعرض مشهدا آخر لهذا اليوم العظيم ، فيقول : ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ [المعارج ١١ - ١٤] .

فكل إنسانٍ فى هذا المشهد العظيم يفر مِنْ كل من كانت تعطفُ عليه عاطفة ، بل وكل من كان يقطعُ له قطعة من نفسه من ولدٍ ، ووالدٍ ، وزوجٍ ، وأهل .

وقد نظمت الآيتين من ألفاظ مشتركة بينهما [بنيه ، وصاحبته ، وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه،وأمه ، وأبيه] إلا أن بين الآيتين اختلافا فى الترتيب .

فالآية الأولى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه،وأبيه ، وصاحبته ، وبنيه ﴾

فالمرأُ فى هذه الآية يبدأ بدءاً تصاعُدِيًّا ، ينزل عن أقلها درجة عنده ، ثم التى فوقها - وهكذا ، حتى يتخلى عنها واحدة واحدة ، العزيز ، فالأعز .

فهو يفر أولا من الناس جميعا - ولم يذكر القرآن هذا ولم يشرْ إليه - لأن ذلك هو الواقع الذى لا يحتاج إلى بيان - يفر من أخيه ، ثم من أمه وأبيه ، ثم من صاحبته ، وبنيه .

هؤلاء جميعا وإن كانوا بعضَ نفسِه ، إلا أنهم عنده درجات بعضُهم فوق بعض ، يبدأ بالأخ وهو عزيز على النفس ، ولكنه دون الأم والأب .

ثم يحمله الأمر على أن يضحى مرة أخرى ، فيضحِّى بالأم والأب ، وهما عزيزان على نفسه ، كذلك ولكنهما دون الزوج والابن .

ثم يحمله الأمر على أن يُضَحِّى مرةً أخرى ، فيضحِّى بالزوج – وقد سماها القرآنُ [الصاحبة] ، وهى بهذه التسمية أقربُ إلى الرجل من أبيه وأمه ، فهى الزوجة المصاحبة الموافقة التى تعلق بها قلبُ زوجها ، ولهذا لم يجعلها القرآنُ مجردَ زوجة ، بل سماها [صاحبة] فى الآيتين ، فهى زوجٌ وصديقٌ معا ، ولهذا نزلتْ عند الرجل هذه المنزلة .

أما الآية الثانية ، فقد جاء ترتيب هؤلاء الأقارب على عكس ما جاء فى الآية السابقة ، فيقول تعالى :

﴿ يَوَدُّ المجرِمُ لوْ يَفْتَدِى من عذابِ يومِئذٍ ببَنِيهِ ، وصاحَبتِه وأخيه ، وفَصِيلَتِهِ التى تُؤويه ، ومَنْ فى الأرض جَمِيعاً ثم يُنْجِيه ﴾

فقد رتب الأقارب فى هذه الآية ترتيبا تنازليا – الأعزُّ أولا – ثم العزيز ، فمَنْ دونَ ذلك ، فهو – هنا – يُضحِّى بأعز الناس عنده وأمكنِهم مكانةً فى قلبه ، أبنائِه أولا ، ثم صاحبته ، ثم أخيه ، ثم فصيلته ، وهم الأهل والأقارب الذين يأوى إليهم ، ويستظلُّ بهم ، ثم الناسِ جميعا ، وكلِّ شىء تمتد إليه يده ، وتقع عليه عينه .

فما سرُّ هذا التقديم والتأخير فى الآيتين – مع أن الموقفَ واحد ؟
وكيف تنقلبُ طبيعةُ الإنسانُ هنا من النقيض إلى النقيض ؟

الترتيب فى هذين المشهدين هو واقعٌ مع الطبيعة الإنسانية ، ومع ما تقضى به الفطرة فى مثل هذه المواقفِ المفزعة .

ففى الآية الأولى ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته ، وبنيه ﴾ تصويرٌ لحالة فِرار ، فِرارٍ من خَطَر داهم ، يود المرءُ فيها أن يصحب معه كلَّ ما ملك ، فإذا لم تكن الفرصة مُواتية تخفف ، وهو فى كل مرة يترك عزيزا ليصحَب معه الأعز .

وفى موقف الفرار هذا ، لا يُلْقِى المرءُ من يده أولَ ما يُلْقِى إلا ما لا يشتد حرصُه عليه ، ثم ما اشتَدَّ حرصُه عليه ، ثم ما كان أشَدُّ شيءٍ حرصا عليه .

أما الآية الثانية ﴿ يود المجرم لو يفتدِى من عذاب يَومِئذٍ ببنيه ، وصاحبته ، وأخيه . . ﴾ ففيها تصويرٌ لحالةٍ تحددتْ فيها مواقفُ الناس ، وسيق المجرمُون إلى جهنم ، ووقعت الواقعة ، ولا سبيل حينئذ إلى الفرار .

وفى مواجهة هذا الهول يقُدِّمُ الإنسانُ أعزَّ ما لديه ، وأحسنَ مدَّخرٍ عنده ، بنيه ، وصاحبتِه ، وأخيه ، وفصيلتِه التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعا ، يستصرخُ القاصى والدانى ، ومن أى وجه كانوا ، ليفلتَ من هذا العذاب ، ولكن الله تعالى لم يُفْلِتْه ويقول :

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ [المعارج ١٥ ، ١٦] .

ثم إن فى كلمة [يَودُّ] فى مطلع الآية تُجسِّم أهوالَ هذا اليوم العظيم ، وتُضخِّمُ صُورتَه فى الأعين ، حيث تصوِّر كل هذه الضحايا العزيزةِ الغالية ، وتجعلُها فى مجال الأمانى التى يتمناها صاحِبُها ، وفى النهاية لا يحصل عليها .

فهذا الحساب الدقيق للمشاعر الإنسانية ، لا يمكنُ أن يكون على

تلك الدِّقة التامة ، إلا ممن يطلعُ على السرائر ، ويعلم ما تخفيه الضمائر وصدق الله العزيز ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾

[غافر ١٩]

تقديم « الدعاء » فى الخير ، « والمدعو عليه » فى الشر :

وفى كلمة [السلام] التى تقال عند التحية قولان مشهوران :

أحدهما : أن [السلام] هو اسم لِلّه تعالى ، ومعنى [السلام عليكم] نزلت عليكم ، وحلت بكم بركة اسمِه .

الثانى : أن [السلام] مصدرٌ بمعنى [السلامة] وهو المطلوبُ المدعُوّ به عند التحية ، وقد حذفت تاؤه ، لأن المطلوب هذا الجنس ، لا المرة الواحدة منه .

و[**السلام**] **هذا**[1] شُرِع دعاءً للأحياء والأموات ، فيتقدم اسمُ [السلام] على [المسلم عليهم] لأنه دعاء بخير ، والأولى فى الدعاء بالخير أن يتقدم الدُّعاء على المدعو له ، وقد ورد التعبير فى القرآن الكريم على هذا ، يقول تعالى :

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات ٧٩]

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات ١٠٩]

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ [الصافات ١٣٠]

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات ١٨١] .

---

(١) انظر بديع الفوائد جـ ١٧٤/٢ .

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ ﴾ [هود ٤٨] .

ويسلم الله تعالى على أهل الجنة يوم القيامة ، فيقول :

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس ٥٧ ، ٥٨] .

وفى آية أخرى يقول :

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد ٢٤] .

ففى كل هذه الآيات الكريمة تقدَّم الدعاءُ على المدعُوِّ له – وهذا إذا كان الدعاء دعاءً بالخير .

أما إذا كان الدعاء بالشر ، فيقدم المدعوُّ عليه على المدعُوِّ به – غالبا(١) – وقد جاء التعبير القرآنى على هذا .

كقوله تعالى دعاء على إبليس :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر ٣٠] .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص ٧٨] .

وقوله تعالى :

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ [الفتح ٦] .

---

(١) ومن غير الغالب قوله تعالى فى المنافقين والمشركين : « وغضب الله عليهم ولعنهم » [الفتح ٦] .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر ٥٢]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل ١٠٦] .

ففى كل هذه الآيات الكريمةَ نرى أن الدعاء إذا كان بالشر تقدم المدعوُّ عليه على المدعوِّ به .

وسر ذلك – والله أعلم – أن فى الدعاء بالخير قَدَّمُوا اسمَ الدعاء المحبوب الذى تشتهيه النفوس ، وتطلبُه ويَلَذُّ للسمع لفظه ، فيحصلُ من السرور والفرح ما يبعث على التحاب ، والتواد ، والتراحم الذى هو المقصود من السلام .

وأما فى الدعاء عليه بالشر ، ففى تقديم المدعوِّ عليه إيذانٌ باختصاصه بذلك الدعاء ، وأنه عليه وحده كأنه قال : هذا عليك وحدك ، لا يشركُك فيه السامعون ، بخلاف الدعاء بالخير ، فإن المطلوب عمومه وشموله لكل فرد .

وبعد :

فهذَا النظم لا ينبغى أن يُتوهم أن يكون حشْدًا كما اتفق ، يقدم هذا ، ويؤخر هذا ، دون نظام أو رباط أو ترتيب – كلا ، ثم كلا .

فربما يصح هذا أو يكون لو وقع هذا فى كلام البشر ، حيث لا يكون فيه ملحظ لتقديم كلمة على كلمة .

لكن الأمر يختلف مع نظم الله ، مع كلمات القرآن الكريم ، كلام الله الذى هو منظوم بيد القدرة . ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت ٤٢] .

تقديم [الغفور] على [الرحيم] :

قدّم لفظ [الغفور] على [الرحيم] فى أكثر من آية فى القرآن الكريم(١) ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب ٧٣]

وهذا التقديم أولى بالطبع ، لأن المغفرة سلامة ، والرحمة غنيمة ، والسلامة تطلب قبل الغنيمة .

ولم يقعْ فى القرآن الكريم تقديم لفظِ [الرحيم] على [الغفور] إلا فى موضع واحد من القرآن فى قوله تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ [سبأ ١ ، ٢]

فقدّم فى هذه الآية لفظ [الرحيم] على [الغفور] إما بالفضل والكمال ، وإما بالطبع ، حيث إن الرحمة تشمل أصناف الخلق من

---

(١) على سبيل المثال آية الأحزاب رقم ٥ ، ٢٤ .

المكلفين وغيرهم من الحيوان ، فالرحمة تشملهم ، والمغفرة تخصُّ بعضهم ، والعمُوم - بالطبع - قبل الخصوص ، كقوله تعالى :

﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن ٦٨] ، وكقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة ٩٨] .

هكذا قال السهيلي[٢]

لكن ابن القيم - رحمه الله - لم يكتف بكلام السهيلي ، بل زاد فيه ، وأضاف إليه ، فقال[٣] :

« وأما تقديم [الرحيم] على [الغفور] في موضع واحد - وهو أول سبأ - ففيه معنىً غيرَ ما ذكره ، يظهرُ لمن تأمل سياق أوصافِه العُلَى ، وأسمائِه الحُسنى ، في أول السورة إلى قوله : « وهو الرحيم الغفور » .

فقد ابتدأ - سبحانه - السورة - بحمده الذى هو أعم المعارف ، وأوسع العلوم ، وهو متضمن لجميع صفات كماله ، ونعوت جلاله .

ثم عقب هذا [الحمد] بملكه المديد ، فقال : ﴿ الحمدُ لِلَّه الذى له مَا فِي السموات ومَا فِي الأرض ﴾ . ثم عقبه بأن هذا الحمدَ ثابتٌ له في الآخرة غَيْرُ منقطع أبدًا ، فقال : ﴿ ولَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرة ﴾ .وقرن

---

(١) انظر بدائع الفوائد جـ ٦١/١ ، ٦٤ والسهيلي : هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الضرير صاحب كتاب [الروض الأنف في السيرة النبوية ، ونتائج الفكر في النحو (ت ٥٨١ هـ) انظر المدارس النحوية ٢٩٩) .

(٢) بدائع الفوائد جـ ٧٩/١ .

بين الملك والحمد – على عادته تعالى فى كلامه – لأن اقتران أحدِهما بالآخر ، لهُ كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما ، فلَهُ كمالٌ من ملكه ، وكمالٌ من حمده ، وكمالٌ من اقتران أحدهما بالآخر ، فإن المُلْك بلا حمد يستلزم نقصًا ، والحمدُ بلا ملك يستلزم عجزاً ، والحمد مع الملك غاية الكمال – ونظير اقتران [الملكِ والحمد] ، العزة والرحمة ، والعَفْوُ والقدرة ، والغِنَى والكرم .

وقد وسَّط الله تعالى [الملكَ] بين حمدين ، فجعله محفوفا بحمد قبله وحمد بعده ، فقال : الحمْدُ لِلَّه الَّذى لهُ مَا فِى السموات وما فِى الأرْضِ ولَهُ الحَمْدُ فى الآخِرة » .

ثم عقَّب هذا [الحمد والملك] باسم [الحكيم الخبير] الدالَّيْن على كمال الإرادة وكمال العلم ، وأنهما لا يَتعلقان بمراد إلا لحكمة بالغة ، وعلم تام .

وعلى هذا ، فقد تضمنت الآية إثبات حمده ، وملكه ، وحكمته ، وعلمه .

ثم ذكر بعد ذلك تفاصيل علمه بما ظهر وبما بطن فى العالم العلوى والسفلى ، فقال :

﴿ يعلمُ مَا يَلِجُ فى الأَرْضِ ، ومَا يَخْرُجُ منها ، وما يَنْزِلُ من السَّماءِ ، ومَا يَعْرُجُ فيها ﴾

ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غايةَ الإحسانِ إلى خلقه ، وهما : [الرحمة والمغفرة] ، فيجلبُ لهم الإحسانَ والنفع على أتم الوجوه

برحمته ، ويعفو عن زلتهم ، ولا يؤاخذُهم ، بمغفرته ، فقال تعالى : ﴿ وهو الرَّحيمُ الغَفُور ﴾ .

وهو – سبحانه – يقرن بين سعة العلم والرحمة : فقال تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر ٧] كما يقرن بين العلم والحلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء ١٢] فما قُرِن شىء إلى شىء أحسن من [حلم إلى علم] ، ومن [رحمة إلى علم] .

واقتران [العفو بالقدرة] كاقتران [الحلم والرحمة بالعلم] ، لأن [العفوَ] إنما يَحْسُن عند القدرة ، وكذلك [الحلم والرحمة] إنما يَحْسنان مع العلم .

وقدَّم [الرحيمُ] فى هذا الموضع لتقدم صفة العلم فى قوله : ﴿ يَعْلَمُ ما يلجُ فى الأرْضِ وما يخرجُ مِنْها وما يَنْزِلُ من السَّماءِ وَما يعرُجُ فيها وهو الرَّحيمُ الغَفُور ﴾ فقد حَسُن ذكرُ [الرحيم] بعده ، ليقترن به ، فيطابق قوله تعالى ﴿ ربَّنَا وسِعْت كلَّ شَىء رحمةً وَعلْما ﴾ .

ثم ختم الآية بذكر صفة [المغفرة] لتضمنها دفع الشر ، وتضمن صفة [الرحمة] جلبِ الخير . ولما كان دفعُ الشرِّ مقدما على جلب الخير قدم اسم [الغفور] على [الرحيم] حيث وقع ، ولما كان فى هذا الموضع تعارض يقتضى تقديم صفة [الرحيم] لأجل ما قبله من صفة العلم قدم على [الغفور] ، فقال تعالى : ﴿ وهو الرحيم الغفور ﴾ .

* * *

تقديم « السجود » على « الركوع » ، وعكسه :

وقوله تعالى : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

[آل عمران ٤٣] .

التمس السُّهيْلى لهذا الترتيبِ فى الآية وجها ، فقال : (١)

« قَدَّم [السجود] لأن السجود أفضل ، وأقربَ ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجد ، والمراد بالسجود : صلاتها فى بيتها ، وصلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها مع قومها .

﴿ وارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِين ﴾ أى صلى مع المصلين فى بيت المقدس ، فقد عبر بـ « الركوع » عن الصلاة ، فالآية صارت متضمنة لصلاتين : صلاتها وحدها ، عَبَّر عنها بالسجود ، لأن السجودَ أفضل حالات العبد ، وكذلك صلاةُ المرأة فى بيتها أفضل لها ، ثم صلاتُها فى المسجد ، وعَبَّر عنها بالركوع ، لأنه فى الفضل دون السجود ، وكذلك صلاتها مع المصلين دون صلاتها وحدها فى بيتها ومحرابها .

ثم علق السهيلى على هذا بقوله : « وهذا نظم بديع ، وفقه دقيق » .

لكن ابن القيم لم يرتض ما ذهب إليه السهيلى وعدَّه من البُعد والتعسف فى فوائد التقديم وأسرار التعبير ، فقال : (٢)

« وأما قوله تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِى لَربكِ ، واسْجُدِى ، وارْكَعِى

---

(١) بدائع الفوائد جـ ٦٤/١ .

(٢) نفسه جـ ٨٠/١ .

معَ الرَّاكِعين ﴾ فقد أبعد السهيلى النُّجْعَة فيما تعسَّفه من فائدة التقديم ، وأتى بما ينبو اللفظ عنه .

والذى يظهر فى الآية – والله أعلم – أنها اشتملت على مطلق العبادة ، فذَكَر الأعمَّ ، ثم ما هو أخصُّ منه ، ثم ما هو أخصُّ من الأخص ، فذكر [القنوت] أولا ، وهو الطاعةُ الدائمة ، فيدخل فيه القيامُ والذكر والدعاء ، وأنواعُ الطاعة .

ثم ذكر ما هو أخصُّ منه – وهو السجودُ – الذى يُشْرَع وحده كسجود الشكر ، والتلاوة ، ويُشرع فى الصلاة ، فهو أخصُّ من مطلق القنوت .

ثم ذكر [الركوع] الذى لا يُشرع إلا فى الصلاة ، فلا يُسنَّ الإتيان به منفردا ، فهو أخص مما قبل .

ففائدة الترتيب : النزول من الأعم إلى الأخص ، إلى أخصِّ منه ، وهما طريقتان معروفتان فى الكلام: النزول من الأعم إلى الأخص ، وعكسُها ، وهو الترقى من الأخص ، إلى ما هو أعمُّ منه ، إلى ما هو أعم .

ونظيرها قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ ﴾ [الحج ٧٧] .

فذكر أربعة أشياء أخصها الركوع ، ثم السجود أعمّ منه ، ثم العبادةُ أعمُّ من السجود ، ثم فعلُ الخير العام المتضمنُ لذلك كله .

والذى يزيد هذا إيضاحاً قوله تعالى :

﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (الحج ٢٦)

فقد ذكر أخصَّ هذه الثلاثة – وهو الطواف – الذى لا يشرع إلا بالبيت خاصة ، ثم انتقل منه إلى الاعتكاف الذى يكون فى سائر المساجد ، ثم الصلاة التى تكون فى كل بقعة ثم ختم هذه المناقشة الممتعة بقول الشاعر :

وابن اللبون إذا مالُزَّ فى قرن   لم يستطع صولة البزل القناعيس

وهذا مما يدل على اعترافه بحق السهيلى عليه وإقراره له بالتقدم ، ومزيد السبق فى هذا الميدان فليس المصلِّى كالمجلِّى ، والمأمومُ كالإمام ، والتابعُ كالقائد ، وليس ابن اللِّبون من الإبل كالبزل التى بلغت نهاية الفتوة ووصلت حدود القوة .

تنزيه القرآن عن التناقض أو التطويل

لا تناقض بين اللفظين :

القرآن الكريم حينما يستعمل فى تعبيره لفظا فى بعض الآيات ليؤدى معنى معينا لا يُعقل أن يستعمل هذا اللفظ ، أو ما يؤدِّى معناه فى عكس المعنى الأول ، وإلا صار التناقض ظاهرا والفسادُ بينا .

فإذا توهم السامع هذا ، فقد توهم خطأ ، وظن سوءا بنظم القرآن ، وانطبق إليه قول الشاعر :

ومَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ   يجدْ مرًّا به الماءَ الزُّلالا

وعند البحث ، والوقوف على أسرار التنزيل نجد أن التعبير القرآنيّ فى محله ، وقد أصاب غرضه ووقع على هدفه .

وقد زعم قوم أن هناك تناقضا واختلافا بين لفظتى [الودّ ، والمعروف] ، أما لفظة [الوُدّ] ففى قوله تعالى :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾
[المجادلة ٢٢]

أما لفظة [المعروف] ، ففى قوله تعالى فى الوصية بالولدين :

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان ١٥]

وليس هناك تناقضٌ أو اختلاف بين [الوُدّ ، والمعروف] فى الآيتين ، لكنَّ دقةَ التعبير القرآنى اقتضت ذلك .

ففى الآية الاولى ينْهى الله تعالى المؤمنين عن محبة ووُدّ كلٍّ من يُحَادِدِ الله ورسولَه ولو كانوا أقربَ الأقرباء ، آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، فما جعل اللهُ لرجل من قلبين فى جوفه ، ولا يجمع إنسان فى قلب واحد وُدّيْن : وُدًّا لله ورسوله ، ووُدًّا لأعداء الله ورسوله ، ولو كانت روابط الدم هى التى تربط بينهما .

فروابط الدم والقرابة هذه تتصل أيّما اتصالٍ مع صفات الإيمان بالله ، والصحبةُ بالمعروف للوالدَين المشركين مأمورٌ بها حين لا تكون

هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان . فأما إذا وقعت المحاربة ، وكانت الخصومة ، فقد تَتَقطعُ تلك الأواصر ، وتزول هذه الروابط ، وليس هذا خيالُ شاعر ، أوتمنٍّ لأمنيات ، بل هو واقعُ أمةِ الإسلام ، وحقائق شريعة الرحمن .

ففى غزوة بدر قَتَل أبو عبيدة أباه ، وهمَّ أبو بكر الصديق أن يقتل ولدَه عبدَ الرحمن ، وقتل مُصْعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير،وفى غير بدر قَتَل عمر ،وحمزة ، وعلى ، والحارث أقرباءهم وعشائرهم متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة ، وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابطِ والقيمِ فى ميزان الله .

فـ [الود] كلمةٌ تمس شِغَافَ القلب ، ولا تكون إلا عن حب وتقدير يملأ جوانب النفس ، وفى القرآن الكريم ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾[يوسف ٣٠] . وهذا لا يكاد يتفق مع مؤمن بالله ومشرك به يحادّ الله ورسوله،ولو كانوا آباءهم . أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم .

بينما [المعروف] يفعله الإنسان لمن يحبه بقلبه ومن لا يحبه ، فقد يجمعك الطريق بإنسان لا تعرفه ، ولا تربطك به أيةُ عَلاقة ، وتجده فى مأزق فتسدى إليه معروفا لتنقذه مما هو فيه ، كأن يفقد حافظةَ نقوده - مثلا - فتعطيه من المال ما يصلُ به إلى محلِّه ، أو يكون جائعا فتقدم له ثمن الطعام - هذا هو المعروف .

فالوالدان إن حاولا أن يمسا الإيمان فى القلوب ، ويقسرا الإنسان على الشرك ، فهنا يسقط واجبُ الطاعة ، وتعلو وشيجةُ العقيدةِ على كل وشيجة ، فمهما بذل الوالدان من جَهد ومن جهاد ليغريا ولدهما بالإشراك

بالله ، فالولد مأمور بعدم الطاعة من الله صاحب الحق الأول فى الطاعة .

لكن مع هذا الاختلافِ البينِ فى العقيدة ، والأمرِ بعدم طاعتهما ، فلا يُسقط الإسلامُ حقَّ الوالدين فى المعاملة الطيبة ، والصُّحبةِ الكريمة ، وصدق الله العظيم :

﴿ وإنْ جَاهَدَاك على أنْ تُشرِك بِى ما لَيْس لَكَ به عِلْمُ ، فلا تُطِعْهُما وصاحبهما فى الدُّنيا معْروفَا ﴾ .

فالمعروف يكون لمن نحبه ، ولمن لا نحبه ، أما الود فلا يكون إلا لمن نحبه فقط ، وعلى هذا فلا تناقض ولا اختلاف فى الآيتين .[1]

* * *

[**لا يستغنى بأحد اللفظين عن الآخر**] :

يقول تعالى فى ترغيب المؤمنين إلى المسارعة إلى طلب المغفرة :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾

[آل عمران ١٣٣ - ١٣٥] .

---

(١) انظر معجزة القرآن ٧١ .

ويقول فى المعنى نفسه :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

[النساء ١١]

ويتساءل البعضُ ويقول : أليس فعلُ [الفاحشةِ] فى الآية الأولى هو ظلم النفس فى الآية نفسها ؟ ، وأليس فعلُ [السوء] فى الآية الثانية هو ظلم النفس ؟ فالذى يظلم نفسه فى كلا الآيتين يقودُها إلى العذاب الأليم ، والذى يفعلُ الفاحشةَ ، أو يقترفُ السوء ، يقود نفسه إلى العذاب الأليم .

فما السبب فى أن يأتى التعبيرُ القرآنى بأداة العطف ، فيقول فى الآية الأولى : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ﴾ ويقول فى الآية الثانية : ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ﴾ فالعطف هنا لغير موجب ، حيث إن الشيء لا يعطف على نفسه ؟

العطف هنا فى الآيتين لسبب ولموجب ، ففرقٌ بين أن يقال :

« من يعمل سوءا . . ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما » بدون عطف جملة [أو يظلم نفسه] وبين أن يقال كما فى الآية :

﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ ، بعطف جملة [أو يظلم نفسه].

فالذى يعمل سوءا أو فاحشة يفعلها ليحققَ له لذة عاجلة ، فمثلا : نفسٌ ضعيفة يغلبُها الهوى وتخضعُ لبريق الدنيا - إنسانٌ شرب الخمر ، إنسانٌ زنى ، إنسانٌ سرق - كل هؤلا حققوا لأنفسهم لذة عاجلة ،

وباعوا دينَهم بدنياهم – هذا هو الإنسان الذى يقترفُ السوء أو يفعلُ الفاحشة .

أما الإنسانُ الذى يظلم نفسه : فهو إنسان آخر إنه يرتكب الإثم ولا يستفيدُ منه شيئا فى الدنيا فضلا عن الآخرة ، فالإنسان حينما يشهد زورا ليؤذى غيره دون أن يحقق لنفسه نفعا دنيويا ، فهو يظلم نفسه – إنسانٌ لا يؤدى فرض الله ، أو يكفرُ بنعمة الله ، أو يؤذى الآخرين حبا فى الإيذاء – كلٌّ هؤلاء قد ظلموا أنفسهم بمعنى أنهم لم يعطوها شيئا عاجلا ولا ساعدوها على النجاة من عذاب النار ، ارتكبوا الإثم ولم يعطوا لأنفسهم شيئا من متاع الدنيا العاجل ، فمثلُ هذا هو الذى يظلم نفسه .(١)

وبهذا يظهر الفرق بين اللفظين [من يفعل الفاحشة أو السوء ، ومن يظلم نفسه] ، وبَان أن اللفظين ليس معناهما واحد ، وليسا سواءً فى الدلالة ، ومثلين فى المضمون ، ووضُح تماما أن العطف هنا لموجب ، وهو يقتضى المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه .

* * *

---

(١) معجزة القرآن ٦٠ .

ختام

وها نحن الآن نختم هذا البحث بعد أن تأملنا صورا من كلمات القرآن ، ونمطا من ألفاظه ومفرداته ، فوجدناها فى جميع ما تتصرف فيه من الوجوه على حد واحد من الإعجاز فى حسن النظم ، وبديع التأليف ، لا تفاوت فيها ولا نزول عن الدرجة العليا من الفصاحة ، والمنزلة السامية فى البلاغة .

كلماته المنسقة ، وألفاظه فى الترتيب والتأليف ، تعلو كلام البشر ، ولها نغم يتذوقه كل فاهم ، وأثر يدركه كل قارىء ، ولا يستطيع وصفه ، ولا تعريفه ، كما يتذوق الطاعم طعاما طيبا ، ولا يعرف اسمه ، ولا سر طيبة .

وكلمات القرآن فى جمله جاءت على غاية الإتقان ، وكمال الإحكام ، فلا نجد كلمة تنشز عن أختها ، أو تشذ عن سابقتها أو لاحقتها فى أداء الغرض وبيان المقصود ، فإذا وردت الكلمة فى مقام الإنذار كانت إرعادا ، وإن جاءت فى سياق التبشير كانت نسيما واسترواحا .

وقد رأينا أننا إذا حاولنا تغيير الكلمة ، أو تبديل اللفظة ، كنا كأننا غيَّرنا الكلام وبدلناه ، وأخرجنا الكلمة عن صفة الفصاحة ، وجردناها من زينة الأسلوب ، وأطفأنا رواءها ، وأنضبنا ماءها .

إن الكلمة فى القرآن الكريم أشبه بالعضو فى جسم الإنسان ، هو يؤدى وظيفته عندما يكون فى موضعه ، فإذا زايله إلى موضع آخر تغير حال الجسم ، واختل توازنه ، فكذلك الكلمة فى القرآن الكريم وصدق الله العظيم : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

[الإسراء ٨٨] .

* * *

المراجع

أولا :

القرآن الكريم

ثانيا :

الإتقان فى علوم القرآن — للسيوطى ط التجارية القاهرة ١٣٧٠ هـ

إحكام صنعة الكلام — للكلاعى تحقيق محمد رضوان الداية بيروت ١٩٦٦ م

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية — للرافعى القاهرة ١٩٦٩ م

إعجاز القرآن — عبد الكريم الخطيب بيروت ١٣٩٥ هـ

أطوار الثقافة والفكر فى ظلال العروبة والإسلام — د/على الجندى وآخرين القاهرة

أسلوب السخرية فى القرآن الكريم — د/عبد الحليم حفنى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ م

أساس البلاغة — للزمخشرى بيروت ١٩٦٥ م

البيان فى أقسام القرآن — لابن القيم الرياض

البيان والتبيين — للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٧٥ م

بيان إعجاز القرآن — للخطابى – ضمن ثلاث رسائل للإعجاز – تحقيق د/زغلول سلام دار المعارف ١٩٦٨ م

البرهان الكاشف عن إعجاز الفرآن — للزملكانى – تحقيق د/أحمد مطلوب بغداد ١٩٧٤ م

بديع القرآن — لابن أبى الإصبع – تحقيق د/حفنى شرف القاهرة

بدائع الفوائد — لابن القيم بيروت

البرهان فى علوم القرآن — للزركشى تحقيق محمد أبو الفضل ١٣٧٧ هـ

البحر المحيط — لأبى حيان الرياض

بلاغة القرآن للإمام الأكبر الشيخ الخضر حسين

البهاء السبكى وآراؤه البلاغية والنقدية د/عبد الفتاح لاشين القاهرة– دار الفكر ١٩٧٨ م

البديع فى ضوء أساليب القرآن د/عبد الفتاح لاشين دار المعارف ١٩٧٩ م

بينات المعجزة الكبرى د/ضياء عنتر ط حلب ١٣٩٥ هـ

بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيزللفيروزابادى تحقيق محمد على النجار ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٣٨٧ هـ

التفسير القيم لابن القيم – جمعه الندوى – حققه الفقى – القاهرة ١٣٦٨ هـ

تفسير القرآن الكريم للإمام الأكبر الشيخ شلتوت القاهرة ، بيروت ١٩٧٤ م

تفسير آيات الأحكام من القرآن محمد على الصابونى مكة ١٩٧٢ م

الجامع الكبير لابن الأثير تحقيق د/جميل سعيد بغداد

جلاء الأفهام لابن القيم

حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم

الخصائص لابن جنى – تحقيق الشيخ محمد على النجار بيروت

درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافى بيروت ١٣٩٣ هـ

درة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى تحقيق محمد أبو الفضل – القاهرة ١٩٧٥ م

ديوان المتنبى للبرقوقى بيروت

ديوان بشار القاهرة – لجنة التأليف والنشر ١٩٦٧

سر الفصاحة لابن سنان تحقيق الشيخ عبد المتعال الصعيدى القاهرة

السياسة الأسبوعية – صحيفة مصرية – العدد السادس

الصناعتين لأبى هلال العسكرى ط استامبول

صحيح البخارى

الكتاب	المؤلف والنشر
الطراز	للعلوى القاهرة ١٩١٤ م
على مائدة الفكر الإسلامى	للشيخ محمد متولى الشعراوى – بيروت ١٩٨٠
فقه اللغة وسر الفصاحة	للثعالبى – القاهرة
فى ظلال القرآن	السيد قطب – بيروت
فن الأسجاع	د/على الجندى – القاهرة
القضاء والقدر	الشيخ محمد متولى الشعراوى القاهرة
القاموس المحيط	للفيروزابادى القاهرة ١٩٥٢
قصص الأنبياء	الشيخ عبد الوهاب النجار القاهرة
كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان	لابن القيم القاهرة ١٣٢٧ هـ
الكشاف	للزمخشرى القاهرة ١٩٧٢ م
لباب لتأويل فى معانى التنزيل	للخازن القاهرة ١٩٥٥
اللفيف من كل معنى طريف	أحمد فارس الشدياق ط القسطنطينية
مفاتيح الغيب	للفخر الرازى – القاهرة ١٩٣٨ م
المزهر	للسيوطى تحقيق البجاوى وآخرين القاهرة
المثل السائر	لابن الأثير تحقيق د طبانة ، الحوفى القاهرة
مقدمة « المفردات »	للراغب الأصفهانى
معترك الأقران فى إعجاز القرآن	للسيوطى تحقيق على البجاوى القاهر ١٩٦٩ م
من روائع القرآن	د/محمد سعيد البويطى ط حلب ١٩٧٢ م
المدارس النحوية	د/شوقى ضيف ط دار المعارف ١٩٦٨ م
المعانى فى ضوء أساليب القرآن	د/عبد الفتاح لاشين ط ثالثة – دار المعارف ١٩٧٨ م
من أسرار القرآن .	د/مصطفى محمود ط دار المعارف
معجزة القرآن	للشيخ محمد متولى الشعراوى – كتاب صدر عن دار أخبار اليوم بالقاهرة

مجلة كلية اللغة العربية - الرياض - العدد التاسع — مقال الشيخ محمد عضيمة

المنتخب من تفسير القرآن الكريم — للشيخ محمد متولى الشعراوى - بيروت ١٩٨٠.

مقال فى الإنسان — د/عائشه عبد الرحمن

المنجد فى اللغة — دار الشرق بيروت

معانى القرآن — للفراء القاهرة

معجم متن اللغة — للشيخ أحمد رضا بيروت ١٩٥٨ م

ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيدللمبرد - تحقيق الميمنى

مجلة الهداية الإسلاميه - المجلد التاسع محرم ١٣٥٦ هـ

كتب للمؤلف

١ – بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار

طبع ونشر (دار الفكر العربى) – القاهرة ١٩٧٨م

٢ – المعانى فى ضوء أساليب القرآن

طبع ونشر (دار المعارف) – القاهرة ١٩٧٨ م ط ثالثة

٣ – البيان فى ضوء أساليب القرآن

طبع ونشر (دار المعرف) – القاهرة ١٩٧٧م

٤ – البديع فى ضوء أساليب القرآن

طبع ونشر (دار المعارف) القاهرة ١٩٧٩م

٥ – البهاء السبكى وآراؤه البلاغية والنقدية

نشر (دار الفكر العربى) القاهرة ١٩٧٨م

٦ – التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر .

طبع ونشر (دار المريخ) الرياض ١٩٨٠م

٧ – من بلاغة الحديث الشريف

طبع ونشر (دار عكاظ) الرياض ١٩٨٢م

٨ – الخصومات البلاغية والنقدية فى صنعة أبى تمام

طبع ونشر (دار المعارف) القاهرة ١٩٨٢م

٩ – من أسرار التعبير فى القرآن – الفاصلة القرآنية

طبع ونشر (دار المريخ) الرياض ١٩٨٢م

١٠ – معانى التراكيب جـ١ دار الطباعة المحمدية ١٩٨٢م

دار الرائد العربى ببيروت ١٩٨٢م

١١ – ابن القيم وحسه البلاغى فى تفسير القرآن

دار الرائد العربى بيروت ١٩٨٢م

١٢ – من أسرار التعبير فى القرآن – صفاء الكلمة الرياض دار المريخ ١٩٨٣م

تحت الطبع

– من أسرار التعبير فى القرآن – اختيار الحروف – دار عكاظ جده من أسرار التعبير فى القرآن – بناء التراكيب – دار المريخ الرياض لغة المنافقين فى القرآن (جزء) دار الرائد العربى – بيروت

المحتويات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

